لُبنانُ الصَّغيرُ مَساحَةً... الكَبيرُ إشْعاعًا !*

الدكتورة نجاح العطار
وزيرة الثقافة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لايمكن، لبصمة الإصبع، طمس مابين الثقافة والجغرافية من نسب، ولايمكن لها، في المقابل، طمس مابين الثقافة والجغرافية من بعد، فالقرية الكونية، وما أصغر، التي صار إليها العالم، لاتقوى، ومن المحال أن تقوى، على لمّ الإشعاع الثقافي العالمي، في منديل كوني واحد، مادام ثمة تعدد في الثقافات، كما كان، منذ قديم الدهر، تعدد في الحضارات، وأنتم، ونحن، من دعاة تفاعل الثقافات، وتكامل الحضارات، بدل تناحر الأولى، وصراع الثانية.

* كلمة السيدة الدكتورة نجاح العطار وزيرة الثقافة بمناسبة المؤتمر الثقافي الذي أقامته ندوة العمل الوطني اللبناني في بيروت في الثالث من كانون الأول عام: ١٩٩٩.

ولبنان، وشأنه كبير كبير لدينا، كما تعلمون ونعلم، ما حجمه من مساحة القرية الكونية هذه؟ وما الظن، في تلفت القلب، إذا كان هذا الظن، قياساً إلى مداه، يتخذسرعة الضوء ويتجاوز؟ ثم ماالقرابة، في هذا التجاوز الضوئي، بين الظنّ والاشعاع، إذا ماكانا، رسولي فكر، هو الأسرع في تجاوز التجاوز نفسه؟

إنما لبنان، هذا الذي لايرى إلا في مجهر المساحة، هو الأكبر في مساحة الإشعاع الفكري، من القرية الكونية ذاتها، على اتساعها، لأنها به، وبمثله، يكون لها حضور، بينما لبنان، دون هذه القرية، وقبلها، كان له حضور وحضور وحضور.

هذا، في رأيي، وجود لبنان في ثقافات العالم، وإسهامه فيها، وهذا بعض مقياس دور لبنان في الثقافة العربية، أو هو كل المقياس، إذا ما أخذنا بشمولية النظرة، تاريخاً وواقعاً، وإذا ماكان، في مواجهة تحديات المستقبل، لابد لنا من هذه الشمولية، باعتبار الثقافة العربية ثقافة واحدة، لابين بلد عربي وآخر فقط، بل بين مشرق ومغرب عربيين أيضاً، وكل ما يقال، خلاف ذلك، لايدخل في باب الرأي والرأي الآخر، وإنما في باب الافتئات على الحقيقة في نسبيتها، كونه يؤدي، في انداياحاته العفوية أو المقصودة، إلى محاولة ما، محاولة لا أكثر، لتفتيت وحدة هذه الثقافة، التي استعصى تفتيتها، أو التقليل من قوة نبضها، أو السعي لدثرها، خلال أربعة قرون من الحكم العثماني لبلاد الوطن العربي، وخلال عقود غير قصيرة من محاولات أصحاب الاحتلالات الأجنبية في البلاد العربية، لتغييب هذه اللغة، هذه الثقافة أو حتى محو أثرها اللغوي،

الوطني والقومي، من عقول وأفئدة الشعب العربي الذي كان رازحاً، تحت رصاصية هذه الاحتلالات المنيخة على صدره.

لبنان، في صغره والكبر، ربما أكثر من سواه، بل الأكيد أكثر من سواه، عانى ويلات الحكم العثماني، فتأذى روحاً وفماً، ودفع، مع شقيقته سورية، الفدية تضحية من أرواح النخبة الزهراء بين رجالاته الأبرار، شيباً وشبَّاناً، وتأذى لبنان، كغيره، وبقدر أكبر، من محاولات النيل من الثقافة العربية في نفوس أبنائه، و في كل ربوع وطنه، إلا أن لبنان الصامد اليوم، هو لبنان الصامد دوماً أبداً، وجهاً عربياً، وثقافة عربية، وأخوة عربية، وواجهة حضارية عربية، لها مطلات، وما أعظم، على العالم كله، ومنه، من لبنان، كان فجر انبعاث اللغة العربية، بعد أماسي عصور الانحطاط، وما في هذه اللغة، وفي سرها المعجز، من عبقرية الإبداع، وهكذا، والتاريخ شاهد، جاء مد الضاد بعد جزره، وجاءت عودة الروح إليها بعد تغيابها الطويل عنها، ومن هذه الأرض الطيبة، حضراً وريفاً، جبلاً وسهلاً، أفقاً مرئياً وما أبعد منه، كان هذا المد، كان هذا الانبعاث، وشاء ربك، وأصالة الحرف في وثبة النخوة، أن تكون تباشير النهضة لهذه الضاد، لهذه اللغة، ولهذه الثقافة العربية، من لبنان الذي هو صاحبها، وموئلها، والناشر لواءها إلى ماوراء التخوم، في الجهات الأربع.

إن الكلام على النهضة لغة وثقافة، وانتقالها من لبنان إلى مصر، ورجالات هذه النهضة بالأسماء، متروك للندوة التي نفتتحها اليوم، فالإيجاز في المفتتح يجمُل به الإيماء، وقد ياسرت إلى هذا

الايجاز بالدلالة وحدها، لأن التاريخ اللغوي والثقافي، انبعاثاً، نهضة، انداحاً، معروف تقريباً، وما أود قوله هين، يسير، شأنه ألا يغفل أن في أرض الكنانة، وفي الشآم، وفي المغرب كما المشرق، كان للغة العربية، في كل دوائر إبداعها، أعلام معروفون، هم الأساتذة أيضاً، بما مهدوا لهذه النهضة، وبما تلقوها وأسهموا في تثبيت أركانها، وفي إنمائها بعد ذلك، إلى أن بلغت شأوها المرجو، دون نكران أن للبنان، في الثقافة العربية، موقع الريادة، ودون إغفال أن في مصر، وعلى أيدي مفكريها، وأيدي اللبنانيين والسوريين المهاجرين إليها الذين تعاونوا معاً أصدق التعاون، من حمل راية اللغة العربية، والثقافة العربية، وأفاء بهما على العروبة كلها فيئاً ظليلاً، يذكر فيشكر.

أما في أيامنا هذه، حيث للإشعاع العربي منابر متعددة، منها القاهرة وبيروت ودمشق، فإن تبين تحديات المستقبل، والاستعداد لها، والإفادة منها، تصبح المهمة الأكبر التي يجدر بنا أن نعترف بخطورتها، بغير أن نهابها، أو نجزع في أمرها، فلدينا كل الإمكانات، وكل المقومات، لنجبه الغزو الثقافي من الجوار والعالم، ولنجبه، قبله، الغزو الاقتصادي. فكل تفريق بين هذين المتلازمين ضرب من الوهم، وجبه الغزو الثقافي له شرط، هو في متناول الكف العربية، قوامه أن يكون لنا حضور ثقافي في العالم، بمثل ما لهذا العالم من حضور ثقافي عندنا، وآلة ذلك تتمثل في أن نهتم بالثقافة العربية، وأن تبدل الحكومات العربية من نظرتها إليها، فلاتبقى ترفاً كما هي الآن، وإنما ضرورة كما ينبغي أن تكون،

وحين تغدو الثقافة ضرورة، وفي أيامنا هذه خصوصاً، نكف عن محاصرتها بالشح في الإنفاق عليها، وبالرقابة المقيتة في التضييق على حركتها، إنتاجاً وتسويقاً. ونكف، وهذا هو الأهم، عن خنق الحرية التي دونها لاتزدهر الثقافة، ولايتجلى الإبداع، وكل طموح في أن تسفر الثقافة لنا عند غيرنا، منطلقه أن نشجع هذا الإسفار، بالوسائل المتاحة، المتدرجة في النمو، والاتساع، والتنوع، مع الاستمرارية إلى أن نبلغ الغاية، أو مايدانيها.

التحدي الآخر، الأخطر، هو الارتهان لما نحن فيه من تخلف، زمن المعلوماتية، وثورة الاتصالات، والفتوحات الالكترونية، المتسارعة بغير وني، وقد أعرنا، في سورية، الاهتمام اللازم لهذه المسألة، فأنشأنا مراكز للبحوث، ومراكز للمعلوماتية، وأدخلنا الكومبيوتر في التعليم بمستوياته كافة، إلا أن هذا كله غير كاف، فنحن وضعنا القدم على أول الطريق، هذا الطويل والمتطاول أبداً، الذي فيه كل يوم قفزة إلى الأمام في العالم، وعلينا، مقابل القفزة، أن نقوم بخطوة على الأقل، خطوة يوميةومستمرة، وإلاَّ اتسعت رقعة الفروق بيننا وبين عصرنا، العصر الذي نحن على عتبة ألفيته الثالثة.

التحدي الثالث يتبدّى في الانفتاح، هذا الذي يريدونه مطلقاً، تمشياًمع اقتصاد السوق، ومع الرغبة في جلب الاستثمارات الأجنبية، وقد طرح الرئيس حافظ الأسد، إضافة إلى التعددية

السياسية والاقتصادية، موضوعة السوق العربية المشتركة، ولانزال نأمل في تحقيقها، إذا ما تحقق، قبلها، التضامن العربي، أقله التنسيق العربي، حيث يصبح في الإمكان، مروراً به، أن تكون لنا سوق مشتركة، في كتلة عربية باتت مطلوبة بحتم، للوقوف على مستوى، أو على مقربة، من التكتلات التي نشأت، أوستنشأ، عالمياً، مثل الاتحاد الأوروبي، والسوق الأوروبية المشتركة وغيرهما من تكتلات سياسيةواقتصادية، في زمن العولمة التي هي بين الموضوعات الرئيسة في هذه الندوة، العولمة التي لها جانبها السلبي، شديد الخطر، وجانبها الإيجابي الذي يخفف من وطأة ماهو سلبي فيها، إذا أحسنّا معرفته، والانتفاع به، بالإصرار عليه.

ومن البدهي أن جبه تحديات المستقبل، في الاقتصاد كما في الثقافة، لايكون إلا مع السيادة الوطنية والقومية، وبالوقوف ضد الانجراف الذي يستدرجنا إليه الأعداء، وإسرائيل في المقدمة، مزينين الجزرة تارة، ملوحين بالعصا طوراً، واضعين اللسان في موضع الأذن، والأذن في موضع اللسان، كما يفعل باراك منذ وصوله إلى الحكم في إسرائيل، في زئبقية لسانية وأذنية، حيث يمسح في الغد ماقاله اليوم، ويُسمع اليوم غير الذي يسمعه في الغد، متذرعاً بالسلام وغير جاد في أمره، فهو لايريد السلام مع الشجعان بل مع الضعفاء، مع المتخاذلين أمامه، المترامين على أعتابه، المتنازلين عن حقوق شعبهم بغير توقف، وباراك هذا يعرف هؤلاء

ويمعن في إذلالهم، ويمعن، كذلك، في خطه والدجل، دون أن يستجيب للدعوة السورية إلى السلام الحقيقي، السلام العادل، الناهض على مقايضة الأرض بالسلام، وفق مرجعية مدريد وقرارات الأمم المتحدة.

إن تلازم السياسة والثقافة معروف، ومفروغ منه على نحو من الأنحاء، لكنني أكتفي بهذا القدر من الكلام على السياسة، بعدأن تكلمت بقدر ما على الثقافة، ولقدحمدت لندوة العمل الوطني في الجمهورية اللبنانية الشقيقة، السيدة وطنياً وقومياً وعربياً، حمدت لها مبادرتها إلى إقامة هذه الندوة، تتويجاً لعام بيروت عاصمة ثقافية، وبيروت عاصمة دائمة للثقافة، لكنها شاءت أن يكون لها عامها الخاص فكان، وقد شاركنا فيه ما وسعت المشاركة، إيماناً منا بأهليتها فيه، وجدارتها بالنهوض بمتطلباته، ووفاء منا لوحدة المسار والمصير، هذه الوحدة التي يجهد الآخرون، وبعضهم من لحمنا مع الأسف، لعرقلة الالتزام بها، ونسفها لو استطاعوا، والله يأبى ألا أن يتم نوره، ولو كره الكارهون.

إن مجد لبنان لاتحتاج مرآته إلى جلوة شمس، فعلى كل حنية من حنياتها سطور من عبقر، والذرى التي ألهمت الأجداد تلهم الأبناء، وبقدر أكبر، وفي حنجرة الريح يجوّد لنا الدهر الشآميات فيختال بردى، وتصدح فيروز، فنحس دفء نيسان، والسكب في الشعر، كما في النثر، سكب من نور، على فم الزمان يتسال،

نستشعر له، ويستشعر الكون معنا، نشوة الروح، وطرب الجوانح، حتى إذا ما سالت الخضرة على الروابي، وانداحت في أمداء السهول، تاق النظر إلى الرؤية، توق قانت إلى الملكوت.

ويقال، والقول حق ماشابه شك، إن الربيع يمر، في كل أرض ويمضي، إلا في لبنان فإنه يتلفت وعبقريات المعرفة، على ذرى صنين، تصوغ من الثلج مغائر، تبدو فوقها الأفلاك المنورة، هداية للركب الذي تاه في فيافي البيد، والمألوف يصير لديكم خارقاً، غازلاً الأساطير العجيبات من زرقة البحر وأرزة الجبل.

ببساطة، إذا حكى لبنان، أصغت الدنيا، وتلك هي حكاية الحكاية، وشكراً

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الدراسات والبحوث

ميتافيزيائية النظريات التطورية

د. هاني يحيى نصري

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

التطور الفاعل:

هو فكرة أو تصور محكوم بالنظرية التطورية التي بدأها «داروين». فتطور الحياة يخضع إلى آلية التغير الدائم، عضوياً ونفسياً، وهذا التغير متصل، وكل دراسة لهذه الآلية تحتم عزل عناصرها، التي يجب أن نراعي أثناء القيام به(*)، ميل كل موضوع فيزيقي إلى تكوين منظومات قابلة للعزل، عبر تيار التغير الدائم المتصل الذي يشكل آلية صيرورة هذه المنظومات.

د. هاني يحيى نصري: باحث من سورية، دكتوراه في الفلسفة - استاذ في عدد من الجامعات العربية والعالمية. آخر مؤلفاته «مشكلة الشر».

(*) أي بهذا العزل.

وهكذا نجد أن كل شيء دائم، هو في الواقع متجدد، عبر الصيرورة، فالجسم الحي يتركب من أجزاء غير متجانسة تشكل فرادته، على شكل منظومات معزولة ومغلقة وصائرة، بآن واحد، وهو -أي الجسم الحي- بهذا المعنى عالم أصغر ضمن عالم أكبر شبيه به، أي له ديمومته: بمعنى أثر وتأثير ماضيه في حاضره نحو مستقبله، عبر استمرار التغير في كليهما.

وعلى هذا الأساس ينتشي الكون - الذي هو معقد -بساطته، ويعود ليعقدها، بعلاقة متسلسلة متنوعة بين الأنواع الحية، فيلد تيار الحياة.

وبإنتقال هذا التيار من جيل إلى جيل تبرز وتنقسم الخصائص الفردية بإنشطارات نوعية في الأنواع، وبينها تتداول تلك القوة المولدة لديناميكية الحياة، عبر آلية التغير الدائم، وبذلك يؤثر الماضي في الحاضر لخلق شيء جديد دوماً.

ولو أمكن رصد هذه الانشطارات النوعية في الأنواع، وتحديد وتحليل معطياتها، لأمكن معرفة ما ستصير اليه، أي المستقبل والماضي في هذا الآن، لكن عجز الفكر عن معرفة كل شيء في لحظة واحدة -مهما كان كمبيوترياً- هو سبب عجزنا عن رؤية التطور الفاعل في سير الحياة.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فالخلق ليس برنامجاً معداً مسبقاً: . . . الحمل خُلِقَ من أجل الذئب. . . وهكذا، الغائية هنا تضللنا لأن التغير والصيرورة هي أداة الخلق الداخلية، لذلك يجب أن لانهتم بالبحث عن المتطورات والمستحاثات كما تفعل «الأنثروبولوجيا»، بل يجب أن نبحث عن فعل التطور الذي هو هدف الحياة.

أن الحياة استمرار لدفعة واحدة توزعت بين اتجاهات مختلفة، داخل تفرعاتها شيء أساسي من الكل الذي أطلقها، وهذا ينبهنا إلى أن تعقدات أجهزتها وأدواتها في الأنواع المختلفة، لم تكتمل عبر تغيرات طفيفة طرأت

على هذه الأجهزة، بل عبر استجابة كلية «جشطلتيه» حافظت على نظام واحد بين عناصر كثيرة ومعقدة، فنحن إذا غيرنا كمية الملح في الماء الذي يعيش فيه حيوان من ذوات القشر، «Artenia Salinae» فإن تغيرات هامة تطرأ على الحيوان ككل.

فالتغير ليس نتيجة الجهد البطيء الذي تصنعه أسباب «فيزيوكيميائية»، بل هو نتيجة دفعة الحياة الأولى وهي تخترق الصيرورة، وهذا الفعل أو الدفعة يسميها «برغسون»: بالفعل البسيط

ونحن بمجرد ادراكنا له وقد تشظر وهو يتجزأ، ندرك فعل الخلق التطوري: (أن الطبيعة تستطيع أن تصنع العين - على كل تعقيدها البصري والعصبي - بالسهولة التي أحرك بها يدي)[1]، أما إذا نحن نظرنا إلى أجزاء العين تحليلياً فسندهش من فسيفسائية خلاياها وعملية رصف أجزائها الدقيقة كما لو كانت ضمن مخطط مسبق تم تنفيذه بدقة متناهية

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

لكن الوصف والتفسير العلمي مضطر إلى التجزيء، أما الفلسفة فعليها أن تنظر إلى شمولية العقبات التي على الحياة اجتيازها منذ دفقتها الأولى، فالمعلول يفسر بالعلة بمجموعها، لكن الأجزاء في العلة ليست موجودة في المعلول، فالحياة كنزوع إلى التأثير في المادة الميتة سايرها وخضع لها حتى يخترقها، وهو يعرف شيئاً مسبقاً استسلامه القادم لها -المادة الميتة- بالموت، لذلك تمت احتمالات نوعية متشعبة وأثناء هذا النمو خلقت اتجاهاتها التطورية.

وما نظريات التطور إلا كشف عن بعض هذه الاتجاهات عبر التكيف والتلاؤم والجهد والإرادة.. إلخ فالتطور خلق مستمر، لاتحقيق لتصميم مسبق، يكن لفكرة من الحاضر أو الماضي فهمه لأجل تصميمه؟!

(1) Richard Leakey , the Origin Of Humankind, Phoenix London (1996' P155

واتجاهات الحياة المتباعدة في الأنواع ظلت كلها مهددة بالجمود والانقراض، فهي ليست درجات في سلم يحدد فيه الأرقى، بل محاولات فاشلة لتحقيق الديمومة «لأنا» لامادية ما(*)؟!

فالعقل والغريزة يمثلان حلين متباعدين -من أصل واحد- لإشكالية الانقراض والموت.

والغريزة كعقل مسبق البرمجة فينا، يمكنها أن تكون شعورية نستطيع أن نشعر بها، بقدر ما يمكننا أن لانشعر بها، فليس لنا إلا قدر ضئيل على تعديلها، أو الاختيار بين معطياتها.

أما العقل:

فهو نتاج الفردية في الغريزة، أي بتعبير كمبيوتري، هو نظام مبرمج قادراً أن يبرمج ذاته، يعود ويستوعب ما حوله من قوانين وما فيه، فإذا استوعبها وعاها وإذا وعاها أدرك مطلقاتها.

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

والذي يسمح للعقل ببرمجة ذاته بذاته، من برنامج الغريزة المسبق البرمجة، أو حسب تعبير «برغسون»: الذي يسمح للعقل أن يصنع أدواته بنفسه، هو التطور الخالق.

وهذا التطور الخالق كما عند «برغسون»(*) هو الذي يسمح للمفترسات من الحيوان، بإمساك طرائدها من مقتلها، وكأنها جراح – جزار – ماهر، كذلك يعرف العقل أموراً لم يسبق له تعلمها: بالحدس.

لذلك يقول «برغسون»: إن العاقل يحمل في نفسه ما يجعله يتجاوز حدود نفسه -من فكر-، وفي اليوم الذي أدرك فيه العقل على أنه مبدع

(*) تركيب سهم الزمن الصاعد بحركية الزمان والمكان، من الانفجار الأول نحو «التحطم الكبير Big Crunch» حسب ستيفن هوكنغ، أنظر: Abrief History Of Time, Stephen Hawking, Banton Books N.Y 1997, P153.

(*) هو عندنا: التطور الفاعل.

أفكار، حاول نقل أفكاره إلى الآخرين بالصوتيات أولاً ثم بالكتابة ثانياً، وبهذا المعنى تُخَلّقُ الحياة الاجتماعية اللغة، كإشارات يمكنها أن تنطبق عن عدد لامتناه من الأشياء، من المشيرات المتناهية التي تشير إليها.

وهكذا تنتقل صوتيات التعبير ورموزه من الإشارة إلى المادة الجامدة، إلى الإشارة إلى ما ليس بجامد، أي إلى الإشارة إلى كل المجردات، من المشخصات.

وهذه المجردات التي هي هدف التعبير الأسمى، هي لأجل ايضاح حدوس الإنسان، التي تنبع في كل واحد منا من جماع غرائز البحيرة الوراثية التي يمثلها، في تواجده اليوم أمامنا، وهي التي تكشف لنا عن الأسرار العميقة للمعرفة وحتى لمعرفة الحياة.

وهذه البحيرة الوراثية شأنها شأن آلاف وملايين الخلايا في الجسم، التي تعمل غريزياً بشكل مشترك لتحقيق هدف بقاء صاحبه حياً، تعيش بصورة بالغة التنظيم في موروثاتنا، وتعمل لتحقيق هدف تموين عقلنا بغرائزه حدسياً، هكذا تورث الصفات الوراثية، وتخصب في بحيراتها الوراثية كلما اختلطت وتوسعت بين الناس والشعوب

وهذا لايخضع لانتخاب طبيعي ولا لأي تحسينات جديدة تأتي من أفعال الأولين الذين شكلوا بحيرتك الوراثية، بل كل هذا إضافة إلى جهد خفي أعمق هو التطور الفعال الفاعل.

والعزيزة:

هي مفتاح فهم معنى الخلق المستمر في الأحياء، بل يفهم معنى التطور الخالق ومنها، فإذا كان للعقل فهم ظواهر الأمور، وهذا هو حقله «الفينومينولوجي» المعرفي، فإن للغريزة الولوج في الحياة بذاتها وتغيير مجراها وتطويره، وهي حين تظهر بحدوسنا تدخل بنا إلى داخل الصيرورة والسيرورة، لتشرف بنا على مشارف العقل الكلي الذي يحكم هذا الوجود.

فأساس الحدس هو تلك المشاركة الغريزية الوجدانية مع «نوسن» هذا الوجود، حيث يدخلنا في المجال الخاص للحياة، التي هي خلق متصل لامتناه، ونحن حين نوجه العقل بحدوسنا نكتب لغة الميتافيزياء في صلتها مع نظرية المعرفة.

انك حين تعرف التطور من المعرفة العلمية، لن تجد فيه أكثر من آلية واصطفائية وحتى عرقية سطحية، لكنك حين تصب حدوسك الغريزية على الحوامل التي تسمح للتطور بهذا التجانس، في البروز في حيز الواقع بين الأنواع، وتلك الغائية والهدفية فيه، أي حين تبحث في ميتافيزيائية التطور، تجده سياقاً من سياقات تفتحات العقل الكلي، وبذلك ترتبط الحياة في كل سياقها بشيء يشبه الشعور كما أكد «برغسون».

لذلك قال: (الشعور موجود من البدء، وكل شيء يتم كما لو أن تياراً واسعاً من الشعور قد انبث في المادة، وقادها نحو التعضية)[٢]. والذي يستطيع أن يدرك هذا، يختلف عمن يستعمل مجرد القياس المنطقي في تغيرات الحاضر - بما يسمى بتطوير أدواتنا وتقنيتنا كبشر - ويقيسها على الغائب البعيد، فما أطلقوا عليه نظرية الانتخاب الطبيعي أو «الإصطفاء» عبر البقاء للأقوى، والتغير التدريجي والطافر -من الطفرة-، وما هذا الاختلاف في ادراك الخلق عبر التطور هذا، إلا اختلاف في الطبيعة لا مجرد الدرجة بين البشر القائلين به، يشبه الاختلاف بين مجرد الذكاء من جهة، والوعي الإنساني من جهة أخرى، كالإختلاف بين القدرة على الإلتفاف أي الذكاء، وبين القدرة على ادراك المطلقات أي الوعي، وهذا الأخير لا يمكنه أن يتنكر لصلة الغرائز الحدسية فيه، عبر سلالته التطورية، التي تجعل من اختلافه عن الإلتفاف والذكاء فقط، اختلافاً أساسياً داخل النوع البشري، في الطبيعة لا في الدرجة فقط.

(٢) هنري برغسون، التطور الخالق، دمشق، دار طلاس، عام ١٩٩٨م، ص٧٦.

وهذا مالاتستطيع أن تقوله «الأنتروبولوجيا» دون أن تقع بالعرقية، في ضرورة تمييزها بين «Homo Habilis هو مو هابيليس» وما تدرج إليه من «Homo erectus» هو مو أريكتوس[٣]، وما إعادة تركيب «الهومينيد Hominid» الذي وجده الانتربولوجيون في «عفار» أثيوبيا، والذي أطلقوا عليه اسم «لوسي Lucy» عام ١٩٧٤م، إلا صورة مشخصة لهذا التمييز العرقي الموحي بأن الزنجية «لوسي»[٤] هذه هي مرحلة بين الإنسان وشبيهاته، مما يدفع إلى تأكيد النظريات العرقية، بأن العرق الأبيض أرقى من سواه من الأعراق.

بينما الرقي الحقيقي ليس في الاصطفائية «الدارونية» والعرقية الحتمية التي تنتج منها، ومن كل توصيفاتها الآلية، بل هو في مدى قدرة أي عرق على الانتقال من الذكاء إلى الوعي، مهما كان أساس شكل بحيرته - شيفرته - الوراثية.

http://Archivebeta.Sakhrit.com

تلك الشيفرة التي تم فكها في نهاية تسعينات هذا القرن، والتي تتضمن معلومات محددة بها ذاكرة كل التصالبات الصبغية والعرقية التي تشكل سلالة هذه الانسان أو ذاك، فبها بالقوة (تعلم، ولغة وذاكرة، مُشَفَّرٌ معها أيضاً الطفرات والتباينات التي تسبب، أو تزيد من القابلية للإصابة بالكثير من الأمراض - الموت - المسؤولة عن قدر كبير من المعاناة البشرية[٥]

(3) Herbert Thomas, The First Humans, Thames and Hudson, London 1995' PP67-87.

(4) Ibid, P85

(٥) دانييل كيفلس، الشفرة الوراثية للإنسان، عالم المعرفة، الكويت، كانون٢ ١٩٩٧، ص٣٢٤.

فلئن طغت صفات عرقية ظاهرة على هذا العرق أو ذاك، فالشيفرة الوراثية الإنسانية واحدة، والتطورية تغفل هذه الواحدية لأنها مضطرة إلى التحليل حتى تستطيع الفهم العلمي.

والفهم العلمي كجزء من العقل النظري الإنساني، لاقوام له مالم يجد مكانه في سياق العقل النظري الميتافيزيائي الإنساني، الذي يبحث في هذا السياق الذي نحن فيه عن معنى الحياة من خلال عملية العقل العملي في النظريات التطورية العلمية، دون انبهار بأي نتائج علم نسلم لها زمام العقل النظري الواعي، فنجعله تابعاً للذكاء لاالعكس، طالما أن الذكاء حين يضعنا إزاء تفسيرات تحليلية محددة لهذه الظاهرة أو تلك، من الناحية الفيزيقية، بمعزل عن سياقها الميتافيزيائي الشامل، لايتجنب «جشطلت» سياقها العام الكلي فقط، بل موقعها من المطلق أيضاً، وهذا هو أساس الاختلاف الحاد بين العلم والميتافيزياء، في جذره القائم على الاختلاف بين العقل العلمي والعقل النظري، وهما في الواقع متكاملان.

لذلك لن يستطيع العلم أن يفسر معنى الحياة، ولاهو بقادر على تفسير ميكانيزمات الخلق التطورية فيها، وحده دون معين من الفعل النظري الميتافيزيائي.

معنى الحياة:

أن الخط الفاصل بين المتعضي واللامتعضي، أي بين الجامد والحي، هو تلك العلية التي سمحت «للجين Gene» بالظهور، وهو كبنية خلفها بنى يشبه حسب تعبير «جاكوب Jacob»: يشبه الدمية الروسية التي في داخلها دمى متعددة كل واحدة منها تشير إلى احتمالات أخرى، وتدعم بعضها بعضاً بشكل يبدو للوهلة الأولى واحداً[٦]، وعلى هذا الأساس تنعكس

(6) Franceois Jacob, The Logic of Life, Penguin Books, N.Y 1989, P16.

صفات الآباء في كل كائن حي بأبنائهم، وكلما زادت خصوبة تلك الصفات في تفاضليتها، زاد امكان بروز صفات مخلوقة جديدة في الأبناء، وهكذا.

ودراسة الشيفرة الوراثية بهذا المعنى هي محاولة فك تلك اللغة الخاصة الخلاقة للجينات، وفهم مفاهيمها الأساسية التي قامت عليها، تلك المفاهيم التي تعكس وتصنع بذات الوقت عقلاً متجلياً فيها، وهذا العقل لايمكننا أن نراه بعين الوصف العلمي، بل بعين شبيهه أي العقل فينا، طالما أن الشبيه لايصرف إلا بشبيهه، وعين العقل هذه هي ليست في المنطق وحده، بل في حوامله بالميتافيزياء، ذلك أن (كل أفعال الجسم الحيواني يمكنها أن تصنف بفاعليات لامادية)[7]، وهكذا نجد أن قوة الحياة التي تظهر كبديل عن الطاقة التي يستقبلها الجسم الحي، قوة لامادية في مصدر مادي.

وهي عاقلة من مصدر مجهول، بظهورها هذا يتجلى التطور الفاعل لابراز وتجلي العقل الكلي في كل شيء.

والتلاؤم الذي يعدل صفات المخلوقات حسب بيئتها، هو أداة ما سبق وسميناه بالتطور الفاعل وما سماه «برغسون» بالتطور الخالق، الذي حوّل السمكة إلى زاحف والزاحف إلى طائر، وهو الذي يتوجه عبر ارتقاء الضمير والمطلق بالإنسان نحو الوعي من الذكاء، صانعاً صنفاً جديداً من البشر في المستقبل، سنعد نحن مجرد برابرة أمامه، إذا لم ندمر أنفسنا قبل بلوغ ذاك المستقبل، الذي بإمكان النسخ الجيني أن يختزل زمن بروز ذلك الإنسان الفائق.

فالعقل حين يتوجه نحو الوعي سيسير بخطة ميتافيزيائية التطور، بسرعة تعادل في توجهها نسبية سرعة تطوير الإنسان، بالنسبة إلى نسبية زمن الإنسان القصير، وكما تركت تلك الخطة جنباً إلى جنب حيوانات لم يمسها

(7) Ibid, P94

التطور منذ ملايين السنين، مع الإنسان المتطور، ستترك هذا الإنسان مع الإنسان الفائق في المستقبل القريب.

ان معنى الحياة لصيق الصلة إذا مع تلك القوة المجهولة المنشأ، والتي سماها الفلاسفة بالعقل الكلي والمتجلية بكل قانون لابحد ذاته فقط، بل في صلة الربط بينه وبين سواه من قوانين مختلفة، وهذه القوة الكونية تعمل دوماً (على زيادة تعقيد البنى الحية . . . وتحسين وسائل تعضيها)[٨]، حتى لو كانت هذه الوسائل انسانية من ضمن مشروع الجينوم البشري العلمي، وكأن الإنسان مضطر إلى أن يعمل مجبراً في كل توجهاته المعرفية، في سياق تلك الخطة العامة الكونية التي تحدد معنى الحياة بمزيد من الإرتقاء فيها.

نحن أحياء نحمل الحياة من مصدر كوني مجهول، لايمكننا تصوره، لكننا نستطيع تصور العقل الكلي المبثوث بذلك المصدر، وإضافة إلى هذا التصور نجد أن غرائزنا -حدوسنا- توجهنا للعمل بمقتضى خطته، وبذلك لانقدم فقط هندسة وراثية تستطيع ادخال أنواع جديدة بها إلى هذا التواجد، بل نسعى إلى تطوير فهمنا لمعنى الحياة أيضاً، وتطوير الحياة ليزيد استيعاب جنسنا لمعناها في المستقبل.

ونظريات التطور إذ لاتستطيع أن تخلصنا من جهلنا بأسباب الحياة الأساسية الأولى، تدلنا على اتجاه هام من اتجاهات غائية معنى الحياة، وأسباب تنوع تفرعاتها بين الأنواع.

ويظل السؤال الميتافيزيائي يلمح علينا من جهة أخرى، في التساؤل عما إذا كان تدمير العضوية، سواء من أجل هدف أرقى للحياة، أو أثناء سير الصيرورة -سوف يؤدي إلى اختفاء الحياة من الفرد- فهل اختفاء التواجد يخفي الحياة في الوجود؟! ولأن الموت المحتم على كل كائن حي في هذا التواجد، محتم أيضاً على كل تواجد مادي بحد ذاته، فكما نهمل بذرة الموت

---

(٨) Ibid, P48.

في حياتنا هذه، يحمل كوننا الحي الذي يحتضن حياتنا في هذه الأرض أيضاً بذرة زواله، بإتجاهه نحو سهم الزمن الصاعد، نحو نهاية كل هذه المجرات، وما فارق حياة الإنسان عن حياة الكون إلا في نسبية الزمن لكل منهما، والمقضي حتماً على نهايتها بالدمار.

وحين ذاك الدمار الشامل للتواجد بدمار كل مادة فيه، هل تنتهي معه هذه الحياة المجهولة المنشأ؟! والمضافة إليه؟! فلماذا يسعى التطور الحياتي إذا نحو الكمال بإزالة معيقاته؟!(٩).

وهل يعقل أن يغيب عن هذه القوة الخلاقة الحية، عبثية اتجاهها نحو الكمال، وهي في حضن مادة تتجه نحو التدمير؟!.

فكل فرد حي يتواجد الآن (يحمل معه برنامجاً محسناً وجديداً للتطور، يضعه مباشرة في مجال الاختبار بالتناسل)(١٠).

وهذا جهد غريزي يفهمه العقل الإنساني لكنه لا يصنعه، فهو مصنوع من نفس مصدر أصل الحياة المجهول، وهذا هو الغائب عن دارسي البيولوجيا اليوم، لأنها علم وليست ميتافيزياء ولا هي دين.

وبين الثلاثة يبرز السؤال الملح؛ هل يعقل أن يكون كل هذا الجهد ببلايين السنين من الحياة نحو الوعي ومزيد من التطور، جهداً يجهل حتمية زوال المادة التي تَرَكّبُها الحياة، في رحلتها الشاقة هذه.

أم أن تواجد الحياة في المادة مفصول عن وجودها في الوجود قبل المادي، سواء بقبلية منطقية أو زمانية؟!.

في الإجابة على مثل هذه السؤال فقط، يمكننا أن ندعي أننا نعرف معنى الحياة، على أن ننتبه إلى أن كل قطعية لا تحسم الإشكال لا ترضينا إذا هي لم تقدم اليقين.

(٩) Ibid, P287.

(١٠) Ibid, P292.

واليقين الذي يمكنه أن يوجه ميتافيزيائية معنى النظريات التطورية -إذا كان هناك يقين-، يمكنه أن يكون ذا شقين، عملي ونظري، والعملي يقول لنا من لغة العلم المعاصر: (ان الـDNA الموجود في جسمنا- أي شيفرة الحياة فينا- والكالسيوم في أسناننا، والحديد في دمنا والكربون الموجود في فطائر التفاح، كانت كلها قد صنعت في داخل النجوم المنهارة، وبالتالي فنحن نتألف من مواد نجمية)[١١]

أما النظري في لغة الفلسفة السباقة لكل معرفة عملية، فيقول لنا ما قاله مع «كانط»: (-ان- ارتباطي بعوالم يعلوها عوالم، وبأنساق تعلوها أنساق.. إلى أزمان لاحدود لها... يؤكد بأنني لست على ارتباط عارض، بل على ارتباط كوني ضروري.. في... جمهرة عوالم لايحصيها عد تفنى وتتشكل.... كمخلوق حيواني زود لفترة قصيرة بقوة حية.... زود بأنبل منظار... العقل... المنتج لتلك البصيرة الصافية... في نسق عالم... دائم الاتساع)[١٢].

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

هذا اليقين بشقيه هو الذي يجب أن يوجه منظورنا إلى التطور الفاعل للحياة والعقل والغريزة، لنفهم معنى الحياة دون أن نكون ضحايا الحتمية والآلية والوصفية، ضحايا الظن بأن اليقين هو في المعرفة العملية وحدها، لتجرنا نظريات التطور بشكل أو آخر نحو العرقية البغيضة، والعبثية الفجة، بعيداً عن الميتافيزياء.

* * *

(١١) كارل ساغان، الكون، عالم المعرفة، الكويت، تشرين٢ ١٩٩٣م، ص٢٠٥.

(١٢) كنط، نقد العقل العملي، الشيباني، دار اليقظة العربية، بيروت ١٩٦٦م، ص٣٦٦-٣٦٨.

الفقر في العالم: أزمة التنمية وعار الحضارة

حسن جبران

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مقدمة:

عانى الإنسان من الفقر منذ وجوده في هذه الحياة. وارتبط وجود الفقر بداية بالكوارث الطبيعية، وجدب الأرض وشح السماء. ثم ارتبط بالحروب، واستبداد السلاطين وتحكمهم بثروة الشعوب وقوتهم.

ورغم قدم مظاهر الفقر في أرجاء العالم، إلا أن الشعور العالمي بها قد تنامى بعد نهاية الحرب العالمية

(*) حسن جبران: باحث من سورية، ماجستير في علم الاجتماع يهتم بالدراسات الاجتماعية. ينشر أعماله في الدوريات المحلية والعربية.

الثانية وتأسيس منظمة الأمم المتحدة وظهور تقسيم العمل الدولي، وتبلور مجموعة البلدان النامية (المتخلفة) (ميردال، ١٩٨٠، ٩٢).

في حين يرى فريق آخر أن تدني مستوى المعيشة، وظهور الفقر كظاهرة عالمية ولا سيما في البلدان النامية لم ينظر له كخطر داهم يجب معالجته على مستوى الحكومات والمؤسسات العالمية إلا بعد إنتهاء الحرب الباردة بين القطبين، فميثاق الأمم المتحدة، رغم ما يعد به من وجوب قيام التنظيم العالمي الجديد على تشجيع التقدم الاجتماعي، ومستويات العيش الأفضل والمزيد من الحرية، لم يلح على حالة البلدان النامية ولم يتضمن أي بند خاص بتشجيع نموها وتطورها (صقور، ١٩٩٦، ٨٢). وما تركيز الأمم المتحدة في السنوات الأخيرة على عقد المؤتمرات (*) ضمن أولويات برامجها ونشاطاتها، إلا دلالة على فشل تلك المنظمة ودول العالم في توفير الأمن والتنمية، وتفاقم أزمة الفقر بين الشعوب.

وبتتبع دلالة الفقر تاريخياً، نجد أن الفقر في البداية كان يختزل بمسألة الجوع والعوز للطعام (كما ورد في معاجم اللغة) وأن للجوع مستويات تتدرج من فقدان المدخرات، إلى مستوى الإذلال، والعجز عن أداء المهام الاجتماعية المناطة بالمركز الاجتماعي للشخص. والفقر في هذه الفترة وبهذه الدلالة ذو بعد مادي اقتصادي فقط يرتبط بعطاء الأرض والسماء. لاحقاً عدلت هذه النظرة وأصبحت مسألة الفقر في العصور الحديثة تأخذ معنى اجتماعياً إضافة للبعد الاقتصادي، وأصبح الفقر يتحدد بمؤشر الدخل والإنفاق (النقود)، والدخل والإنفاق هما المؤشر الأساسي والوحيد لقياس غنى الأفراد والمجتمعات.

(*) كمؤتمر حقوق الطفل، وقمة الأرض في الريو جانيرو، ومؤتمر السكان والتنمية في القاهرة، وقمة التنمية الإجتماعية في كوبن هاكن، ومؤتمر المرأة في بكين، ومؤتمر المستوطنات البشرية في استنبول والتي عقدت جميعها في عقد التسعينات.

مع بداية النصف الثاني للقرن العشرين بدأت تتبدل النظريتان القديمة والتقليدية للفقر، بحيث اشتمل مفهوم الفقر على أبعاد إضافية لمسألة الحرمان البشري، فالفقير هو إنسان يفتقر للتعليم المناسب، والصحة الموفورة، وخيارات فرص الخلق والابداع، وحرية الرأي والعقيدة وهكذا أصبحت مسألة الفقر، مسألة سياسية اجتماعية يتقدم فيها البعد الاقتصادي (الموارد المالية) إلى أدنى المستويات.

إن تحديد مفهوم الفقر إذاً يتوقف على البعد التاريخي والاجتماعي له، وهذا ما يفسر نسبيته وتطوره، وتعدد وتنوع تعاريفه.

يعرف الفقر بعجز الناس عن تأمين متطلبات الحياة اليومية الضرورية من غذاء ومياه مأمونه ولباس، وسكن وصحة وتعليم، وأن للفقر حدوداً، فالتعريف السابق يشير إلى الخط المطلق للفقر، أما دون هذا الخط، فيعرف بخط الفقر المدقع، والذي يعني الكلفة الدنيا من السلع الغذائية الأساسية، والتي لا يمكن دونها البقاء على قيد الحياة إلا لفترة قصيرة (باقر، ١٩٩٥، ٦).

ويرتبط مفهوم الفقر بمفهوم التنمية، بعلاقة عكسية، حيث أن تحسن أداء التنمية يقلل دائماً من مظاهر الفقر ويحد من مؤشراته. والبحث في التنمية إنما هو في النهاية بحث في الفقر ومدى إمكانية الخلاص منه.

لقد أدى قيام منظمة الأمم المتحدة، واستقلال البلدان المستعمرة إلى تغيرات مهمة في مفهوم التنمية ومسيرتها، حيث «استهل عقد الستينات بقرار الجمعية العمومية للأمم المتحدة رقم (١٧١٠) معلناً عقد التنمية الأول بالنسبة للبلدان النامية» (علوش، ١٩٩٢، ١٣٨).

مع بداية التسعينات دأب برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، على إصدار تقرير سنوي حول التنمية البشرية، يعنى بعرض الحالة الاجتماعية والاقتصادية لسكان العالم ويصور حالة الحرمان البشري، والتقدم البشري، وأثرها وتأثرها بالعوامل المختلفة.

قدم برنامج الأمم المتحدة الإنمائي في تقريره الأول تعريفاً جديداً للتنمية، على أنها توسيع خيارات الناس الأساسية والإضافية، أما الأساسية

فتتلخص في أن يحيا الناس حياة طويلة خالية من العلل، وأن يكتسبوا المعرفة، وأن يحصلوا على الموارد اللازمة لتحقيق مستوى حياة كريمة. أما الخيارات الإضافية فهي تمتد من الحريات السياسية والإجتماعية إلى فرص الخلق والإبداع، واستمتاع الأفراد بالاحترام الذاتي. (برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، ١٩٩٠، ١) وقد أكدت التقارير التالية على ضرورة أن تكون التنمية، تنمية الناس، ومن أجلهم وبواسطتهم للحد من مظاهر الفقر والقضاء عليه. كما أكدت على ضرورة خفض الإنفاق العسكري واستبدال أمن البشر بأمن الأرض، والعمل على الحد من تهريب رؤوس الأموال واستئصال الفساد الإداري، وقد خلصت بعض التقارير إلى أن غياب الالتزام السياسي بقضايا الناس، هو السبب الرئيسي، في تدهور، أداء التنمية وليس ندرة الموارد المالية.

الفقر في العالم ومؤشرا الدخل والمديونية:

رغم التطورات المذهلة للتنمية البشرية، على مستوى المفهوم، والأداء، إلا أنها كانت تنمية عرجاء من اجل القلة على حساب الأكثرية المحرومة، تنمية تعمق الفوارق، وتتولد عنها جوانب مستجدة للحرمان البشري، وتخلق لنفسها عثرات لها.

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

إن التناقض الذي يعايشه البشر، واتساع وعمق الفوارق بينهم دفع البعض إلى التوقع بأنه في العقد القادم سيكون ٢٠٪ من السكان يمكنهم العمل والحصول على الدخل والعيش في رغد وسلام، أما النسبة الباقية فهي اعداد إضافية عن الحاجة تعيش كمرتزقة على فئات النخبة. (بيتر مارتين - شومان، ١٩٩٨، ٢٥).

لقد كشف تقرير التنمية البشرية لعام ١٩٩٨؛ أن أغنى أغنياء العالم، وعددهم ٢٢٥ فرداً، تبلغ ثروتهم معاً أكثر من تريليون دولار، أي ما يعادل الدخل السنوي لأفقر نسبة ٤٧٪ من سكان العالم (٢,٥ مليار نسمة). وأن أغنى ثلاثة أفراد منهم يملكون أصولاً إنتاجية تتجاوز قيمتها الناتج المحلي لـ٤٨ بلداً نامياً، هم الأفقر في العالم. وأن نسبة ٤٪ من ثروة فائقي الثراء سنوياً تكفي لحصول جميع سكان العالم على الشروط الأولية للتنمية من تعليم

وصحة وخدمات اجتماعية (برنامج الأمم المتحدة الإنمائي ١٩٩٨، ٢/ ٣٠).

وفي عام ١٩٦٠ كانت نسبة أغنى ٢٠٪ من سكان العالم يزيد دخلها ٣٠ مرة عن دخل أفقر نسبة ٢٠٪. وبحلول عام ١٩٩٥ وصل الفارق إلى ٨٢ مرة.

وفي عام ١٩٦٠ أيضاً حصل أفقر ٥٠٪ من سكان البرازيل على ١٨٪ من الدخل القومي، بينما انخفض نصيبهما إلى ٦ , ١١٪ عام ١٩٩٥. وارتفعت حصة أغنى ١٠٪ من السكان من ٤٥٪ عام ١٩٦٠ إلى ٦٣٪ عام ١٩٩٥. ومن ناحية أخرى يزيد متوسط دخل الفرد في لكسمبورغ خمسمائة ضعف عنه في موزمبيق (مراغي، ١٩٩٧ , ٧٤).

جدول رقم (١) يبين متوسط دخل الفرد السنوي، ومتوسط دخل أفقر نسبة ٢٠٪ في مجموع من البلدان (بالدولار)

البلد	متوسط دخل الفرد	الدخل الفردي لأفقر نسبة ٢٠٪
الولايات المتحدة الأمريكية	٢٤٢٤٠	٥٨١٤
اليابان	٢٠٨٥٠	٩٠٧٠
هولندا	١٧٣٣٠	٧١٠٥
المملكة المتحدة	١٧٢١٠	٣٩٥٨
كوريا	٩٦٣٠	٣٥٦٣
شيلي	٨٤٠٠	١٣٨٦
هنغاريا	٦٠٥٠	٣٢٩٧
البرازيل	٥٣٧٠	٥٦٤
الهند	١٢٢٠	٥٣٧
تنزانيا	٥٨٠	٧٠

المصدر: تقرير التنمية البشرية برنامج الأمم المتحدة الإنمائي /UNDP/ لعام ١٩٩٦، ١٦

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

لقد زاد الناتج القومي العالمي بنسبة ٤٠٪ في الفترة (١٩٧٠ - ١٩٩٥) . ومع ذلك فقد زاد عدد الفقراء بنسبة ١٧٪ وانخفض دخل ٢٠٠ مليون إنسان خلال الفترة نفسها تقريباً بحيث بلغ عدد الفقراء ١,٣ مليار، أي سدس سكان العالم البالغ عددهم ٦ مليار ونيف

كما ازدادت حصة أغنى ٢٠٪ من السكان من ٧٠٪ إلى ٨٥٪ من الدخل العالمي، وانخفضت حصة أفقر ٢٠٪ من السكان من ٢,٣ إلى ١,٣٪ من ذلك الدخل خلال نفس الفترة

ورغم أن ٨٠٪ من سكان العالم يعيشون في البلدان النامية، فإنهم يحصلون على ١٦٪ فقط من الدخل العالمي.

ورأت اللجنة الدولية الخاصة بالتنمية أنه «لا يمكن للشمال والجنوب الاستمرار على ما هما عليه فالفجوة بين الدول الغنية والفقيرة، هي من العمق بحيث يبدو الإغنياء والفقراء وكأنهم يتمون إلى عصور مختلفة، أي أنهم لا ينتمون إلى عالم واحد (Brandt, 1980, 299).

http://Archivebeta.Sakhrit.com

لقد لخص أحد المشاركين في قمة كوبن هاغن للتنمية الاجتماعية الحالة المأسوية لسكان العالم وقدم وصفاً للتنمية البشرية غير الرحيمة وغير المنصفة وغير المستدامة قائلاً : منذ عشرين عاماً عقدت قمة التنمية الاقتصادية . واليوم نشارك في القمة الاجتماعية، وقد تراجع الدخل القومي لدول العالم الثالث خلال هذه الفترة حوالي ٢٠ مرة، وما أخشاه أن ندعى بعد عشرين عاماً، للمشاركة في قمة الشعوب والمجمتع المدني ويكون العالم الثالث قد أصبح ٤٠ مرة أفقر مما هو عليه الآن.

لذا فإن أخطر التحديات تكمن في الإجابة على السؤال التالي: هل هناك نية فعلية على الصعيد الدولي، للعمل من أجل توزيع عادل للثروات بين الشعوب أم لا؟

وربما المؤشرات الواقعية المرئية، وما سنتعرض له من جوانب معيشية تعطي جواباً لذلك السؤال.

إذا كان مؤشر الدخل الذي يترافق مع مستوى معين للإنفاق والاستهلاك على السلع والخدمات، معياراً يمكن الاستناد إليه في تحديد الفقر ومستوى المعيشة، فإن مشكلة الديون في البلدان النامية، تعتبر سبباً للفقر ونتيجة له في آن معاً، هي في كثير من الدول النامية كانت من أخطر الأسباب والنتائج لتدني مستوى المعيشة وإفقار المجتمع في عقد الثمانينات. فلم تكن مسيرة التنمية في معظم الدول النامية في ذلك العقد على قدر التوقعات التي ارتبطت بها عند إعدادها، بل سارت في طريق معاكس، إذ تباطأت معدلات النمو الاقتصادي في معظم تلك البلدان، وتفجرت أزمة المديونية وارتفعت أسعار الفائدة المالية، مما أدى إلى زيادة تكاليف خدمة الديون وإلى هبوط أسعار الصادرات المحلية وإضافة إلى ذلك واجهت دول الجنوب انخفاضاً حاداً في القروض التي تقترضها من المصادر التجارية الدولية، وحدث انخفاض مماثل في التدفقات المالية الأخرى القادمة من الشمال إلى الجنوب، مما أدى إلى تحويل الموارد ليصبح من الدول النامية إلى الدول المتقدمة، وكان عام ١٩٨٢ البداية الحقيقية لتفجير أزمة المديونية، وخلال هذا العقد، استمر ارتفاع عدد دول الجنوب العاجزة عن تسديد ديونها، فوصل الأمر في بعض الدول المستدينة إلى مستوى أصبحت معه مضطرة للاستدانة لمجرد دفع ديونها السابقة، وبالتالي وقعت في فخ الدين الذي نصبه لها الغرب ليتحكم باقتصادها وقوت شعبها.

لقد كانت لأزمة المديونية في البلدان النامية نتائج خطيرة، بالنسبة لمسيرة التنمية فيها، بحيث باتت البلدان النامية تأخذ أقل مقابل صادراتها من السلع والمواد الأولية (زكي، ١٩٨٧، ٣١٣)، فتدنت مستويات المعيشة فيها، واضطرب أمنها الغذائي، وازداد عدد الفقراء فيها إلى أن وصل إلى

مليار مع بداية عقد التسعينات (القصيفي، ١٩٩٦، ٢). لقد وصلت ديون العالم الثالث في عام ١٩٩٣ إلى ١,٨ تريليون دولار، وارتفعت خدمة ديونها إلى ٢٢٪ من إيرادات صادراتها وشكلت تلك الديون نسبة ٤٣٪ من الناتج القومي الإجمالي للبلدان النامية ككل، ونسبة ١١٧٪ للبلدان الأقل نموا و ١٤٤٪ لبلدان إفريقيا جنوب الصحراء، أي ما قيمته ١٣٠ مليار دولار (برنامج الأمم المتحدة الإنمائي ١٩٩٥، ١٨١) وفيما يتعلق بـ ٢٧ بلداً فقيراً من البلدان المثقلة بالديون يزيد حجم دينها عن حجم الناتج القومي الإجمالي فيها.

وقد أنفقت بلدان أفريقيا جنوب الصحراء ١٢ بليون دولار سنويا على سداد الديون في الفترة ١٩٩٠ - ١٩٩٥ بينما زاد رصيدها من الديون بمقدار ٣٣ بليون دولار.

وفيما يتعلق ببعض البلدان، تعادل مدفوعات الديون كل المساعدات الإنمائية الرسمية تقريباً التي تحصل عليها، وعبء الديون الخارجية لموزمبيق يزيد تسع مرات عن قيمة صادراتها السنوية، وهي تخصص نصف ميزانيتها تقريباً لخدمة الديون، أي ما يعادل أربع مرات ماتنفقه على الصحة. وهذا وأن ١٠٠ مليون يتم الحصول عليها في بضعة أشهر، من خلال خدمة الديون، بينما ٧ ملايين تستغرق سنوات كثيرة.

لقد أكدت أزمة الديون أن العلاقات المالية والتجارية بين دول الشمال المتقدم ودول الجنوب المتخلف هي علاقات ضارة للجنوب حكماً ولا تخدم مسيرة التنمية فيها بل تزيد من فقر شعوبها وليس لها غاية إلا مصلحة الشمال، حيث أثرت وطأة الديون في البلدان النامية على الشعوب والمؤسسات والأنظمة الحاكمة، ويرى تقرير الجنوب أن أزمة التنمية والديون في الثمانينات قد ولدت خللا عميقاً وعويصا في النظامين الاجتماعي والسياسي، ذلك التخلخل الذي لم يتم بعد استيعاب مضامينه الطويلة

الأجل ففي كثير من الدول النامية جرى حالياً تمزيق النسيج الإجتماعي إرباً، وتبدو المؤسسات السياسية في اضطراب وتخبط وأصبح السلام الاجتماعي مهدداً بالخطر، أما الحكومات ونتيجة عجزها عن تأمين الخدمات الأساسية والضرورية فقد غدت منبوذة من شعوبها (لجنة الجنوب، ١٩٩٠، ١٧٧)، ويضاف لذلك فإن أزمة المديونية وفقر الدخل وعوامل أخرى قد ساهمت في نشوء أزمة البطالة.

الحرمان البشري في مجال الصحة والتعليم:

إن تنامي أزمة المديونية، والبطالة، واستمرار تدني دخل الفرد في البلدان النامية قد كشف عجز الأمم المتحدة والمجتمع الدولي في التنمية البشرية على مدى نصف قرن، وعبر عن فشله في أن يقدم للناس ما هم بأمس الحاجة إليه، فعلى المستوى الصحي قد يكون احتمال أن يفحص الطبيب كثيراً من الناس، ضئيلاً للغاية، لذلك يموت سنوياً حوالي ١٧ مليون نسمة بأمراض معدية، يمكن الشفاء منها «حيث تقتل الملاريا وحدها أو مصاحبة أمراضاً أخرى، ما يزيد على، مليون طفل دون سن الخامسة سنوياً أي بمعدل طفل كل ثلاثين ثانية» (منظمة الأمم المتحدة للطفولة، ١٩٩٧ب، ٣١)، وإنه يعيش أكثر سكان العالم في المناطق الموبوءة بالملاريا وإن ٩٠٪ من ٤٠٠ مليون حالة إصابة مقدرة في العالم في المناطق الواقعة جنوب الصحراء الإفريقية. ويقدر عدد ضحايا هذا الوباء بمليوني حالة وفاة سنوياً (صندوق الأمم المتحدة للسكان، ١٩٩٦، ١٣) أما السل فإنه يصيب حوالي ٢٠ مليون نسمة وهو مسؤول عن حدوث حوالي ٢,٧ مليون حالة وفاة سنوياً.

بينما التهابات الجهاز التنفسي الحادة تزهق أرواح ما يتراوح بين (٤ -٥) ملايين رضيع وطفل، وإن هناك ثمانية ملايين طفل دون السنة من العمر

يموتون سنوياً في مختلف مناطق العالم، خمسة ملايين طفل منهم في الدول النامية (منظمة الأمم المتحدة للطفولة ١٩٩٧ب، ٣١) ورغم أن برامج الدعاية الصحية قد أنقذت حياة ٢,٥ مليون طفل سنوياً، منذ عام ١٩٨٥ إلا أن المعدل لوفيات الأطفال منذ السنة الخامسة ما زال ٨٩ بالألف.

ووفقاً لمنظمة الصحة العالمية فإنه بنهاية عام ١٩٩٧، كان ٣١ مليون شخص على نطاق العالم مصابين بفيروس الإيدز، بعد أن كان ٢٢,٣ في العام السابق، حيث تحدث ١٦ ألف إصابة جديدة في اليوم، وتميت ١٠٠ ألف طفل وقد يتمت ٨,٢ مليون طفل آخرين ويقدر أن عدد الوفيات سيعلو إلى ٨ ملايين سنوياً مع حلول عام ٢٠٠٠ وأن نصف حالات العدوى بهذا الفيروس أصابت أشخاصاً دون سن الخامسة والعشرين وهي الفئة التي تشكل ركيزة التنمية وعمادها. (منظمة الصحة العالمية، ١٩٩٥، ١٥) لقد حصد الإيدز في سنة ١٩٩٥ وحدها ٤٥ ألف تايلاندي. وهو أكثر انتشاراً في دول إفريقيا جنوب الصحراء وفي بلدان آسيا الأشد فقراً. ورغم ذلك فإن ٨٪ فقط ينفق في البلدان النامية و٩٢٪ في البلدان المتقدمة من جملة ما يخصص لغاية الوقاية والبحث والعلاج، ومن جانب آخر ارتفع عدد من لاتتوفر لهم شروط الصرف الصحي بمقدار ٣٠٠ مليون شخص منذ عام ١٩٩٠، بحيث يقدر عدد الذين يفتقرون إلى هذا الجانب بحوالي ٢,٩ مليار شخص أي ما يقارب نصف سكان المعمورة تقريباً، قياسا إلى ٢,٦ مليار في عام ١٩٩٠ وبالتالي فإن وجود دورة مياه ملائمة يعتبر نوعا من الترف لنصف البشر وإنه لعار أن يرضى العالم المتحضر بهذه الصورة المأساوية المحزنة، والتي لا تحتاج أكثر من ٦٨ مليار دولار أي ١٪ من نفقات التسلح العالمي.

وفي مدينة إيدان / نيجريا/ ، يستفيد عشرة آلاف مواطن فقط من الصرف الصحي من مجموع السكان البالغ واحد مليون نسمة بينما يشترك ٤٠ شخص أو أكثر في مرحاض واحد في كمبالا ، وإن هذا الحرمان قد تسبب بوفاة ٢,٥ مليون طفل في عام ١٩٩٥ ، كان يمكن إنقاذ ٩٠٪ منهم (منظمة الأمم المتحدة للطفولة ، ١٩٩٧ب ، ١٣) وهكذا نجد أن المستوى الصحي المتدني يرتبط طرداً بالمناطق الأشد فقراً وأدنى معيشة في بلدان العالم . أما عن توفير مياه الشرب النظيفة ، فإن الأمر أحسن حالا من غيره فبحلول عام ١٩٩٤ «أصبح بإمكان ثلاثة أرباع سكان العالم الحصول على الماء النظيف مقابل ٦١٪ فحسب قبل أربع سنوات من ذلك التاريخ» (حميد خان، ١٩٩٧ , ١) لقد ارتفع عدد الذين يحصلون على الماء النظيف منذ عام ١٩٩٠ بحوالي ٨٠٠ مليون شخص ، الأمر الذي أدى إلى زيادة المجموع الكلي من ٢,٥ مليار إلى ٣,٣ مليار خلال هذه الفترة إلا أن مسألة توفر المياه ونظافتها تختلف بين الريف والحضر ، ففي أمريكا اللاتينية والبحر الكاريبي لا يحصل على المياه المأمونة سوى ٥٦٪ من سكان الأرياف مقابل ٩٠٪ من المدن ، إضافة إلى رداءة شبكات المياه في البلدان النامية إجمالا (حيث يحول التسرب وسرقة المياه دون وصول ٣٠ - ٦٠٪ من المياه التي تتم معالجتها وضخها إلى المستهلك) ومثل هذه العدد يكلف امريكا اللاتينية ما بين مليار ومليار ونصف دولار سنوياً ، وهذا المبلغ المطلوب سنوياً . سنوياً لإيصال الماء النظيف وخدمات الصرف الصحي إلي جميع المحرومين منها بحلول عام ٢٠٠٠ (حميد خان ١٩٩٧ , ٧) . وبحلول عام ٢٠١٠ سيكون متوسط العمر المتوقع في زمبابوي أقل بمقدار ٢٥ سنة عما هو عليه الآن ، وفي بعض أجزاء أوغندا انخفض هذه المؤشر فعلياً بمقدار ١٦ سنة والجدولان التاليان يبينان أرقام الحرمان البشري في مجال الصحة العامة .

جدول رقم (٢) يبين ثغرات تغطية المياه والصرف الصحي في البلدان النامية ذات العدد الأكبر من الأطفال

البلد	٪ لتوفر المياه المأمونة	٪ لتوفر الصرف الصحي	٪ للفجوة بين المؤشرين
مصر	٨٣	٢٩	٥٤
الهند	٨١	٢٩	٥٢
بنغلادش	٩٧	٤٨	٤٩
الصين	٦٧	٢٤	٤٣
البرازيل	٧٢	٤٤	٢٨
الباكستان	٧٤	٤٧	٢٧
فيتنام	٤٣	٢٢	٢١
مايانمار	٦٠	٤٣	١٧
إيران	٩٠	٨١	٩
الفلبين	٨٦	٧٧	٩
أندونيسيا	٦١	٥٣	٨
اثيوبيا	٢٥	١٩	٦
نيجيريا	٥١	٥٨	٧

المصدر: منظمة الصحة العالمية، المجلس التعاوني لتزويد المياه وخدمات الصرف الصحي اليونيسف، تقرير المراقبة الصادر عن مسلم خدمات المياه والصرف الصحي ١٩٩٦.

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

جدول رقم (٣) يبين الحرمان البشري في مجال الصحة

المرض أو الفيروس	عدد حالات الإصابة في العالم حتى عام ١٩٩٥ بالملايين	عدد الوفيات العامة من المرض سنوياً بالملايين	عدد الوفيات عند الأطفال سنوياً بالملايين
الملاريا	٤٠٠	٢	١
الإسهالات	–	–	٢,٥
السل	٢٠	٢,٧	–
الإيدز	٢٠	٨ بحلول عام ٢٠٠٠	٠,٣٦
التهابات الجهاز التنفسي الحادة	–	–	(٤–٥)

المصدر: اليونيسيف، مسيرة الأمم، لعام ١٩٩٧، ٦ –٧– ١٣ –١٥ صندوق الأمم المتحدة للسكان، حالة سكان العالم، ١٩٩٦، ٨–٩–١٣–١٥

أما فيما يخص التعليم فإن العالم قد اعترف بأنه جوهر التنمية المستدامة، لذلك فقد زاد القيد الصافي عالميا في المرحلة الابتدائية بمقدار الثلث بحيث أصبح ٧٧٪ في عام ١٩٩٦ بعد أن كان ٤٨٪ عام ١٩٩١ أما في افريقيا جنوب الصحراء، فقد وصل إلى ٥٠٪ بعد أن كان ٢٥٪، بينما ارتفع القيد في التعليم العالي أكثر من النصف في البلدان الصناعية المتقدمة خلال نفس الفترة.

ورغم هذه الصورة المشرقة لتطور التعليم في العالم فإن مسيرته، مازالت في خطوتها المتواضعة، لأن العالم النامي ما زال فيه ٢ مليار أمي من بينهم ٦٠٠ مليون مسلم (عبد الله ١٩٩٣، ٨٧) وأن فيه ١٣٠ مليون طفل خارج المدرسة في المرحلة الابتدائية، و٢٧٥ مليون هم كذلك في سن المرحلة الثانوية، والحال أكثر إيلاما في أفريقيا جنوب الصحراء، فنصف ممن يدخلون المدرسة يكملون تعليمهم إلى الصف الخامس فقط، ومازال هناك ٨٠ مليون طالب خارج المدرسة الابتدائية والثانوية (برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، ١٩٩٥، ١٦/١٧/٢٨).

وخروج الطالب من المدرسة هو تعبير صارخ عن تدني مستوى معيشة أسرته، حيث في كثير من الحالات تعجز عن تأمين نفقات تعليمه، أو تدفعه إلى سوق العمل لتأمين دخل إضافي يفي بمتطلبات الحياة اليومية، ويمكن القول حيثما يسود الفقر وعدم المساواة تتزايد احتمالات انخراط الأطفال في العمل ففي العالم اليوم وحسب إحصائيات عالمية، (أولية)، يقدر عدد الأطفال العاملين في العالم بـ٧٣ مليون طفل عامل، مشكلين نسبة ١٣٪ من مجموع الأطفال غير العاملين البالغة أعمارهم (١٠ - ١٤) أما إذا قبلنا بالفرضية التالية: إن كل طفل لا يلتحق بالمدرسة هو طفل عامل فإن في الهند وحدها ما يزيد عددهم على ٩٠ مليون طفل معظمهم من الإناث وما يزيد من خطورة عمل الأطفال، أنهم بالإضافة إلى تركهم لتعليمهم (جوهر

التنمية المستدامة) هم فئات طيعة وخصبة للاهانة، والاسترقاق، وحرمان الحقوق والاستغلال الجنسي، فقد قدرت عدد الفتيات العاملات بالبغاء سنوياً بمليون بنت على الصعيد العالمي، بينما هناك ١٠٠٠٠٠ طفل متورطون في هذه التجارة في أمريكا وحدها (منظمة الأمم المتحدة للطفولة ١٩٩٧أ، ٤٥/٢٦)

الفقر والغذاء والتلوث البيئي في العالم:

ما أعلنه المؤتمر الدولي الأول للأغذية (١٩٩٦) من أن استمرار الفقر وسوء التغذية، قضية لا أخلاقية مرفوضة تتعارض مع كرامة الإنسان وتهدد الأمن الاجتماعي العالمي. كان مجرد إعلان فقط، فقد تعمقت الفجوة الغذائية بين الشمال والجنوب وبين الأغنياء والفقراء وتنامي الأمن الغذائي كسلاح فعال للسيطرة على حرية وكرامة الشعوب الفقيرة، فمن يمتلك الرغيف يمتلك الحرية وبالعكس. (برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، ١٩٩٨، ١-١٣).

http://Archivebeta.Sakhrit.com

لقد تنامى طلب البلدان النامية للغذاء إلى ٣٪ سنوياً بينما إنتاجه منها لم يزد عن ٢,٥ في عقد الثمانينات وامتلكت الدول المتقدمة ٥٠٪ من الإنتاج العالمي للغذاء علما أنها لا تشكل سوى ٢٠٪ من مجموع السكان العالمي. وقد بلغ إنتاجها في عام (١٩٨٤)، ٦٥٪ من إنتاج القمح العالمي و٧٥٪ من الشعير و٦٠٪ من الذرة و٨٧,٢ من الشيلم و٨٥٪ من الشوفان و٧٠,٤٪ من الفول الصومالي، في حين يتراوح إنتاج الدول النامية بين ١٥-٤٠ من الإنتاج العالمي لكل مادة عام ١٩٨٠، وأنها ستحتاج إلى ٧٥ مليون طن سنوياً، من الحبوب الغذائية في الفترة (١٩٨٥ - ٢٠٠٠) وأن ١٩ دولة أفريقية وآسيوية ستعاني من عجز غذائي يزيد عن مليون طن سنوياً من بينها مصر - السودان - الصومال - موريتانيا. (وهب، ١٩٨٧، ٩٥/ ٩٦)

وقد انعكس ذلك الوضع على دخل الفرد في تلك البلدان وطرق توزيعه «فما ينفقه الفرد على الغذاء في الدول المتقدمة يتراوح ما بين ٢٢ - ٣٢٪ من الدخل الفردي السنوي بينما تتراوح هذه النسبة عند الفرد في الدول النامية بين (٢٥ - ٧٠) (وهب ١٩٨٧، ٩٨)».

وترتبط مشكلة الأمن الغذائي في البلدان النامية بالعناصر التالية:

١- ضعف إنتاجية الأرض وتدني استصلاح الأرضي، وقلة إبداع واستخدام التقنية الزراعية حيث تبلغ مساحة اليابسة من الكرة الأرضية ١٣,٢ مليار هكتار نصفها غير قابل للزراعة، وأكثر من ربعها مراعي وأقل من ربعها المتبقي (٢٤,٧) قابل للزراعة غير أن الأرض المزروعة فعلاً هي أقل من نصف الأرض الكاملة القابلة للزراعة (٢٤,٤٪) وإن معظم الأراضي غير المزروعة وغير المستصلحة متواجدة في البلدان النامية.

جدول رقم ٤ يبين الأراضي القابلة للزراعة ونسبتها في البلدان النامية (هكتار / الشخص) في عام ١٩٨٠

الإقليم أو القارة	الأراضي القابلة للزراعة	المزروع منها	نسبة المزروع
أمريكا اللاتينية	١,٧٩	٠,٥٢	٣٠٪
أفريقيا	١,٧١	٠,٥٥	٣٢٪
الشرق الأقصى	٠,٢٨	٠,٢١	٧٥٪
الشرق الأوسط	٠,٦٠	٠,٣٩	٦٥٪
دول منخفضة الدخل	٠,٦١	٠,٢٩	٤٧,٢٪
للفرد الواحد	٧٩	٠,٣٣	٤١,٧٪

المصدر: منظمة الأغذية والزراعة الدولية (F.A.O)، الزراعة عام ٢٠٠٠، روما، ١٩٧٩.

لذلك يرى العلماء أن كوكب الأرض يستطيع إطعام ٤٧ مليار نسمة بالمستويات المتواجدة في أمريكا و١٥٧ مليار بالمستويات السائدة في اليابان وذهب بعضهم إلى حد القول أنه يستوعب ويكفي ١٣٢ ألف مليار نسمة (خليفة، ١٩٩١، ٢٣)

٢ – التعاون الاقتصادي الدولي القائم على الاستغلال والنهب ويتجلى في تخلي الدول النامية عن إنتاج غذائها اللازم بحيث تبقى معتمدة على ما تقدمه أو تصدره الدول المتقدمة لها، فقد طالبت الولايات المتحدة، المملكة العربية السعودية بالتخلي عن تطوير زراعة القمح وأن الولايات المتحدة ستقدم لها من فائضها وبأسعار التكلفة (صحيفة النهار ٢١/ ١٩٨٣) ولإضعاف إنتاجية الغذاء في معظم الدول النامية تعهدت بعض الدول المتقدمة بإغراق سوق البلدان التي تعاني من أزمة الغذاء بالمحاصيل الزراعية، وبأسعار أقل من الأسعار المحلية «ففي عام ١٩٨٣، باعت الولايات المتحدة المغرب ٥ مليون طن من القمح ومليون طن إلى مصر بأسعار أقل من تكاليف إنتاجه محلياً فأضعف الاهتمام بتزايد الإنتاج وتحسينه في الدول التي تحصل على مثل هذه السلع بدلاً من تقديم مساعدات لتطوير إنتاج الغذاء محلياً» (وهب، ١٩٨٧، ٩٦) ولا بد أن نضيف أن ما تستهلك الحيوانات والدواجن في البلدان المتقدمة يقدر بـ ٤ أضعاف العجز المتوقع من المواد الغذائية في الدول النامية

٣- لا ترتبط أزمة الغذاء بارتفاع معدلات الولادة والزيادة السكانية بقدر ارتباطها بسوء توزيع الإنتاج واستغلال الدول الأخرى، فمعظم الدراسات التي صدرت عن أبحاث البنك الدولي للتنمية، برهنت أن بعض الدول التي ترتفع فيها الكثافة السكانية بالنسبة لكل هكتار من الأرض الزراعية، يحصل سكانها على تغذية مرتفعة مثل فرنسا والتي تتساوى تقريباً

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

بالهند من حيث الكثافة السكانية، بالنسبة لكل هكتار، وربما يتضح سر ذلك إذا علمنا أن السكان البيض في أفريقيا جنوب الصحراء وعددهم ٥ ,٦ مليون مواطن ونسبتهم ٢٠٪ من مجموع السكان يمتلكون أكثر من ٨٩٪ من الأراضي الزراعية الخصبة هناك.

رغم أن الأرض تكفي لـ ١٥٧ مليار شخص من الغذاء، بالمستوى السائد في اليابان وأن نصف ما هو قابل للزراعة لم يستثمر، بعد، فإنه من جوانب أخرى تعمل البشرية على إنهاك الأرض والطبيعة من خلال تنمية غير مستدامة وغير صحية بحق الأجيال القادمة. لذلك أكدت قمة الأرض ضرورة أن تسير التنمية والبيئة، جنباً إلى جنب وألا تكون إحداهما على حساب الأخرى لأن التنمية التي تسير على حساب البيئة هي تنمية على حساب التنمية أيضاً على مداها الطويل، كما أن غياب التنمية أيضاً يلحق الضرر نفسه بالبيئة (عبد الله، ١٩٩٣، ٨١). وهذا يعني أننا بحاجة إلى فلسفة بيئية جديدة غير الفلسفة الراهنة، ربما كان هذا يجمع كل قرارات وتوصيات قمة الأرض، فلسفة ملتزمة. كلية مسؤولا فرديا واجتماعيا وسياسيا، روحانية لا آلية ميتة وتتجلى الأزمة البيئية ومشكلة التلوث من خلال:

١- استهلاك الطبيعة بطرق غير صحية: فقد خسر العالم ٢٠٠٠ مليون هكتار من الغابات خلال عقدي السبعينات والثمانينات من هذا القرن، ويتم إبادة ١٧ مليون هكتار آخر من الغابات أي بمعدل ٣٠٠ هكتار في الدقيقة على مدار العام، وفي كل يوم يتعرض ٢٠ نوعاً من الكائنات الحية للانقراض والإبادة الكلية، كما يتم حرق وإبادة ١١٦ ميل مربع يومياً من الغابات، ويخسر العالم ٧٠ ألف هكتار من الأراضي الزراعية نتيجة لسوء الاستعمال، وللاستغراق الشديد وفقدان الخصوبة، والزحف الصحراوي المستمر. يحدث معظم ذلك في البلدان النامية والدول الإفريقية ولا سيما في الغابات الاستوائية، والتي يعاني أهلها من فقر شديد ومستوى

معيشة متدن، فيضطرون لاستغلالها لتحسين ظروفهم وأوضاعهم ودفع فوائد ديون بلدانهم المتراكمة، حيث يبيعون تلك الأخشاب أو يؤجرون الغابات إلى الشركات الأجنبية المصنعة للورق.

٢- لقد حولت الحضارة الاستهلاكية المعاصرة الإنسان والأرض إلى مرمى للنفايات والسموم الضارة، ففي كل يوم تزداد الكميات الهائلة من النفايات، بحيث تضاعف حجمها ٢٠٠ ضعف عما كانت عليه عام ١٩٥٠، وأصبح العالم يلقي سنوياً ٧٠٠ مليون طن من المخلفات البشرية التي تتضمن ١٠٠ مليار زجاجة فارغة، و ٤٠ مليار علبة معدنية و ٣٠ مليار حافضة أطفال و ٢ مليار موس حلاقة و ٥٠٠ مليون إطار سيارات مستعملة (لانجون، ١٩٨٩، ١٥٠).

وقدر استهلاك ونفايات مدينة يبلغ عدد سكانها واحد مليون نسمة بالتالي:

تستهلك يومياً نحو ٦٢٥ ألف طن من الماء و ٢٠٠٠ طن من الأغذية و ٩٥٠٠ طن من الوقود، وينتج عنها ٥٠٠ ألف من عوادم المياه و ٢٠٠٠ طن من الفضلات الصلبة و ٩٥٠ طن ملوثات هواء. وتعتبر مدينة نيويورك من أكثر مدن العالم إنتاجاً للفضلات والقمامة التي توازي نفايات حوالي ٥٢ دولة نامية (كالون، ١٩٩٦، المقدمة). وإن معظم النفايات والقمامة ترمى في الأنهار أو تردم في مقابر التربة مما أدى إلى تلوث ٥٠٪ من أنهار العالم، وقد وصل ذلك التلوث إلى المياه الجوفية أيضاً. (برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، ١٩٩٨، ٥).

٣- نتائج التدهور البيئي على الإنسان والطبيعة: لم تقتصر نفايات العالم المتحضر على الإنسان وحده، بل تعدت ذلك إلى النفايات الكيماوية والصناعية، والنووية، إضافة إلى الغازات، والأبخرة، وراحت البلدان المتطورة تصدر جزءا من نفاياتها إلى العالم النامي، لكي تتخلص منها ومن آثارها. وقد عملت جملة تلك النفايات (الصلبة والسائلة والغازية) على

حدوث تغيرات جديدة، فارتفع معدل درجة حرارة الأرض، وتزايدت كميات غاز الكربون والكلور، وكلور الكربون مما أدى إلى ذوبان الجليد في المحيطات، واحتراق طبقة الأزون والتي تشكل طبقة حيوية في حماية الأرض من الأشعة، فتكاثرت حالات الإصابة بالسرطان وفقدان البصر، وانتشار نقص المناعة لدى الإنسان، وألحقت أضراراً جسيمة بالثروة الزارعية والنباتية والسمكية (جانو، ١٩٩٢، ١٨٤) أما في أوربا فقد أدى تلوث الهواء إلى إلحاق الضررة بـ ٤٧٥ ألف كليومتر مربع من المساحة التي تغطيها الغابات، وهي مساحة أكبر من مساحة ألمانيا، والخسارة الاقتصادية الناجمة عن ذلك تقدر بمبلغ ٣٥ بليون دولار سنوياً وهو ما يعادل الناتج المحلي الإجمالي لهنغارية (برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، ١٩٩٥، ١٤).

ويشكل سباق التسلح العالمي والحروب الناجمة عنه أحد أهم وسائل تلوث البيئة، وأحد أهم وسائل انتاج الفقر وتعميقه، وأحد أكبر عقبات التنمية، والوجه العاري لحضارة الدمار الإنسانية. وتشيرُ التقارير الرسمية أنه: في عام ١٩٨١ كان العالم ينفق واحد مليون دولار على التسليح في الدقيقة الواحدة أما اليوم فيقدر الإنفاق العسكري بحوالي ٧٩٠ مليار سنوياً، منها ١٢١ مليار في الدول النامية، ولو تم توجيه ربع هذه النفقات في البلدان النامية، فإنها تكفي لتوفير الموارد الإضافية اللازمة لتنفيذ معظم أهداف عام ٢٠٠٠ من الخدمات الأساسية للإنسان ورفع مستوى معيشته (Unitednations Developmentprogram١٩٩٤, ٥١) حيث أن كلفة «غواصة واحدة يمكن أن يؤمن التعليم لـ١٦ مليون شخص في العالم الثالث لسنة دراسية واحدة وكلفة صاروخ تسياري عابر للقارات يكفي لإطعام ٥٠مليون طفل يعانون من سوء التغذية أو الإنفاق على ٦٠,٠٠٠ مركز صحي، أو لبناء ٣٤,٠٠٠ مدرسة ابتدائية» (فخرو، ١٩٩٦، ١١١) وأن تخصيص ٢٠٪ من مبيعات أسلحة الدول الصناعية وتخصيص ١٠,٥ من مدخرات البلدان النامية لشراء الأسلحة يكفي لتوفير ١٤ مليون دولار سنوياً يمكن استخدامه لتأمين الأمن والسلام والمزيد من العدالة إلى البشرية.

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

وعلى مدى القرن الماضي أدت الصراعات المسلحة إلى قتل مليون طفل وإعاقة ما يتراوح بين (٤-٥) ملايين اخرين وتركت ١٢ مليون طفل بلا مأوى، وأكثر من مليون يتيماً أو منفصلاً عن والديه، وحوالي عشرة ملايين متأزم نفسياً (عدا حرب البلقان الأخيرة).

وبحلول عام ١٩٩٨ تكون الصراعات المسلحة مستمرة من ٢٠ عاماً في أفغانستان، ومنذ عشرة أعوام في الصومال، ومنذ ١٤ عاماً في سيري لانكا ومنذ ١٥ عاماً في السودان علماً أن تكلفة الحرب الأهلية في السودان تقدر بمليون دولار في اليوم الواحد

وتعتبر البلاد العربية أكثر المناطق في العالم إنفاقاً على السلاح، لكثرة الحروب والاضطرابات السياسية والتناحرات الاجتماعية، والتي تشكل ثمناً باهظاً على اقتصادياتها «إذ تضافر النفط والتاريخ والجغرافيا السياسية لجعل المنطقة مسرحاً لتجارة السلاح العالمية والحروب المبتكرة والنزاعات الأهلية» (برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، ١٩٩٧، ٣٤).

http://Archivebeta.Sakhrit.com

فقد بلغ إجمالي إنفاق الدول العربية على السلاح (عدا العراق-الصومال في عام ٩١٩٩٥) ٣٤ دولار تحملت دول التعاون الخليجي ٦١٪ منه وازداد إجمالي نفقات الدفاع أكثر من مليار دولار في كل من الجزائر-ومصر وليبيا والمغرب وسوريا. في حين قدرت تكلفة الحروب العربية منها ٤٢٢ مليار (استبعدت حروب العرب مع اسرائيل، والاضطرابات في الصومال).

وكانت تكلفة حرب الخليج الثانية حوالي ٦٧٦ مليار خسرها العرب مجتمعين، شملت منشآت مدنية وعسكرية وآبار البترول ومحطات الكهرباء وإضافة إلى ضرر القطاع العام فقد أصاب الضرر القطاع الخاص وسوق السياحة وما يتبعها من خدمات للطيران، كما انخفضت قيمة وكمية الصادرات والعملات العربية، وكان للتضخم آثاره المؤلمة على ذوي الدخل

المحدود، وهجرة الأيدي العاملة العربية من العراق ومعظم دول الخليج، وكل ذلك سيساهم في المدى المنظور في تفاقم مشكلة الفقر وتنامي مظاهرها.

إن الصراعات المسلحة (الأهلية - الخارجية) تدمر سنوات من التقدم في بناء البنية التحتية والاجتماعية، وحتى عندما تخمد تلك الصراعات في النهاية ويجري تسجيل الخسائر، فإن البلدان المتطورة تجد نفسها أمام تحديات إعادة البناء والمصالحة الشعبية اللذين يتطلبان موارد كثيرة لا تتوفر على الإطلاق بعد سنوات من الدمار.

وبعد هذا العرض لمظاهر ومؤشرات الفقر في العالم، يتبادر للذهن أن التنمية البشرية على مستوى العالم تواجه تحديات كبيرة. وحيال تعثراتها المتتالية، فإنه يتوقع لها أن تتراجع في أدائها ومستواها، وما الوفرة التي تحققها إلا وفرة الخاصة وسط الفقر العام.

ونخلص إلى القول إن غياب الالتزام السياسي والأخلاقي بقضايا التنمية، وليس ندرة الموارد المالية هو السبب الرئيسي في تدهور أداء التنمية البشرية العالمية، فالعالم يمتلك موارد وفيرة، ولكنها لا تستخدم لأغراض التنمية البشرية، فبمقارنة التكلفة السنوية الإضافية لتعميم الحصول على الخدمات الاجتماعية الأساسية، بما ينفقه المستهلكون، يتبين أن العالم ينفق سنوياً على التعليم الأساسي ٦ مليار دولار بينما ينفق على أدوات التجميل في أمريكا وأوربا ٨ مليار دولار. وينفق العالم على المياه والصرف الصحي ٩ مليار دولار، بينما ينفق على البوظة في أوربا ١١ مليار دولار، وينفق العالم على الصحة الإنجابية لجميع النساء ١٢ مليار دولار، بينما ينفق بالمقابل على العطور في أوربا وأمريكا ١٢ مليار دولار. وينفق العالم على الصحة والتغذية الأساسيتين ١٣ مليار دولار، أما ما ينفقه على أغذية الحيوانات المنزلية في أوربا وأمريكا ١٧ مليار دولار.

من ناحية أخرى فإن ما ينفق على ترفيه رجال الأعمال اليابانيين يبلغ ٣٥ مليار دولار وينفق على السجائر في أوربا ٥٠ مليار دولار، وعلى المشروبات الكحولية في أوربا ١٠٥ مليار دولار، وعلى المخدرات في

العالم ٤٠٠ مليار، أما النفقات العسكرية العالمية فتصل إلى ٧٨٠ مليار دولار.

تلك هي الصورة العرضانية لمسببات ونتائج الفقر في العالم، والتي تعكس الحالة المأساوية لمسيرة التنمية البشرية ومسارها المتخبط، وتعلن أننا أعداء في التنمية ولسنا شركاء، وكأن مستقبلنا ليس مشتركاً أيضاً، مما سيوصلنا إلى هاوية محتومة يعاني من آلامها الجميع، لأنك إذا لم تكن جزءاً من الحل، فأنت جزء من المشكلة.

لقد أثرنا عدم تقديم وجهة نظرنا وتحليلاتنا في أسباب ونتائج الفقر العالمي تاركين ذلك للقارىء نفسه وما قدمناه كفيل بعونه على ذلك.

* * *

مصادر ومراجع البحث

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

١- باقر، محمد حسين، الفقر في دول اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغرب آسيا/ منظمة الاسكوا، ١٩٩٥.

٢- برنامج الأمم المتحدة الإنمائي/ UNDP، تقرير التنمية البشرية، الأعوام، ١٩٩٠-١٩٩٥-١٩٩٧-١٩٩٨.

٣- بيتر مارتين، هانس وشومان، هارالد، فخ العولمة، عالم المعرفة، الكويت، العدد ٢٣٨، ١٩٩٨.

٤- جانو، عصام، «مشكلة زوال طبقة الأوزون»، شؤون اجتماعية، السنة التاسعة، العدد ٣٤، ١٩٩٢.

٥- حميد خان، اختار، «فجوة الصرف الصحي، الخطر القاتل للتنمية»، في مسيرة الأمم، منظمة الأمم المتحدة للطفولة/ UNICEF/، ١٩٩٧.

٦- خليفة، محمد، «أزمة الغذاء في العالم وفي الوطن العربي»، الوحدة، السنة السابعة، العدد ٨٤، أيلول ١٩٤١.

٧- زكي، رمزي، التاريخ النقدي للتخلف، عالم المعرفة، العدد ١٨، ١٩٨٧.

٨- الصقور، محمد، «السياسات الاجتماعية والفقر في المنطقة العربية»، في مناهضة وإزالة الفقر، برنامج الأمم المتحدة الإنمائي وغيره، نيويورك، ١٩٩٦.

٩- صندوق الأمم المتحدة للسكان/ UNFPA/ حالة سكان العالم، ١٩٩٦.

١٠- علوش، خالد، «السكان والتنمية»، في الكتاب المرجعي للتنمية السكانية، وزارة التربية بالتعاون مع صندوق الأمم المتحدة للسكان، دمشق، ١٩٩٣.

١١- عبد الله، عبد الخالق، «التنمية المستدامة، العلاقة بين البيئة والتنمية»، المستقبل العربي، العدد ١٦٧، ١٩٩٣.

١٢- فخرو، منيرة، «الفقر في الوطن العربي»، في مناهضة وإزالة الفقر، برنامج الأمم المتحدة الإنمائي وغيره، نيويورك، ١٩٩٦.

١٣- القصيفي، جورج، الفقر في غربي آسيا، اجتماع الخبراء العرب لتخفيف الفقر في الوطن العربي، دمشق، شباط ١٩٩٦.

١٤- لانجون، جون، «النفايات فوضى من العنق»، الثقافة العالمية، السنة الثامنة العدد ٤٥، ١٩٨٩.

١٥- لجنة الجنوب، تقرير لجنة الجنوب: التحدي امام الجنوب، بيروت، مركز دراسات الوحدة، ١٩٩٠.

١٦- مراغي، محمود، «أغنى الأغنياء وأفقر الفقراء»، العربي، العدد ٤٦، أيلول ١٩٩٧.

١٧- منظمة الأمم المتحدة للطفولة/ UNICEF/ ، وضع الأطفال في العالم، ١٩٩٧أ.

١٨- منظمة الأمم المتحدة للطفولة / UNICEF/ ، مسيرة الأمم، ١٩٩٧ب.

١٩- منظمة الصحة العالمية / WHO/ ، ١٩٩٥.

٢٠- ميردال، غورنار، نقد النمو، ترجمة عيسى عصفور، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٨٠.

٢١- وهب، علي، «مسؤولية أزمة الجوع»، الفكر العربي، السنة السابعة، العدد ٤٥، ١٩٩٧.

٢٢- United nations development program,Human develepent report, 1994.

الدراسات والبحوث

عصر المعرفة والتعلم التحويلي

تأليف: فيكتوريا مارسيك
ترجمة: أمل حسن

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

في يومنا هذا. تعتبر نتائج التعلم حقيقية ومثيرة ويواجه الشباب البالغ اليوم تحديات لا سابق لها في كل مجال من مجالات الحياة تقريباً، وهم يبذلون بشكل مستمر وتحويلي جهداً كبيراً من أجل التعلم في عالم يتطلب درجة عالية من التفكير، ويحتاجون كذلك إلى تحويل أطر مضبوطه بعمق أكثر من المرجعية لفهم تجربتهم بطرق تتناسب مع

* أمل حسن: باحثة من سورية، تحمل الاجازة في الأدب الانكليزي، تهتم بالترجمة.

المطالب المعتمدة والمتزايدة يوماً بعد يوم في حين استطاع الناس في الماضي القريب وبسهولة بالغة أن يبنوا أطراً حية للمرجعية مدعومة بثقافتهم لفهم هذه التغيرات والاستجابة لها.

وليكون الطلاب مؤهلين لمستقبلهم كشباب بالغين يحتاجون إلى تجريب طريقة التعلم التحويلي كما تحتاج المدارس إلى التغير بشكل أساسي من أجل تجهيز هذه التجربة أيضاً ، فيما يواجه المعلمون الذين يلعبون دوراً حيوياً في هذه التغيرات تحدياً مزدوجاً كمتعلمين راشدين حيث يحتاجون إلى تحضير الطلاب بشكل مختلف من أجل مطالب جديدة . وعليهم أيضاً تغيير الكثير من طرقهم الخاصة في الحياة ، والعمل ، وفيما يحدث داخل المؤسسات التي يعملون على إعادة تأسيسها لأجل ذلك كله .

يناقش مؤيدو الإصلاح المدرسي ، أن المعلمين هم أفضل من يستطيع أن يقوم بهذا الدور من خلال التعلم من تجاربهم وهم يواجهون التحديات الجديدة . لكن من الصعب الافتراض أنهم يستطيعون فعل ذلك من غير دعم إضافي . إضافة إلى أن عملية تطورهم المهنية يجب أن تكون معدّلة بشكل جذري لذلك نقترح من أجل الاقتراب من التجربة خلق منظمات معينة واستراتيجية واضحة هي استراتيجية- تعلم الفعل- الذي يقدم رؤية واضحة عن كيفية عمل ذلك .

ولادة تعلم مستمر ومديد ... لكن هل نماذج التعلم كافية ؟

تحتاج مطالب الشباب البالغ اليوم إلى شكل جديد من التعلم هو التعلم المستمر . إنه النموذج الذي تنبأت به مجموعة من صانعي القرار السياسي والمثقفين للربع الأخير من هذا القرن . لكن أنظمة التعلم المستمر ليست أنظمة جديدة . حيث كانت انكلترا في القرن التاسع عشر بالنسبة لفيل كاندي عبارة عن «مختبر اجتماعي مدهش» لتعلم الشباب اليافع . حيث ازداد عدد الجرائد ، وظهرت المكتبات العمومية في المدن والقرى في كل

أنحاء البلاد، والتحمت كذلك النقابات العمالية مع المجتمعات الصديقة، وشيدت مدارس الاحد الخاصة من قبل الشباب البالغ وخصوصاً الفئات الكثيرة غير الملتزمة، وازدهرت مؤسسات ميكانيكية، ومجتمعات أدبية وعلمية كذلك، وخطت الجامعات أولى خطواتها التجريبية خارج أسوار الجامعة وداخل نطاق العمل»وحصلت تجربة مماثلة في الولايات المتحدة مدفوعة بقيم معينة تؤكد على الديمقراطية وعلى التقدم الاجتماعي وكذلك توسعت فرص التعلم بالرغم من أنها لم تصنف كثقافة بشكل نموذجي. وكان النموذج السائد هو عملية التحسين الذاتي. ونشر في انكلترا الكاتب صموئيل سميل كتاباً جديراً بالملاحظة يتعلق بموضوع المساعدة الذاتية، حيث كانت «الثقافة الذاتية هي المصطلح المفضل» في الولايات المتحدة في ذلك العصر.

في نهاية القرن العشرين فتحت آلاف المجالات من أجل الشباب البالغ الذي يرغب بأن يتابع تحصيله العلمي للوصول إلى أهداف محسوبة أو غير محسوبة. ونمت ثقافة الشباب البالغ في العمل، وفي الصناعة كذلك إلى حد انبثق معه نظام الكليات المشتركة التي يستطيع الناس من خلالها الحصول على شيء متكافيء ومتساوٍ مع الدرجات المحددة للكلية. وطورت النقابات كذلك نظاماً مماثلاً لتؤكد من خلاله أن العمال الواقفين في طوابير معينة ولهم درجات معينة يحصلون على رأسمال معين وفرص معينة من أجل الثقافة. كذلك ازدادت بكثرة الكليات المشتركة وتحوي المؤسسات الخاصة بالثقافة من كل الأنواع والتي تأتي بعد الانتهاء من المرحلة الثانوية على المتعلمين الراشدين في حرم الجامعة أكثر من الطلاب الشباب قبل حصولهم على المهن المختلفة.

إضافة إلى ذلك ازدادت مجالات التعلم الخاصة بالشباب البالغين في

أمور عديدة: العائلة، الصحة، تعلم اللغة الانكليزية كلغة ثانية، الديانة، السجون، والجهود الاصلاحية والتأهيلية، المتاحف، بالإضافة إلى الحاجات المتعلقة بالمواطن المتخرج والمتقاعد، والهوايات والفعاليات المعاد خلقها أيضاً.

نشأت الثقافة المعاصرة الخاصة بالشباب البالغ في الولايات المتحدة من البذور القديمة الموجودة في عملية التطور المشتركة وفي التوسع الزراعي، والمكتبات، وفي المدارس الليلية كذلك. وبسبب طبيعة «الذوبان» للمهاجرين ركزت ثقافة الشباب البالغ غالباً على دورات «الفرصة الثانية» العلاجية في: الثقافة الأساسية، الثقافة المقروءة والشهادة المتكافئة العامة (G.E.D) بالإضافة إلى الثقافة المواطنية للمهاجرين. وقد نتج عن ذلك بالمقابل انحدار الانتاج الصناعي وازدياد الطلبات المتعلقة بالخدمات المهنية ذات المستوى العالي ازدياداً ملحوظاً، مما يتطلب نوعاً من التعلم المستمر الطويل الأمد. وبينما توسعت ثقافة الشباب البالغ والخدمات كذلك ظهرت مسائل أخرى تتعلق بكفاءة الأشكال التعليمية التي يعتمدون عليها.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تأثير عصر المعرفة:

دعم دخولنا إلى «عصر المعرفة» قوتان متداخلتان هما التحول التكنولوجي والشمولية العلمية وقد توسم ذلك مبكراً، وبشكل عقلاني، كتاب أمثال بيتر دروكر والفيس توفلر. لقد أحدثت التكنولوجية الذكية ثورة في الحياة خلال مدة قصيرة لا تزيد عن خمسة وعشرين عاماً حفّزت على إحداث تغييرات دراماتيكية في الطريقة التي يزيد فيها الشباب من المعرفة وينتجون أكثر وأكثر.

إن نظرة خاطفة إلى المطالب الجديدة في العمل تلخص العالم الذي

يدخله الشباب اليوم. هناك تقرير يتوقع بأن أكثر من نصف الأعمال التي ظهرت وستظهر ما بين أعوام ١٩٨٤ وعام ٢٠٠٥ ستحتاج إلى ثقافة أبعد من ثقافة المدرسة الثانوية. وتقرير آخر يقول: أن عدد الأعمال التي تتطلب مهارات معرفية ازداد بمعدل ١١٪ من عام ١٩٧٠ - ١٩٩٠. « ازدادت الأعمال التي تتطلب مهارات خاصة بالعلاقات بين الأشخاص بمعدل ١٩٪، فيما هبطت الأعمال التي تحتاج إلى مهارات حركية بمعدل ٤ إلى ٥ بالمئة». تحتاج الأعمال الجديدة إلى قدره هائلة جداً في قراءة المعلومات التقنية (الفنية) وإلى كتابة التقارير المتعلقة بذلك. لكن تقرير معرفة القراءة والكتابة بالنسبة للشباب الوطني في أمريكا الصادر عام ١٩٩٣ يقول أن /٩٠/ مليوناً من الشباب البالغ في الولايات المتحدة لا يجيدون القراءة والكتابة تماماً. «سيواجه مشكلة عند إضافة الشيكات أثناء انخفاض الودائع البنكية، وعند صياغة الاستنتاجات من المادة المطبوعة وعند كتابة الجمل المركبة. مع ذلك فإن أكثر من ثلث التسعين مليوناً كانوا يعملون طوال ساعات الدوام» آخرون يرون تلك العلاقة القوية القائمة بين مستويات الثقافة والأجور، وأن الشباب ذوي الثقافة المحدودة أقل ميلاً لإيجاد العمل وأكثر ميلاً للربح القليل، في حين أكثر من ٤٩٪ وما فوق سنة ١٩٧٩ يكسبون كسباً متفاوتاً كان متخرجو الكلية الذكور عام ١٩٩٣ يتوقعون أن يكسبوا بنسبة ٨٩٪ أكثر من نظرائهم الحاصلين على شهادة الثانوية العليا.

بعد عملية التقدم التكنولوجي تحولت الطرق التي يعمل فيها الناس بشكل جذري وارتفعت حاجة المدراء والمهنيين إلى القراءة الكومبيوترية التي بلغت نسبة ٧٪ وما فوق في المواقع الادارية بين ١٩٩٠ - ١٩٩٣. وأكثر من ذلك غيرت الكومبيوترات نوع التفكير المطلوب من الكثيرين بشكل أساسي. وعيّن شوشانا زوبوف البدائل المخترعة نتيجة الاستعمال الكبير للتكنولوجيا من خلال مقابلات أجراها مع المستخدمين والمدراء لعدة سنوات

في «مكان صناعة الورق، وفي مكاتب التأمين والبنوك، وفي شركة المواصلات البعيدة، وشركة الصيدلة ... الخ». وبالمقابل يمكن أن تستعمل الكمبيوترات لتزود بالمعلومات اللازمة «للتشغيل الأوتوماتيكي» الذي ينتج غالباً عن المهارة وعن إقصاء الأعمال وهذه عبارة صاغها زوبوف ليتحدث عن قدرة التكنولوجيا في جعل العمليات الضمنية مرئية مثلها مثل المعلومات نفسها. ويتطلب إعطاء المعلومات مستوىً عالياً من العقلانية الإجرائية ومن المنطق والتفكير المجرد كذلك. يلخص ذلك زوبوف: من اقتباس واستشهاد أخذه من أحد المستخدمين الذي يجربون عملية التحول والانتقال هذه حيث قال: «لم نكن قبل اختراع الكومبيوتر قادرين أن نفكر كثيراً، كنا فقط نستجيب ونتفاعل، بينما أهم شيء علينا الآن تعلمه هو التفكير قبل فعل أي شيء، بالإضافة إلى معرفة المتغيرات الأكثر خطورة وكيف يمكن أن نكون حريصين عليها كل الحرص أثناء التعامل معها، وما هو الوقت اللازم لنقضيه بالتفكير قبل القيام بالفعل».

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

عوامل هامة وعديدة أدت إلى تغيير طبيعة اتفاقية العمل السيكولوجية فبعض الناس يعمل لسنوات عدة في نفس المنظمة، وكثير منهم يعملون عملاً جزئياً ومؤقتاً، وعمال آخرون يعملون بعقود معينة، وهذا الواقع في المجتمع الصناعي يتطلب تطوراً في عمل المعرفة وتطبيقه، حيث يتم البحث عن عدد قليل من العمال ذوي الدخل العالي وينتقل العمل الروتيني الخالي من أي مهارة إلى أجزاء من العالم تكون الأجور فيها منخفضة.

تعتبر الحياة في كثير من المؤسسات مختلفة جداً عما كانت عليه عندما كان العمل يميل نحو الروتين والرتابة حيث كان الناس الموجودين في السلطة العليا في الماضي يتحملون مسؤولية كبيرة في فهم وتفسير العمل الذي كان الآخرون الموجودون في القاعدة يقومون به دون أي نوع من التساؤل. وكان على معظم الناس إطاعة الأوامر والأنظمة فقط دون التفكير بطرق معقدة.

وكانت المهام تحدد وتنجز بوضوح ودون الكثير من التفاعل مع الحدود المتاخمة . بينا ينجز العمل اليوم من خلال ارتباطات وعلاقات فعلية مع كل انحاء العالم وفي أي وقت . لقد سُطح عمل السلطات العليا كثيراً ووضعت مسؤولية كبيرة بين أيدي العمال الوثيقي الصلة بالمهمة . ويشارك في معظم الأحيان العمال الموجودون في المقدمة في عملية صنع القرار وفي حل المشكلة ، كما تتطلب طبيعة العمل غالباً فريقاً معيناً من المستخدمين ، ويحتاج هذا الفريق اليوم إلى قدرات جديدة في عملية التعاون المشترك وحل الصراع بينما كانت الثقافة في الماضي تعزز وتعتمد على الجهد الفردي فقط .

كذلك امتدت الحاجة للتفكير بطرق معقدة أكثر إلى أبعد من مكان العمل ، وظهرت الحاجة لايجاد خيارات معينة من أجل ثقافة الطفل ، وللوصول إلى أعلى مستويات المسؤولية في فهم الحاجات الصحية الخاصة بالفرد . إزاء تأكيد المنظمة العالمية على خط القاعدة لتحليل الخيارات السياسية وللتعامل مع الاختلافات الجوهرية الموجودة في المجتمع المتنوع بشكل كبير . والحاجة أيضاً إلى عملية تفتيش وتمحيص للفرص المتنافسة الخاصة بالمستهلك مثلاً . ذلك أن هناك الكثير من القرارات التي قد تؤثر على حياة الفرد بالذات إذا لم تُصغ بشكل جيد ، وهناك الخيارات المتعلقة بالعناية الصحية ، وبالمدرسة . وبأفضليات المهنة التي يمكن أن تتطلب نوعاً من البحث المستقل بالإضافة إلى مجموعة من الاستشارات المتعددة للمختصين والخبراء .

طرق جديدة في التعلم :

يمكن أن يكون خريجو الأنظمة المدرسية قادرين على النجاح في الامتحانات في عصر المعرفة الجديدة . فعملية الامتحان يمكن أن تؤكد على إعطاء الحقائق أكثر من القدرة على التفكير . مع ذلك تبقى الحاجة إلى

التفكير والتعلم المطلب الأهم بالنسبة للكثير من المؤسسات من عمالها البالغين.

كان التعلم سابقاً مناسباً لعصر قابل للتنبؤ به أكثر، وكان يشمل عملية حفظ ما اكتشفه الخبراء وممارسته. وبالمقابل كان الذكاء والاختراع من الشروط المطلوبة مسبقاً في الماضي من أجل المهنيين ذوي الثقافة العالية- بينما تُطلب هذه الشروط الآن من المستخدمين في أماكن عمل كثيرة. ذلك أن أبسط عمل يمكن أن يتطلب محاكمات معقدة تماماً. يمثل العمل الموقع الوسط بين المعلومات الصرفة التي يجب أن تصور من خلال عمليات دقيقة وتعالج باستخدام المنطق والرياضيات. وهناك بعض المراقبين الجاهزين لتجهيز عملية إشراف مفصلة، الجاهزين أيضاً للتعرف على عملية الارتباط الموجودة بين مهمة ما وبين النظام ككل. ويتوقع من المستخدمين رؤية كيف يسهم عملهم في جذب الزبائن والحفاظ عليهم وعلى كيفية انقاذ الحياة أو على اختراع إنتاج أفضل. وغالباً ما يفسر الشخص الموجود في مكان تجاري ما تعليمات أو دروساً تكنيكية عالية المستوى، ويستخدم الرياضيات على مستوى الكلية أيضاً، ويصلح كذلك المشاكل الفنية أو الخلل الواقع في الكمبيوتر، ويشارك أيضاً مع فريق العمل المنقاد ذاتياً. ويحتاج المحاسب، أو العامل الموظف، أو المهندس أو الميكانيكي المختص بالكمبيوتر ليرى الأثر الذي ستحدثه قراراته على مجرى العمل وعلى النتيجة النهائية. ويحتاج ممثلو خدمات المستهلك إلى تحديد وتقرير ما هي مطالب السوق المتغيرة. وعلى المستخدمين والمدراء أن يعرفوا كذلك أكثر توجهات الصناعة من أجل توجيه وتحديد خياراتهم بشكل يترافق مع الرؤية الاستراتيجية للشركة.

يبحث الشباب البالغ باستمرار عن الثقافة الشكلية لإعادة تشكيل مهنهم بشكل تتلاقى فيه مع المطالب الجديدة المنبثقة من العناية الصحية أو من موضوع الأبوة والنسب. إن عملية التعلم عبارة عن عملية توجيه ذاتي. حيث لا يستطيع الشباب البالغ النظر بسلبية إلى الآخرين ليأخذوا موقع القيادة في تعلمهم، إنهم مجبرون على التعلم من تجربتهم الخاصة. والتعلم

اليوم هو تتمة مجموعة كبيرة ومتزايدة من الخيارات التي يأتي معظمها عن طريق الفضاء.

يمكن لكثير من المعلومات أن يكون مشوشاً إذا كان الأفراد غير قادرين على السيطرة عليها. ففي الماضي كان التأكيد على المعرفة «النموذجية أو المثالية» والتي كانت توصف «بالمعرفة التحليلية»، العامة، المجردة، غير الشخصية وغير القرينة. بينما يؤكد الدارسون اليوم أن كثيراً من المعرفة يعتمد على الفهم والإدراك المناسب الذي يفهم في معظم الأحيان كنوع من أنواع «السرد» أي «المحدد، والمحلي، والشخصي والقريني كذلك». ومن خلال الأوضاع الجديدة التي تواجه الناس فإنهم يرسمون واقعهم بشكل علمي. ويفعلون ذلك في الزمن الفعلي. إذ يتوقع من الرجال والنساء التعلم من تجربتهم الخاصة، لكن ما هو نوع الإحساس والشعور الذي سيشعرون به إزاء هذا الكم الهائل من المعلومات؟

ARCHIVE

يستخدم الناس المعرفة الموجودة لتفسير التجارب الجديدة، ويستفيد الشباب اليافع كثيراً عند التعلم من التجربة إذا كان قادراً على الانخراط في هذا المستوى العميق من التفكير النقدي، لكن هناك عوامل عديدة تجعل هذا النوع من التعلم صعباً للغاية، إذ من السهولة القول أن سبب الفجوة الموجودة بين تحديات اليوم والدروس الماضية يعود إلى سوء التفسير الذي يقوم به الناس للتجربة، وإلى استخدامهم عدسات وصوراً غير مناسبة، وكذلك بسبب صعوبة تغيير الآراء الأساسية أو وجهات النظر الجوهرية ولو أنها قديمة الطراز، لكن لكي نفعل ذلك يجب أن نتعمق أكثر ويجب أن نحصل على تحليل معين للمعاني المسلّم بها والتي يفترض أنها صحيحة تماماً.

أعطى عمل جاك ميزور في موضوع التعلم التحويلي مدخلاً إلى كيفية تغيير الآراء الأساسية. وجاء استنتاجه من دراسة قام بها سنة ١٩٧٠

حول نساء معينات حصلن على ثقافة عالية المستوى بعد أن قمن بتربية عائلاتهن واستطعن أن يفرضن مجدداً آراء اجتماعية لنساء كن مندمجات معهن شخصياً، ووافقن على آرائهن دون أي نقد. يدور قانون ميزور حول تحقيق وفهم أن الشباب البالغ قادر على التخلص من تجربته كلها من خلال «أطر أو أشكال مرجعية تحدد مجرى حياته». تصور هذه الأشكال من الادعاءات والافتراضات بشكل اختياري، وتحدد بشكل معاكس التوقعات والملاحظات والإدراك والمشاعر «وتصنع أسلوبنا في الفعل»، وكذلك تصور أطر المرجعية الكثيرة «وعادات العقل» المفهومة التي تظهر في حالات مختلفة «كوجهات نظر» خاصة تفسير الواقعة المحددة. يمكن أن تكون عادات العقل ووجهات النظر سيكولوجية أو سياسية أو حضارية أو اقتصادية أو معرفية. ويمكن كذلك أن تكون الافتراضات غير المغطاة بشكل قوي والمعتقدات والقيم التي تصور الفعل صعبة ومؤلمة لكنها في الوقت نفسه محفزة بشكل كبير. ويستطيع الناس أن يشاهدوا كيف تصور أفعالهم من خلال آرائهم- وتقود إلى نتائج غير مرغوب بها غالباً ما تكون عكس أهدافهم تماماً- لكنهم يتعلمون من تلك التجربة. الخطوة الأولى التي يبقى على الناس التعرف عليها هي الاعتراف بوجود المعتقدات والأفعال التي يصعب عليهم تغييرها. يعتقد ميزور أن كل الشباب البالغ قادر أن يرى ويتحدى افتراضاته وادعاءاته الخاصة إذا أعطي الفرصة والدعم الثقافي المناسب. لكن البحث في موضوع تطور الشباب البالغ يفترض أن الكثير منهم قادر ببساطة أن يخطو خطوة معينة خارج وجهة نظر عالمهم الخاص. يساعدنا القانون المتطور مع نقاده على فهم أن عملية تحدي الأنظمة الثقافية والتعليمية تدخل بشكل عام بعمق أكثر من المعلومات المزودة البسيطة من خلال الأنظمة التحريرية أو المسلّم بها الجديدة. إذ تقترح هذه القوانين أن كون الشباب البالغين ناضجون يعني أنهم يستطيعون تطوير، القدرة على رؤية العالم بشكل قريني ونقدي أكثر، مع أنهم لا يفعلون ذلك دائماً.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

إن عملية التحويل ليست ببساطة عملية تبني تقنيات واساليب تفكير معين. إذ يعتقد علماء النفس المتطورون أن المراهقين والشبان الناضجين يمرون بمراحل تتميز بطريقة سيطرة الفهم وتتعلق بالأوضاع التي يواجهونها مهما كانت طبيعة هذه الأوضاع. تنظم المراحل بشكل عميق قوالب معينة من أجل التجربة، محدثة بذلك أثراً يتلقاه الشباب البالغ عن طريق أحاسيسه، ومن خلال تفسيره للمعلومات المختارة.

تظهر هذه الطريقة السائدة في رؤية العالم في تفكير الشخص نفسه، ومن خلال الطرق التي تفسر فيها الحالة. ويحتاج تغيير هذا المفهوم إلى أكثر من تعديل في وجهة النظر الخاصة.

تتقدم المراحل عادة باتجاه طرق معقدة بشكل متزايد في عملية التفكير وفي عملية العمل والتصرف في العالم. ومع أن الباحثين النظريين يختلفون من خلال طرق واضحة إلا أنهم عادة يتفقون على معنى القوة الكبرى. ذلك أن الناس مع الزمن يميلون إلى الاستقلالية والاستقلال الذاتي. ورغم أنهم قادرون على التواصل العاطفي مع الآخرين وعلى تطوير العلاقات الحميمة إلا أنهم يجدون أنفسهم راغبين بالانفصال بمشاعرهم وبآرائهم عن مشاعر وآراء الآخرين. حيث لا يأخذون بهذه الآراء دون نقد. ويضعون لأنفسهم أهدافاً تعزى إلى عملية تقدمهم المحدد ذاتياً وهم قادرون في الوقت نفسه على رؤية كيف تؤثر أفعالهم في الأنظمة والقوانين التي يعملون بها ويعيشون من خلالها. كما يقومون بعملية توازن واختيار بين الأولويات المتصارعة. إذ يمكن أن يصعدوا في بعض النقاط الرغبة الذاتية المحلية. وهم يعرفون دورهم في المشاركة في بناء وتشييد الواقع الذي يجدون أنفسهم فيه.

أما روبرت كيجان الذي تركز نظريته على التعقيد المدرك فهو يناقش بأن المطالب الفعلية للحياة الحديثة تترك الكثير من الشبان في حالة رعب.

ويستعرض كيجان الأدب من خلال علاقات العمل المتغيرة ليأتي إلى خلاصة فحواها أن الناس غالباً ما يجدونه أمراً بصعب القيام به كما كانوا يتوقعون. وهو في ذلك يقابل بين مجموعة الأفكار الأكثر (حداثة) التي تشكل غالباً أساس توقعات مستخدمي اليوم مع مجموعة الآراء التي يحضرونها في معظم الأحيان:

١ - أن نخترع عملنا الخاص (أكثر مما نراه ملك صاحب العمل أو مخترعاً من قبله).

٢ - أن نكون مطلعين، ومصلحين، ومستقرين ذاتياً (أكثر من اعتمادنا على، الآخرين في صياغة أو تصوير المشاكل، واستهلاك الضوابط والتعديلات أو تقرير إذا كانت الأشياء تجري بشكل متفق عليه جداً).

٣ - أن نكون مقادين من خلال رؤيتنا الخاصة في العمل (أكثر من أن نكون بلا رؤيا، أو أسيري جدول أعمال السلطة).

٤ - أن نأخذ كامل مسؤوليتنا تجاه كل ما يحدث لنا في العمل خارجياً وداخلياً (أكثر من رؤية ظروفنا الذاتية الحالية والاحتمالات الظاهرية المستقبلية وكأن سببها يعود إلى شخص آخر).

٥ - أن نكون أسياداً بارعين أو ضالعين تماماً بأدوار ووظائف عملنا الخاص (أكثر من أن نملك علاقة مقلدة أو مبتدئة لما نفعل).

٦ - أن نفهم المنظمة من الداخل ككل. وأن نرى علاقتنا بهذا لكل، ونرى العلاقة بين أجزائها ككل (أكثر من رؤيتنا بقية المنظمة وأجزائها من منظارنا الخاص فقط أي من (داخل الخارج).

يستطيع الفرد القادر على التفكير من خلال هذه الأشياء أن يتعامل بشكل مؤثر وفعال مع التحديات المعقدة للحياة الحديثة. ويملك كذلك مستوى كافياً من الاستقلالية يؤهله لأن يفكر من خلال أهداف معينة وليرى

النظام الذي تتفاعل وتعمل من خلاله مجموعة قوى متنوعة، وليقتفي أثر الأسباب والنتائج كذلك، وليرى الادعاءات والافتراضات الضمنية التي تؤثر على الأفعال. كما تستطيع مجموعة الشباب البالغ ذات القدرة المنظمة على أعلى مستوى أن تأخذ مواقعها الذاتية كشيء أو كموضوع انعكاس وبذلك تتجنب الوقوع في شرك وجهة نظر معينة تتركها غير قادرة على رؤية وجهات النظر المتغيرة والمطوقة أكثر. حيث نسأل هذه، المجموعة أسئلة أعمق حول الطريقة التي وصلت إليها في رؤية الأشياء.

بدايةً طرح عصر المعرفة المزيد من التعقيد في عملية الفهم والتعامل مع عالم الفرد. واندفع الشباب بتزايد هائل من أجل تحدي طريقة تفكيرهم الخاصة، لتجنب النظام في الاختراع، وللتفكير بشكل مختلف في تجاربهم الخاصة. يحتاج المعلمون كأفراد بالغين لأن يؤثروا في هذه التغيرات في حياتهم الخاصة، كما يحتاجون أيضاً لتجهيز الشباب بمطالب التعلم التي تحتاجها مثل هذه التغيرات.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تطبيقات من أجل عملية الإصلاح الثقافي

تجرى التحليلات التجريبية في مكان العمل الجديد من أجل فهم وإدراك، ما يجري بوضوح في عالم البالغين الذي يرغب الشباب في مواجهته. وقد يكون من الصعب تصور شكل أو هيئة التنظيمات والمؤسسات الاجتماعية التي سيعيش فيها الشباب ويعملون بشكل كامل. إن من الصعب إعطاء معدل سريع لعملية التغيير الحاصلة في مظاهر عديدة من المجتمع حتى مع تحليل كهذا. لذلك يقترح التحليل في هذا البحث لكثير من الشباب البالغ أن يجرب التنظيمات التي أصبحت متملقة ومرتبطة ببعضها ومتشابكة ولا مركزية أيضاً. وستستمر التكنولوجيات في سعيها

لجمع الناس عبر مسافات بعيدة، ولجعلهم قادرين على المشاركة في المعلومات وعلى اختراع المعرفة حتى دون أن يرى واحدهم الآخر وجهاً لوجه لأن المستخدمين الآن جاهزون للمبادرة في العمل أكثر، مع أنه ما يزال هناك حدود لمشاركة السلطة. وكونهم كذلك فمن المطلوب منهم القيام بالعمل بشكل أفضل على الأقل من أجل خدماتهم ومساهمتهم الذهنية أكثر من مساهمتهم الجسدية.

تصمم المدارس اليوم لخلق مواطنين جيدين في عالم صناعي تسيطر عليه قدرات جسدية وبيروقراطية ومنظمات آمرة مضبوطة وتهيئهم اجتماعياً لمكان عمل لم يعد موجوداً يضاف إلى ذلك ممارسة أو مشاركة على المجتمع أن يناقشها بجدية لتطوير أشكال جديدة من العمل وتنظيمها بشكل أسهل. إن عملية التحدي كبيرة جداً لذلك طورت المدارس بشكل كبير أنظمة كانت قد وجدت لسنوات عديدة لدعم الكفاية والفعالية في مجرى فعل الأشياء. تقاوم هذه النظم الراسخة عملية التغيير، وتقولب الأفراد بطرق مألوفة من أجل فعل الأشياء دون أن يكونوا واعين تماماً أن ذلك قد يحدث أو لما يحدث بعد، فيما الأفراد لا يمكنهم فعل ذلك بمفردهم دون أن ينبذوا أو ينفوا. لذلك عند إعادة بناء المدارس على كثير من المعنيين - المعلمين والمدراء والآباء والأطفال - أن يقوموا بإعادة التفكير ثانية بأشكال تفكيرهم العقلية، والتصرف بشكل متماسك ومحسوس لإعادة تصميم التعلم.

قد تتحقق بعض الأهداف بانسجام رائع إلا أن الوضع ليس كذلك في مسألة الثقافة، حيث الخطط أو الأهداف المتعلقة بالماضي ستعيد فقط خلق التفكير ذي الطراز القديم ومكافأته. هناك درس واضح نستطيع تعلمه من النظر إلى مكان العمل اليوم هو الحاجة إلى جعل الناس قادرين على التصرف والعمل بشكل مستقل نابع من ذاتهم مع قليل من الحذر من الكيفية التي يمكن لأفعالهم التأثير على الأنظمة ككل وكيف يمكن أن يكون لأفعالهم

نتائج متفاعلة وطويلة المد . ولفعل ذلك يحتاج الشباب إلى مختبر آمن «فوضوي» ، متفاعل ، يستحضر تجربة العالم الحقيقية .

كنقطة بداية يجب من أجل التعلم أن تُجمع تحديات العالم الفعلية في غرفةالدراسة . بحيث تعالج الحلقة مضمونها وحجمها وبتحد معقد ومنضبط جداً يبدأ التعلم الذي يقوم على المشكلة حيث يبحث الطلاب كفريق عمل موحد ويسعون للحصول على المعرفة من خلال العمل في مجالات مفيدة لتحديد المشكلة ووضع خطة معينة لحلها ، على هذا النحو غالباً ما يكونون قادرين وبسهولة أكبر أن يروا الصلة الوثيقة للمعرفة ، كما يمكن أن يثاروا أكثر بحيث ينقبون بعمق أكبر داخل ما يمكن أن يبدو من نواحٍ أخرى مجرداً . كذلك يمكن أن يتلقى أعضاء الفريق تدريباً خصوصياً لما هو مطلوب ويجب أن يكونوا قادرين أن يدنوا أكثر من التكنولوجية المتفاعلة . يقترح التعلم الذي يعتمد على المشكلة تصميمات متعاقبة ومتبادلة من أجل منهاج الدراسة هذا للتقدم خلال المدرسة خارج إطار الحركة المتسلسلة للجماعات التي تعتمد على السن .

أما بالنسبة إلى التعلم المعتمد على العمل الذي كانت تقوم به المدرسة من خلال فرص معينة والذي كان معمولاً به إلى حد ما في الولايات المتحدة فهو يتضمن بعض طلاب المدرسة الثانوية المنخرطين في تحديات العالم الفعلية من خلال مدة التمهن (سبع سنوات) . وهكذا تتوفر فرص تعلم الخدمات التي من خلالها ينخرط الشباب في عمل جماعي وطوعي ، وتتضمن مثل هذه الفرص بعض الفرص الصغيرة لأفراد المدرسة . ويخشى الآباء من عدم استفادة الأولاد الذين ينخرطون في هذا النوع من التعلم عندما يطبقون ذلك في الكلية . لكن لم يظهر حتى الآن البحث الذي يتعلم من خلاله التلاميذ مثل هذه التجارب . وكون المدارس لم تصمم لتسمح ولتستفيد من التعلم من التجربة ، يمكن ألا يملك المعلمون الأشكال

والمهارات التي تمكنهم من إطالة الدروس المتعلمة ولا تمكّنهم من تقدير النتائج بينما الكليات لا تقيّم ولا تكافىء على نتائج معرفة كهذه . لذلك تحتاج مسائل من هذا النوع إلى العنونة . كإعطاء ملاحظة مثلاً بأن الشباب البالغ يتعلم من عمله بشكل فعّال أكثر .

يجب أن يعطى الطلاب مسؤولية أكبر في تحديد أهدافهم التعليمية الخاصة وفي صنع خياراتهم في كيفية الوصول إلى هذه الأهداف في أعمار مبكرة . ويمكن أن يساعدوا بأن يفكروا في هذه الخيارات بشكل انتقادي مع ذلك هناك حد معين في مدى الاستقلالية التي يستطيع الشباب أن يفترضوها إذا صدقنا الدراسات المتعلقة بتطورهم العاطفي والمعرفي ، إذ ما يزال المعلمون قادرين على دعم الطلاب في كل مستويات تطورهم وقادرين أيضاً على تحديهم بشكل تحفيزي ليستطيعوا بناء القدرة الكافية التي تمكّنهم من صنع وإنجاز أهدافهم المحددة الخاصة .

من السهل تصوير مكان العمل بشكل شاعري ، غالباً ما تكون عبارة عن بيئة مجهدة يقيّد فيها الشباب اليافع بشكل غير ضروري . فإذا فتحت الأشكال الجديدة للمنظمة فرصاً وإمكانيات أكثر من أجل التعلم فإن أماكن العمل تظهر محكومة بشكل أساسي بعلاقات السلطة وبالصفات المتنافس عليها والتي تعود إلى مالكي الطبقة الدنيا .

هناك أفكار ومخاطر موروثة في المنظمات يستحيل من خلالها تحدي الناس الموجودين في السلطة لذلك على المدارس أن تلعب دوراً أكبر في إعطاء النقد الصفة المنطقية في مساعدة الشباب البالغ لفحص الافتراضات التي يتعرفون عليها في بيئتهم الخاصة وفي الطريقة التي ينظم العمل من خلالها ، ويحتاج الشباب إلى تربية اجتماعية حسب أعمارهم ووضعهم الاجتماعي بشكل نموذجي ليوافقوا على معايير ونظم الأفراد الأكبر منهم سناً وبذلك يخلّدون ويجتازون النظم الاجتماعية المتفق عليها مسبقاً من أجل

عملية النجاح. وقد يكون من الصعب مناقشة الافتراضات والادعاءات الرئيسية المتعلقة بظهور الهدية لكن الاهتمام بطريقة تفكير الفرد وليس إلى ما يفترض أنه يفكر فيه فحسب يجعل المعلمين يساعدون الطلاب كي يكونوا أكثر وعياً في افتراضاتهم وفي نتائج معتقداتهم الخاصة، كما يجعلهم يشركون الشباب في الحوار الجاري حول العمل والمجتمع مما يمكن أن يخلق وعياً صحياً وعاطفياً ومهارات مصقولة تشجع على التفكير النقدي والتعلم التحويلي، وذلك هو التحدي الذي يواجهه المثقفون في مواجهة هذا العالم الأكثر تعقيداً.

استمرار تعليم المعلمين خلال عملية التعلم:

كيف يمكن مساعدة المعلمين الذي هم أيضاً متعلمون ليؤثروا في كل هذه التغييرات؟ إن لب التوصيات الإصلاحية هو أن يتعلم المعلمون من تجربتهم أثناء حل مشاكلهم الخاصة. ويأتي هذا التعلم بشكل طبيعي عند الكثير من الناس لأن المعلمين والمؤسسات التي يعملون بها يحتاجون إلى تطوير قدراتهم في التعلم وفي كيفية تعلمهم.

يعرّف كثير من المربين الأشكال المختلفة لعملية البحث تلك التي يشترك فيها المعلمون لتوجيه وإرشاد ممارساتهم في عملية البحث. لقد ظهرت فجأة في الأماكن غير التابعة لمدرسة حركة موازية لتعلم الفعل هي عبارة عن شكل شائع يدعم الوعد من أجل عملية تطور مهنية يعمل الناس من خلالها كنظراء من أجل حل المشاكل وفي الوقت نفسه ليستخدموا التجربة كنوع من المختبر من أجل التعلم. لُقب في كثير من الأحيان ريج ريفان «بأبي» تعلم الفعل معتمداً في تفكيره على عملية تطوره المهنية المبكرة كفيزيائي. ولاحظ أن طلابه تعلموا بشكل أفضل عندما استقصوا بشكل مشترك عن المسائل الصعبة التي تعارض الحل بصعوبة. ولأنه لم يكن هناك

http://Archivebeta.Sakhrit.com

أجوبة سهلة فقد سألوا أسئلة ليقدموا نظرات ثاقبة جديدة في كيفية صياغتهم للحالة. وقد ترجم ريفان عندما استلم مهمته في عملية تطوير الإدارة في مناجم الفحم أثناء الحرب العالمية الثانية هذه المبادىء إلى نوع من التصميم للتعلم من التجربة.

تشبه عملية تعلم الفعل عملية بحث الفعل إلا أن الأشخاص العاملين فيها يركزون على البحث بنسبة تقل عن تركيزهم على الانجاز الخاص في عملية تطورهم المنظم والشخصي. يمضي الأفراد وقتاً طويلاً في عملية تعلم الفعل وبحث الفعل وفي مساعدة بعضهم بعضاً للتفكير في طرق جديدة تتعلق بالمشكلة التي بين أيديهم وفي تعيين وتحديد الكتل الصلبة، حيث يأخذون المبادرة لفحصها وللتفتيش بشكل مستمر عن التغذية الاسترجاعية، وعن فحص النتائج المطلوبة وغير المطلوبة أو المصدقة وغير المصدقة.

يعكس الأعضاء المشتركون في عملية تعلم الفعل ما يتعلمونه بشكل عقلاني وكذلك كيفية تعلمهم كل ما يتعلق بالمشكلة، وطريقة عملهم داخل مجموعة معينة، والنظام الذي طوقوا فيه المشكلة وكل ما يتعلق بهم كمتعلمين. وتجد المجموعات نفسها تتعلم بشكل أفضل من خبراء وأفراد ذوي خلفيات مختلفة تسمح نظرتهم بأن يفكروا بشكل مختلف في الوضع القائم.

ليست هناك طريقة موحدة يمكن الانخراط فيها لتعلم الفعل لكن مع الزمن تطورت عدة نماذج، واستعمل بشكل نموذجي شكلان من التنظيم في الولايات المتحدة. يقترب الأول من النموذج الذي اقترحه ريفان والذي يضم مجموعة من المنظرين يعملون مع بعضهم بعضاً لفترة زمنية معينة يفكرون من خلالها ويحددون تحدياتهم الفردية الخاصة. ويشمل النموذج الثاني مجموعة تعمل مع بعضها بعضاً كفريق عمل في تحدٍ واحد شائع،

غالباً ما يكون نظامياً بطبيعته . ولكي تعزز عملية التطور هذه يجب ألا تتضمن عملية تحدي تعلم الفعل حلاً معروفاً بالإمكان حله بسهولة . إن هذه التحديات قضايا صعبة جداً مبدئياً وغالباً ما يميل الناس العقلاء للاختلاف حولها .

يركز النموذج الأول على التعلم الفردي أكثر ، بينما يُستعمل النموذج الثاني غالباً من أجل بناء الفريق و/ أو التغير المنظم . تختلف النماذج أولاً في تصميمها لأن المشروع يركز إما على الفرد أو على تحديات المجموعة . ويتعلم الناس كلا النموذجين للاهتمام كلياً بما يحدث . ويختلف العمق ودرجة التعلم مع مهارة الأعضاء المشتركين ومع قدراتهم في إظهار القضايا الصعبة . يسيّر التعلم كذلك من خلال برنامج أعمال مجموعة معينة وبتوقيت معين ، ويساعد الأفراد في الوقت ذاته على توجيه أسئلة تكشف عن معتقداتهم الشخصية المؤثرة في الفعل بدلاً من إدلاء النصيحة .

http://Archivebeta.Sakhrit.com

تستطيع عملية تعلم الفعل مثلها مثل عملية بحث الفعل أن تحدث تغييراً في ثقافة النظام وفي الممارسات التي تعتبر ضرورية إذا كان الإصلاح المدرسي له أي فرصة في النجاح . ويجد أعضاء مجموعات تعلم الفعل دائماً أن المشاكل تكمن في النظام الذي يحتاجون أن يتعلموا كيف يغيرونه . ويمكن أن يساعد هذا النوع من الحرص على إزاحة مسألة «اللوم والعار» ، التي ترافق دائماً المصاعب . وبينما تعمل المجموعة على حل مشكلة ما تصبح هذه المشكلة واضحة عندما تعمل السلطات ، والممارسات ، وعملية البناء ، والتعويضات والوحدات الخيرية مجتمعة على تقويض الحل أو القرار . وتحتاج المجموعة لأن تتعلم كيف تحضر هذه العوامل كلها لتستنير من الناس الجيدين الموجودين في النظام . وقد تحتاج إلى الأعضاء أيضاً للسيطرة على قوى التغيير . لقد طوقت القضايا بشكل عميق ومبدئي داخل معتقدات وممارسات مضبوطة لفترة طويلة نادراً ما تُناقش وما تُثير التساؤل والذي

يحصل غالباً هو المناقشات غير المحببة حول المعايير أو الادعاءات أو الافتراضات الموجودة حول الناس وحول الممارسات والمؤسسات كذلك. يسمح تعلم الفعل بأن تطفو الصراعات داخل النظام على السطح. ويعمل هذا النظام بشكل أفضل عندما تدعمه القمة، وتعترف به كأساس من أجل عملية التغيير.

وبينما يتعين على المعلمين أن يكونوا أكفاء ومؤهلين في اختصاصهم تعتبر المعرفة شيئاً أكثر من معلومات صرفة أو حقائق محدودة. إن الخيارات التي يضعها المعلمون حول أي من الحقائق يجب أن يؤكدوا تنضفر بشكل أساسي مع الطرق التي يفكر فيها المعلمون بالحقائق نفسها ومع الطرق التي يساعدون فيها تلامذتهم ليجتمعوا وليفسروها.

يعمل الطلاب بشكل عام داخل ميدان المعرفة الذي عينه وفسره لهم المعلمون منذ البداية. يتعلم المعلمون من تجربتهم الخاصة في التعلم ويكسبون من الداخل ما يمكن أن يحتاج الطلاب أن يعرفوه بشكل يمكّنهم من استخدام هذه المعلومات على نحو أفضل. هذه هي النقطة التي ينبغي على تعلم الفعل أن يكون وثيق الصلة بها على نحو خاص.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

على المعلمين اجتياز هذا النوع من التعلم بأنفسهم لتشكيل التعلم التحويلي وجعله قادراً أن يصبح ضرورياً للعالم الذي سيواجهه طلاب اليوم. وعلى المعلمين أن يخطوا خارج إطار الطرق المألوفة التي يفكرون ويعملون بها والتي يمكن أن تكون غير مطمئنة لأنها تحتاج غالباً إلى الخروج عن وجهات النظر المألوفة والمكتسبة منذ وقت طويل. على عملية التطور المهنية التي تدعم عملية التعلم التحويلية تحد المعلمين من أجل الفحص بعمق في الادعاءات والمعتقدات المكتسبة بينما هي تزودهم في الوقت نفسه بالدعم الكافي الذي يمكّنهم من ترويض مشاعر العجز والإحباط التي يحسون بها.

* * *

خصائص اللغة الاعلامية

نور الدين بليبل

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يجمع الباحثون الاعلاميون على أن للاعلام لغته الخاصة، وتتمثل هذه اللغة أساساً في اشارات منطوقة أو مكتوبة أو مصورة، تمر عبرها الرسالة الاعلامية الى الجمهور. وحيث لايتم الاعلام الكامل اذا لم يجد رجل الاعلام اللغة الملائمة للتعبير عن المعلومة أو الفكرة أو المشهد..

* نور الدين بليبل : باحث من الجزائر، يعمل في مجال الصحافة والدراسات الاعلامية.

وبما أن القائمين على العمليات الاتصالية يسعون لكي تصل رسائلهم الى أكبر عدد من الناس، فان لغتهم يقتضي أن تأخذ هذا الأمر بعين الاعتبار، وهو مايتم مراعاته في الممارسة، اذ يميل الاعلام الفعال الى الأسلوب ذي الفهم العام، والدلالات الواضحة، والبساطة بالرغم من ضرورة مراعاة اللغة الاعلامية ومستوى ادراك الجمهور المتلقي، فهي أولاً وقبل كل شيء مطالبة بملاءمة عباراتها مع طبيعة الأحداث المعالجة. فمن الجلي أن أسلوب نقل المعلومة من المخبر، يختلف عن رصد تجمع جماهيري، ويختلف عن تصوير مأساة انسانية، كما يختلف عن متابعة صراع فكري، ويختلف أيضاً عن وصف مؤمن في لحظة تعبده، وخشوعه.. وبذلك يمكننا وصف اللغة الاعلامية بلغة كل شيء، أو بجغرافيات العالم.

وبما أن اللغة الاعلامية ملزمة بالاضطلاع بتلك المهام كافة، فإن أدواتها التعبيرية والفنية ينبغي أن تستجيب لاحتياجات التنوع، وكذلك لخصوصيات الوسيلة الاعلامية.

سمات اللغة الاعلامية

تتميز لغة الاعلام بسمات عديدة، وهي تختلف بطبيعة الحال عن لغات العلوم والمعارف المتخصصة لأنها تتجاوز مخاطبة الفئات المتخصصة الى الجمهور الواسع ذي المستويات المتفاوتة.

اذا كانت اللغة الاعلامية تحرص على مراعاة القواعد اللغوية المصطلح عليها، فانها تحاول كذلك أن تحرص على خصائص أخرى في الأسلوب وهي البساطة والايجاز والوضوح والنفاذ المباشر، والتأكد، والأصالة والجلاء والاختصار والصحة[1].

يدعو الدكتور ابراهيم إمام الى الحرص على استخدام الألفاظ المألوفة، وتجنب الألفاظ العلمية والاصطلاحات النادرة مع الحذر من الانزلاق الى العامية المبتذلة واعتماد اللفظ الدقيق، والعبارة السليمة الموجزة، والاقتصاد في الكتابة، والبعد عن الحشو والاسهاب،

١ - المدخل الى وسائل الاعلام، تأليف عبد العزيز شرف ص: ٢٣٤.

والموضـوعيـة في نقل الآراء والاتجـاهات، والأمـانة في تصـوير أبعـاد المشكلات.

تعد صفات الواقعية والموضوعية والدقة في الأسلوب الصحفي من مظاهر القوة في كتابة المعلومات، فهدف الصحفي هو تمكين القارىء أو المستمع من رؤية الحدث وسماعه والاحساس به، فأقل حشو يضيع القارىء أويبعده عن الفكرة الأساسية ومن هنا تأتي ضرورة حذف كل كلمة زائدة أو غامضة[٢].

يؤكد الاستاذ ماكس جنتر بأن الأسلوب هو أبعد الأشياء عن امكانية التعلم، فأسلوب الكاتب هو شخصيته، وموهبته، وملكته اللغوية، ومع ذلك فـان هناك بعض النصـائح التي يمكن اسداؤها حتى يأتي أسلوب الكاتب ممتعاً يشد القارىء اليه ومنها توخي الوضوح وتجنب التكرار الممل والصـيغ المبتـذلة والكليشـهـات التي سبق ترديدها والاقـلال من الاقتباسات..

ويستطرد قائلاً: «فالكاتب يجب أن يتوجه الى جميع مستويات القراء لا الى صفوة منهم فيكيفه أسلوبه بما يتناغم مع اختلاف مشارب المثقفين، وتفاوت قدراتهم على الاستيعاب والفهم».

يرى الاستاذ الاعلامي الفرنسي فيليب غايار أن الخاصة الأساسية للكتابة الصحافية هي سلامة اللغة، ويعدد بعض ملامح هذه السلامة: الكتابة الاملائية الصحيحة، معرفة تطبيق قواعد الصرف والنحو، حسن اختيار المفردات، والتنقيط المناسب، في حين يرى كل من كور تيس ماكدوغال والفرد كرويل أن من أهم سمات الكتابة الصحفية هو: ايجاز الجملة والفقرات، الجمل المباشرة الأفعال والأسماء القوية الاستعمال الصحيحة لقواعد اللغة.

ويؤكد غايار بأن البساطة مرغوب فيها حتى في كتابة المواضيع الموجهة الى المثقفين فقط، فهؤلاء عندما يفتحون صفحات دولية

---

٢ - دليل الكتابة الصحفية، تأليف نور الدين بليبل، ص٢٧.

ARCHIVE

متخصصة ليست لديهم رغبة في بذل مجهود خاص للفهم والادراك.

أما الصحافي الأمريكي فلاش فقد اكتشف بعد مجموعة من الاختبارات والاحصاءات أن فهم جمهور القراء نصاً ما مرتبط بثلاثة أمور متعلقة بالبساطة: «تردد عدد كبير من المفردات المتداولة بكثرة في الحياة اليومية على مدار النص، الأمر الثاني: قصر هذه المفردات، الأمر الثالث: ايجاز الجمل.

ولتأمين هذه البساطة، لابد من تناسي بعض أشكال البيان والبديع المزخرفة أو المعقدة فالكتابة والاستعارة المغرقة في البعد والخيال لاتصلحان إلا في النادر من الريبورتاجات أو المقالات النقدية الفنية والأدبية[٣].

وأما السمة الثالثة فتتمثل في الدقة والتجسيد. فقد تؤدي البساطة الى الوضوح. ولكن الدقة والتجسيد ضروريان أيضاً، لأنهما يمنعان الوقوع في مزالق الثرثرة والضياع في متاهات المفردات الغيبية. تكون الدقة في اختيار الكلمة المناسبة التي تعبر عن الوضع أو الحالة النفسية أو الحقيقية تعبيراً مباشراً، والتي لاتسمح بالتداخل بين معنيين أوأكثر ولابالارتباك في اكتشاف المدلول المقصود[٤].

وتحدد السمة الرابعة في الحيوية، اذ يشترط في اللغة الاعلامية أن لاتكون جافة وباردة ولذلك مثلاً ينصح في الخبر استخدام أفعال النشاط بدل أفعال الكينونة، وبالنسبة للأنواع الصحفية الأخرى ينصح باستخدام عبارات تثير فضول القارىء لمتابعة القراءة أو الاستماع يقول فيليب غايار: «الصحافي الناجح لايقص خبر الحادث أنه يجعله مرئياً ومسموعاً».

وتتمثل السمة الخامسة في الايجاز، وذلك بالاستغناء كلما أمكن عن أدوات التعريف وحروف العطف والتوكيد وظروف الزمان والمكان التي لاداعي لها، واختصار الجمل الطويلة وتفادي التكرار والاستطراد.

٣- مدخل الى لغة الاعلام، تأليف جان جبران كرم، ص٧٤.
٤- المرجع السابق، ص ٧٥.

ويحدد السيد برنار فويان في كتابه (الصحافة في المجتمع الحديث) سمات اللغة الاعلامية في الأنسنة (humanisation)، والنزول الى مستوى العموم والسلطة ويشير الى أن اللغة الاعلامية تسيرها تلك المبادىء الثلاثة الأساسية. إن أنسنة خبر ما أو قصة ماهي دفعهما الى مستوى من التعميم بحيث يصبحان قادرين على الالتقاء باهتمام الجمهور كله، ويكون ذلك باحياء الحدث أمام القارىء وكأن القارىء هو نفسه البطل والقائم بالعمل كاملاً.. أما النزول الى مستوى العموم فهو أن يصبح مايكتب كل مايكتب مفهوماً عند القراء، جميع القراء.. أما السلطة فهي عنصر متمم للعنصرين السابقين فالصحيفة التي تلتزم بمبدأ التنازل للقراء وصولاً الى اجتذابهم وتداول المواد الاعلامية دون كبير عناء، لايمكنها أن تغفل حقها في فرض بعض المواقف الانشائية والأسلوبية والموضوعية الضرورية حتى ولو أدى ذلك الى تنفير بعض القراء وامتعاضهم..

لغة الأجناس الإعلامية

يتكون الاعلام من قوالب تحريرية، -أجناس -أو أنواع-، فرضها الواقع، ويضطلع كل نوع بوظائف محددة، والأنواع الاعلامية -أو الصحفية- هي أشكال، أو صيغ تعبيرية تعكس الواقع بشكل مباشر، وواضح وسهل، كما تفسر الوقائع، والأحداث والظواهر والتطورات، وتتضمن التقييم، والتحليل، والشرح، والتفسير.

تشتمل الأنواع الاعلامية على:

١- الخبر: ويستعمل لنقل معلومات عن أحداث جديدة.

٢- التقرير: ويستخدم لنقل معلومات من خلال عنصر ذاتي، شاهد عيان.

٣- المقال الافتتاحي: يقدم رأي الوسيلة الاعلامية حول حدث ما.

٤- التعليق: يقدم وجهة نظر محددة، ورأي واضح حول حدث ما.

٥- الريبورتاج: (الاستطلاع): يصور الحياة الانسانية.

٦- التحقيق: يشرح، ويحلل ظاهرة أو مشكلة، أو أحداث وتقديم الحلول بشأنها.

٧- الحديث الصحفي: محاورة مسؤول، أو مختص لشرح وايضاح قضية ما.

٨- العمود الصحفي: رؤية يقدمها صحفي معين لظواهر وأحداث يختارها.

٩- الصورة الاعلامية: تقدم وقائع لحياة فرد، أو جماعة، أو مناظر من الطبيعة.

هذه الأجناس تعتمد لغة اعلامية -أو أسلوباً- تختلف من جنس لآخر، ويمكننا تقسيمها من هذه الناحية، وبحذر الى أربع عائلات، اذ تتسم كل عائلة بخصائص أسلوبية متشابهة، كما تتقارب نوعاً ما في تقنيات صياغتها.

- المجموعة الأولى: تضم الخبر والتقرير
- المجموعة الثانية: الافتتاحية، التعليق، والعمود
- المجموعة الثالثة: الريبورتاج، التحقيق، والحديث الصحفي.
- المجموعة الرابعة: الصورة الاعلامية.

لغة الخبر: إن الخبر هو الجواب عن الأسئلة: من؟ ماذا؟ متى؟ أين؟ كيف؟ التي يتغير موقعها من خبر لآخر:

لقد اتفق رجال الصحافة على أن يكون شكل الخبر هو -الهرم المقلوب- بمعنى أن الصحفي يأتي بالفكرة الرئيسية، أو العنصر الأكثر أهمية أولاً، ثم يأتي بالتفاصيل ويدرج عناصر الخبر في تدرج تناقصي من ناحية أهميتها، ومن الجدير بالذكر أنه ليس لتقديمها أية صلة بمجريات الحدث الزمنية بحيث يجب وضع العنصر الأساسي أو الجوهري أولاً، وماهو هام ثانياً وماهو ثانوي أخيراً.

يجب أن تكون لغة الخبر بسيطة ، وواضحة، ودقيقة، ولايتم ذلك إلا من خلال استخدام الكلمات القصيرة المألوفة بدلاً من الكلمات

خطير وتارة يصفها بأنها حوادث عابرة وأخرى يصفها بأنها مقدمات لأزمة حادة[٧].

على كاتب التعليق أن يتذكر أنه ليس مخبراً وأنه لايعظ ولايصدر تعليمات الى القراء ومن ثمة فان الهدف هو الفهم الكامل والواضح للأخبار وماوراء الأخبار . . وعليه ألا يتوقف عند حد تقديم المعلومات المفسرة والموضحة وإنما يخلط بين الخبر وبين هذه المعلومات من جانب وبين الرأي من جانب آخر، وإلا أصبح مقاله تفسيراً وليس تعليقاً[٨].

يؤكد المعلقون المرموقون بأنه من الخطأ محاولة استعمال عدد كبير من التصريحات أو الخطب أو استعمال الحجج التي لاتساهم في توضيح القضية الأساسية بحيث يقتضي أن يوضع في البال بأن التعليق يجب أن يركز على مسألة أساسية واحدة، ويعبر عن وجهة نظر أكيدة، أو عن حجة منطقية في شكل وجيز، وهذا يسمح للمعلق أن يؤدي المهمات التي تعتبر عملياً مستحيلة في ميادين أخرى كالأدب على سبيل المثال[٩].

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

تبين التجربة بأن المعلق بوسائل الاعلام المتطورة لايمتلك إلا سطوراً قليلة يقدم عبرها تعليقاً واضحاً ومختصراً ومن المعلوم كذلك. بأن الاكثار من الكلمات الغريبة، أو التعابير الفنية الصعبة. . يجعل التعليق غير سليم، ويجرده من رونقه، وجدته، وأحياناً من التعبير الصحيح. وكما يقال، فإن التعليق الذي لايقرأ هو تعليق غير موجود، وبأن اللغة التي تفتقر الى الدقة، أو السلاسة، والى الحجة الدقيقة والمنطقية التي تعوض بكلام يستمد من هنا وهناك عشوائياً تجعل التعليق يحيد عن الهدف الذي أعد من أجله، ويخلق بذلك لدى القارىء نوعاً من الاضطراب الفكري، وسوء الفهم.

٧- المدخل في فن التحرير الصحفي، تأليف د. عبد اللطيف حمزة ص: ١٣٧.
٨- دليل الكتابة الصحفية، تأليف نور الدين بليبل ص: ٥٦.
٩- المرجع السابق، ص: ٥٨.

لغة العمود- المقال*- : يقول الدكتور عبد اللطيف حمزة: «إنه من ناحية جمال الأسلوب، فإن العمود الصحفي أشبه بالمقال الأدبي لا الصحفي من حيث العناية باختيار الألفاظ، والاحتفاظ بحلاوة الأساليب، وفيه مجال كبير لبيان النبوغ الأدبي، أو القدرة البيانية التي يمتاز بها المحرر الصحفي».

ويضيف أيضاً «إن العمود الصحفي يهتم أكثر مايهتم بكل مايمس مشاعر القراء وعواطفهم. . لذلك لابد أن يتوفر فيه شيء من جمال الأسلوب الذي يتميز به الأسلوب الأدبي. . فلايعيب العمود الصحفي أن يعتني كاتبه بألفاظه وأن يختار أوقعها على العين وأقربها الى القلب. . وذلك عن طريق استخدام بعض الصور البيانية والموسيقى اللفظية أو الأخيلة الأدبية. . ولكن بشرط ألا يغرق كاتب العمود. بحيث يفقد العمود صفته الصحفية ويصبح أدباً خالصاً. . فهنا يتخطى العمود الصحفي لغة الصحافة التي تتلاءم وطبيعة القراء جميعاً. . الى لغة الأدب التي هي لغة نسبة ضئيلة من القراء. . وفنون الصحافة لم توجد لمخاطبة فئة محدودة من القراء وإنما وجدت لتخاطب القراء جميعاً مهما اختلفت مستوياتهم الثقافية».

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لغة الريبورتاج (الاستطلاع)[١٠]: لقد اقترن تاريخ ظهور الريبورتاج بنصوص الكتاب الذين وصفوا الطبيعة المحيطة بهم، والناس

* يوجد من يستخدم مصطلح العمود على أساس أنه المقال، وفي هذا الشأن يقول الدكتور عبد اللطيف حمزة في كتابه (المدخل في فن التحرير الصحفي) أنه ليس هناك فرق بين المقال والعمود من حيث الموضوع، أما الدكتور فاروق أبو زيد فيقول في كتابه (فن الكتابة الصحفية): العمود الصحفي هو مساحة محدودة من الصحيفة لاتزيد عن -نهر- أو -عمود- تضعه الصحيفة تحت تصرف أحد كبار الكتاب، في حين نجد من يطلق على هذا النوع من الكتابات المقال المسلسل Feuilleton والذي يعرفه القاموس الفرنسي لاروس: بأنه عمل رومانسي يقدم في عدة حلقات بالجريدة، مقال نقدي. . مقال علمي وغيرهما.

10- Carl STARKAN: le reportage:revue le journalste Dèmocratique N 5/83 p22.

الذين كانوا يقاسمونهم الحياة ويمكن ادراج الرحالين ضمن هذا الصنف لكونهم قد طافوا عبر عدد من البلدان، والأماكن ورجعوا بوصف لما رأوه، ومالبسوا من أثواب وذاقوا من الأطعمة.

إن دخول رجال الأدب في ميدان الريبورتاج، قد مارس بعد الحرب العالمية الأولى تأثيراً كبيراً على الطابع الفني للريبورتاج، حيث لم يعد هذا النوع الصحفي مجرد وصف سطحي بسيط، بل لقد تطور في شكل أدبي، وحوار وقصة بكيفية تهم الانسان.

من خصائص الريبورتاج المشاهدة والاستماع والاحساس والشعور بما يشاهده الصحفي ويسمعه ويحس به بنفسه، ويختار هذا النوع عندما يكون للخبز طابع المشهد الحي المتعدد المظاهر.

وهكذا فإن نقل المشاهدة والاستماع والاحساس، كلها عمليات تتطلب من الصحفي بأن يكون مزوداً بلغة ثرة بالمعاني الضرورية لرصد هذه الاحساسات الثلاثة، واذا عجزت لغة الصحفي عن وصف حاسة من الحواس، فإنَّ نقله للواقع الحي سيكون مبتوراً ومختلاً، وفي هذا الصدد، فإن تجربة الصحفي الحياتية ومؤهلاته وخبرته المهنية تلعب دوراً مهماً في توظيف اللغة التي تعكس بصدق موضوع الاستطلاع.

توجد أنواع كثيرة للريبورتاج يتميز كل نوع منها بخصائص معينة. فالمرء مثلاً لايكتب بنفس الطريقة ريبورتاجاً عن وقائع ثورة أو عن حادث اصطدام، أو مباراة رياضية، أو رحلة أو انتخابات.

إن المهمة الأولى لكاتب الريبورتاج هو مشاهدته لما يجري حوله من أحداث ومايقال من كلام، ثم يسجل انطباعاته حول كل هذه الأشياء. وعمله الأصلي يتمثل وقتئذ في: النظر - السمع - الفهم - التسجيل - القرار[١١].

وبما أن الصحفي هو ممثل القراء والمستمعين والمشاهدين الغائبين لهذا يجب عليه أن يكون أداة ادراك وحس وخاصة أداة حساسة ونشيطة

١١- تقنية الصحافة، تأليف فيليب غايار، ص٧٣.

ومنتبهة لكي يتركهم يعيشون الحدث كما وقع (. . .) اذا لم يشعر القارىء أو المستمع بالمكان، وبالأحداث والناس، أي بالبعد الدرامي الانساني الذي يتضمنه كل حدث يفقد الريبورتاج الصيغة الانسانية ويكون جافاً ميتاً يشتم من خلاله رائحة التقرير الاداري[١٢].

اذن فان لغة الريبورتاج يجب أن تكون تنبض بالحيوية والنشاط، أي تجعل الواقع من خلال القراءة، أو الاستماع أو المشاهدة يتحرك من جديد كأنه يعاد تمثيله[١٣].

لغة التحقيق: التحقيق الصحفي يحتوي على عناصر الخبر، والتعليق والمقال والحديث الصحفي، والتقرير، والريبورتاج، والدراسة. لكنه يستوعب هذه العناصر كافة ويهضمها ويتمثلها ليشكل لنفسه بذلك طابعاً مميزاً بخاصيته، وشخصيته المستقلة.

إن الأسلوب المستخدم في صياغة التحقيق يؤدي الى نجاح، أو فشل التحقيق، كما أن عملية الكتابة ليست قضية شكلية لاأهمية لها، وذلك لأن صياغة التحقيق هي عبارة عن عملية بناء متكامل يشمل اللغة التي تحمل دلالات ورموزاً يعلم القارىء من خلالها بالمشكلة، أو الظاهرة، ويشمل أيضاً تسلسل تقديم وجهات النظرة المختلفة، كما يحتوي على الترتيب المنطقي للحجج والأدلة[١٤].

يضع بعض أساتذة الصحافة خمسة أساليب أساسية لصياغة التحقيق الصحفي:

١ - أسلوب العرض: يتميز هذا الأسلوب بالبساطة والجاذبية ويستخدم في غالب الأحيان عندما يكون التحقيق متضمناً لكمية هائلة من المعلومات والمواقف.

12- Carel Starkam /des genres journalstiques: le reportage, le journaliste democratique n5/ 83 p22.

١٣ - رضا النجار مقومات الريبورتاج الصحفي والاذاعي - مجلة الدراسات الاعلامية العدد ٢٨ يناير ١٩٨٢.

١٤ - دليل الكتابة الصحفية، تأليف نور الدين بليبل، ص: ٨٧.

٢- الأسلوب القصصي: يتميز هذا الأسلوب بالاثارة، والحيوية، والرشاقة، وغالباً ما يستخدم في التحقيقات التي تدور حول قضايا، وظواهر تغطي فترة زمنية طويلة، أو تشمل مناطق عديدة، أو تتعلق بأطراف مختلفة.

٣- الأسلوب الوصفي: يتميز هذا الأسلوب بوجود قدر معين من الوصف المباشر للمكان أو للأشخاص، ويستخدم هذا الأسلوب عادة في التحقيقات التي تهدف في المقام الأول الى تعريف القارىء بأمر ما، أو منطقة ما أو فئة اجتماعية معينة، وهو أسلوب شائع جداً وخاصة في المجلات.

٤- أسلوب الحديث: وهو يعتمد أساساً على آراء شخصية واحدة أو عدة شخصيات بحيث تكون هذه الآراء هي الهيكل، والعمود الفقري للتحقيق، وأثناء عرض هذا الحديث، أو هذه الآراء يقوم الصحفي بتقديم معلومات ووقائع.

٥- الأسلوب المختلط: وهو أسلوب عام لايتقيد بنمط معين بل يأخذ من الأساليب السالفة الذكر وفق ماتقتضيه الضرورة وطبيعة التحقيق ذاته، وهذا النوع من الأساليب يتطلب مهارة لخلق بنية متماسكة للتحقيق الصحفي.

لغة الحديث الصحفي: يقول أستاذ الاعلام كارل ستوركان من تشيكوسلوفاكية سابقاً: يعتقد البعض عن جهل وعدم دراية بأنه ليس هناك أسهل من طرح الأسئلة على شخص وتدوين ردوده، لكنه في الحقيقة فالأمر أعقد من ذلك، وليس كما يبدو لأول وهلة.

من الناحية التاريخية، عرف الحديث الصحفي تحولات عديدة فقد انتقل من مجرد خبر بسيط ليصبح بمثابة دراسة طرق التفكير الانساني، وكشف خفايا الأفراد وأفكارهم ومعتقداتهم، كما أضحى منهج بحث هام.

من المعلوم أن الكيفية الحية للانتقال من النقل البسيط للخبر الى التطرق للجو العام الذي يجري فيه الحديث والى عناصره والتركيز على

الحياة الداخلية للانسان، كل هذه الصفات تظهر جلية على لغة أصحاب الأحاديث المرموقين.

ومن الواضح أن كيفية طرح الأسئلة تؤثر بشكل كبير على مضمون، وعلى لغة الحديث الصحفي، وهكذا فان الصحفي الذي يطرح أسئلة سهلة تؤدي الى الأجوبة بنعم أو بلا وبرقم أو بنسبة، لايمكنه أن يتوقع إلا أجوبة بسيطة. أي من نوع الأسئلة؟[١٥].

لغة الصورة: الصور الاعلامية تلعب دوراً هاماً في بلورة الحدث، واعطائه أبعاده الحقيقية، ولاتخلو معظم الصحف والمجلات من الصور الحية المعبرة عن الأحداث.

والصورة بامكانها التنقل عبر العالم بدون أن تكون في حاجة الى مترجم، وبذلك فهي ذاتها لغة عالمية تفهمها كل الشعوب.

غالباً ماتكون الصورة أهم بل أنجح وسيلة اعلامية في الجريدة بأكملها، فبوسعها أن تعطي المضمون، أو الهدف الاخباري بسرعة أكثر وبوضع أفضل من التعبير اللفظي وتستطيع الصورة أن تظهر في كثير من الأحوال لحظة خاصة من وقائع الأنباء بشكل بياني مرئي ومفصل ومستفيض[١٦].

http://archive.org/details/@sakhrit.com

لقد ذهب أحد خبراء التصوير في تقديره لأهمية الصورة الى حد القول بأن الصورة تقوم مقام ألف كلمة، كما لخص الحكيم الصيني كونفو شيوس أهمية الصورة عندما قال: «إن ألف كلمة لايمكن أن تتحدث ببلاغة كما تتحدث صورة واحدة.

وعبر عن هذه الفكرة السيد، واي مالك، رئيس تحرير جريدة دي موان عام ١٩٨٨، قائلاً: افترض أنك تملك طاقماً عظيماً من الكتاب مثل توماس مان، أرنست همنجواي كل ما سيصفونه لك في حدث ما، أن يعطوك صورة عنه، ولكن هذه الصورة لن تكون أمينة مثل الصورة التي التقطتها آلة التصوير.

١٥- دليل الكتابة الصحفية، تأليف نور الدين بليبل ص: ١١١

١٦- الصورة الفوتوغرافية في مجالات الاعلام، تأليف محمود علم الدين، ص: ٣٣.

يعرف بعض الباحثين- السينما- على أنها «فن الصور المتحركة» وفي ردهم عن السؤال الآتي: هل في الامكان عند الحديث عن الفيلم أن نتكلم عن -لغة- ما.

أجاب على هذا السؤال باحثون عديدون بالايجاب، لكن بصيغ متنوعة: فعند جان كوكتو «الفيلم هو كتابة بالصور».

في حين يعتبر الكسندر أرنو أن السينما لغة صور لها مفرداتها وبديعها وبيانها وقواعد نحوها، ويرى جان ابشتين في اللغة السينمائية - اللغة العالمية-.

ويقول مارسيل مارتن: «.. إن اللغة الفيلمية، المبنية على «الصورة- الفكرة» هي أقل غموضاً من اللغة المنطوقة وأنها تذكرنا بدقتها- باللغة الحسابية».

تكون الصورة المادة الأساسية للغة السينمائية، فهي المادة الخام الفيلمية، وإن كانت مع ذلك حقيقة معقدة للغاية ذلك أن تكوينها يتميز بتراكيب عميقة قادرة على نقل الواقع الذي يعرض عليها نقلاً دقيقاً، لكن ذلك النشاط موجه من الناحية الجمالية في الاتجاه المحدد الذي يريده المخرج والصورة التي نحصل عليها بهذه الطريقة تدخل في علاقة جدلية مع الجمهور الذي تقدم له، وأثرها السيكولوجي عليه.. يحدده عدد من الخصائص ينبغي تحديدها بدقة اذا أردنا تكوين فكرة دقيقة عن أهمية الفيلم في الحياة الاجتماعية(١٧).

وأن الصورة الفيلمية رغم دقتها، فهي بالغة الليونة وقابلة لمختلف التفسيرات، ومع ذلك فانا نخطىء اذا دفعتنا هذه الحالة الى الوقوع في تعميم لامبرر له، فإنه من الممكن أن نتجنب كل خطأ في التفسير، وذلك بالاتجاه الى نقد الوثيقة الفيلمية نقداً داخلياً وخارجياً: فالنقد الداخلي يكون بالنظر الى الفيلم بوصفه «كلا» ذا معنى لايسعه مطلقاً أن يكون كله

١٧- اللغة السينمائية، تأليف مارسيل مارتن ص: ١٣.

غامضاً، والنقد الخارجي قائم على أن شخصية المخرج ومفهوماتها عن العالم . . يمكنهما أن يوضحا معنى رسالته تقريباً[١٨] .

أثر الوسائل في لغة الاعلام

اذا كانت اللغة تختلف كما شاهدنا سابقاً من نوع اعلامي الى اخر، فانها تعرف اختلافات جديدة كلما انتقلنا من وسيلة اعلامية الى أخرى، وتجد هذه الاختلافات تفسيراتها في طبيعة وخصائص كل وسيلة، فاذا كانت للصحيفة صلة بالبصر فان للاذاعة صلة بالسمع، في حين للتلفزيون صلة بالسمع والبصر معاً .

اذا كان مالكوهان محقاً في كثير مما قاله حول لزوم التوافق بين طبيعة المرسلة الاعلامية، والوسيلة الاعلامية، فهذا لايعني انكار وجود قواسم مشتركة في طبائع المرسلات الاعلامية، مقروءة كانت أم مسموعة أم مرئية .

ARCHIVE

ان لغة الصحافة وفنونها هي أساس لكل انشاء وفن اعلامي آخر، والصورة شريكة للكلمة في أكثر الوسائل، وإن تنوعت بين ثابتة «الصحافة» ومتحركة وناطقة «سينما وتلفزيون» ومتلقي الرسالة جمهور واسع وإن اختلفت الى حد ما نوعيته[١٩] .

لغة الصحافة المكتوبة: من الناحية التاريخية، فان لغة الصحافة المكتوبة هي أسبق الى الوجود من لغة الاذاعة والتلفزيون، وقد تطورت أشكال الكتابة في الصحافة المقروءة خلال الفترة الفاصلة بين الطباعة وظهور الاذاعة والتلفزيون تطوراً ملحوظاً، حتى أخذت تلك الأشكال وضعها الحالي .

يقول الاستاذ فيليب غايار : «إن هدف الأسلوب الصحفي هو اطلاع القسم الأكبر من الجمهور على أحداث وأشياء وافهامه اياها بسهولة . . إن المادة الصحفية يجب أن يفهمها الجميع بمن فيهم البعيدون عن مجرى

١٨- نفس المرجع : ص : ٢٥ .

١٩- مدخل الى لغة الاعلام، تأليف جان جبران كرم ص : ١٣٥ .

الأحداث، ولهذا يلجأ الصحفي الى وسائل بسيطة تهدف الى تسهيل القراءة، وتسمح للقارىء المستعجل بأن يدرك ماهو منشور من النظرة الأولى، والهدف الثاني هو تبسيط الخبر الوامض الذي يستوجب النشر قبل اقبال الطبعة دون أن تكون هناك فرصة لاتمام جميع عناصره».

ويضيف قائلاً: «. . . وفي جميع الحالات يجب أن يتيح للقارىء فرصة الاطلاع على محتوى الموضوع ابتداء من قراءة الأسطر الأولى، فاذا كان القارىء مهتماً بالموضوع، يستطيع متابعة القراءة، واذا كان بعيداً عن جوه نكون قد أطلعناه على مايضعه في الجو».

وقد أصبحت القاعدة الصحفية أن تتم كتابة معظم القصص الاخبارية بوضع أهم الحقائق في بدايتها، قد تخرج بعض القصص الاخبارية عن هذه القاعدة وتجنح الى استخدام عنصر التشويق بأن تدَّخر الشيء الأكثر أهمية حتى النهاية أو أنه قد تستخدم أسلوب الترتيب الزمني للأحداث، ومع ذلك فإن مثل هذه القصص الاخبارية، إما أن تكون تحقيقاً خاصاً، أو قصصاً ذات اهتمام انساني.

ARCHIVE http://archivebeta.sakhrit.com

يقول السيد: وارين. ك. الجي: استاذ الصحافة بجامعة جورجيا الأمريكية: «إن أفضل كتابة صحفية هي الكتابة البسيطة المباشرة. وتطبيق المبدأ المأثور في الصحافة الحديثة وهو «الالتزام بالكتابة الواضحة الشيقة».

كما يؤكد ضرورة حذف الكلمات والعبارات غير الجوهرية. . . وأن تكون معظم الجمل قصيرة، ومع ذلك وطلباً للتنويع واختلاف الايقاع وربما للضرورة أيضاً، فان الجمل قد تكون أطول وأكثر تعقيداً».

ويهدف أسلوب التحرير الصحفي الى تسهيل الفهم على القارىء ويهدف أيضاً الى جذب جمهور الصحف وتحويله الى شاهد مباشر للحدث، فالاعلام بشكل عام، والريبورتاج بشكل خاص، يهدف الى إشراك الجمهور في الحدث، ولكن لايوجد أسلوب واحد ومطلق و«روتيني» رتيب[٢٠]

ويعتقد بعض الصحفيين أن الكتابة السهلة هي كتابة تتسم بالغباء، ولكنك سوف تكتشف أن الكتابة بأسلوب سهل مبسط، أصعب بكثير من

الكتابة المعقدة والكتابة بطريقة سهلة واضحة ومقروءة في نفس الوقت هي اختبار لقدراتك ومهاراتك الى أقصى الحدود [٢١].

إن الأشخاص حديثي التعلم أو الذين نالوا قسطاً ضئيلاً من التعليم يريدون أن يقرأوا قصصاً اخبارية بسيطةمزودة بعدد كبير من الصور، ولكن الافتراض القائل بأن المتعلمين سيفهمون أو يقرأون دائماً القصص المعقدة هو افتراض خاطىء في كثير من الأحيان، فالناس في أغلب الأحيان يقرأون الصحف ليشعروا بالاسترخاء وهم لايريدون ارهاق أنفسهم في محاولة فهم معنى مايقال اذا كانوا من الذين نالوا قسطاً وافراً من التعليم [٢٢].

تعتمد وكالات الأنباء في صياغة برقياتها صيغاً متفقاً عليها عالمياً، وذلك من أجل تمكين حسن استغلال تلك البرقيات على نطاق واسع وبدون معوقات.

ويتطلب من خبر - برقية - وكالة الأنباء أن يكون بسيطاً وواضحاً وسليم اللغة وأن توفر فيه الشروط التالية: الدقة، السرعة، الأهمية، الايجاز.

http://Archivebeta.Sakhrit.com

إن اللغة الصحفية تأخذ الكثير من سماتها من طبيعة المجتمع ذاته وهكذا فإن الطريقة التي نتحدث بها عن الأشياء تختلف من ثقافة الى أخرى. وعلى سبيل المثال فإن البعض في أمريكا اللاتينية يميلون فيما يبدو الى اللغة المبالغ في زخرفتها في القصص الاخبارية، وهم على استعداد لقراءة مايكتبه الصحفي أو الكاتب لأسباب أسلوبية، بل إن بعض الكتاب في أمريكا اللاتينية يشعرون أن استخدام نفس الكلمة مرتين في حالة وجود مرادف لها يمثل جريمة ضد الأسلوب» [٢٣].

اللغة الاذاعية: تتميز لغة الاذاعة بالوضوح، والاقتصاد، والسلاسة، حتى يمكن أن تصل الى الجمهور من المستمعين، في وضوح

٢٠- تقنية الصحافة، تأليف فيليب غايار، ص: ٩٨.
٢١- تقنية الصحافة، تأليف فيليب غايار ص: ٩٨.
٢٢- دليل الصحفي في العالم الثالث، تأليف مجموعة باحثين ص: ٩٢.

يساعد على الفهم والمشاركة في تتبع المضمون، ومن جهة أخرى كان على هذه اللغة المذاعة أن تراعي أن من أصول الالقاء الاذاعي . . تقدير القيمة الصوتية للألفاظ والتدقيق في استخدامها، وفي معرفة وقعها الحقيقي على الآذان، وفي ذلك كله مايتجه بهذه اللغة المذاعة الى الاقتصاد في عدد الألفاظ، والاقتصار على القدر المطلوب لتحقيق الفهم والمشاركة[٢٤].

يتمثل الأسلوب الاذاعي ، بالمقارنة مع البلاغة المكتوبة، في شخصية الاذاعي، في بنية جملته، واختيار ألفاظه، في نبرات صوته في القائه وخفة النكتة والبشاشة التي تصدر من كلمته وابتسامته (عبر الميكروفون)[٢٥].

يتفق أهل المهنة والخبراء على أربع صفات يجب أن تتوفر في الأسلوب الاذاعي وهي: الاختصار، سلامة اللغة، الوضوح، الحرارة أو اللون.

إن المادة المذاعة . . يجب أن تكون الشغل الشاغل لأولئك الذين يضطلعون بمهمة إعداد نصوص الأخبار الاذاعية، ذلك لأنه انطلاقاً من مقولة «أن لكل حادث حديث» فان لكل مناسبة الكلمات التي تليق بها، ويجب أن يكون اختيار الكلمة مقصوداً، ومتعمداً وقائماً على دراسة دقيقة لفقه اللغة، والاطار الدلالي للكلمات ومدى ما تنطوي عليه من شحنات عاطفية، أو منطقية ومدى ماتحدثه من تأثير واستجابة، وهذا مايسميه اللغويون (المسرح اللغوي) .

يقول الاستاذ بيتر ويليت، أحد رواد الأخبار الاذاعية في الولايات المتحدة الأمريكية: «إنّ المستمع يستنجد بخياله الخاص لتصوير المنظر، والمخبر الاذاعي الممتاز هو الذي يستطيع أن يصور المنظر بنفس الدقة والاتقان اللتين يلتزمهما المصور فعلى المخبر الاذاعي أن يرسم بالكلمات صوراً حية».

٢٣- المرجع السابق ص: ٩٣

٢٤- المدخل الى وسائل الاعلام، تأليف عبد العزيز شرف، ص: ٤١٧ .

٢٥- رضا النجار «مقومات الريبورتاج الصحفي والاذاعي» م. الدراسات الاعلامية، عدد ٢٨

ويسعى كتاب بارعون في محطات الاذاعة والتلفزيون في الولايات المتحدة الأمريكية مثل جون تشانسلور في محطة -إنْ. بي. سي- وولتر كرونكايت في محطة سي. بي. اس- وهاري ريزونر في محطة - ايه. بي. سي- بصفة مستمرة الى تنقيح وصقل المادة الاخبارية التي يكتبونها، ولقد وصف البعض ادوين نيومان؟ بمحطة -ان. بي. سي- بأنه كاتب ذو أسلوب عالي الاحساس حي الضمير «فهو ينكب على النصوص المكتوبة لحذف العبارات المبتذلة المستهلكة والكلمات الزائدة (الحشو) بهدف الوصول الى أسلوب مصقول (سلس).

يقول الأمريكيان صاحبا كتاب (L'information radio tèlèviseè) هناك حدود حتمية لما يقوله صحافيو الراديو والتلفزيون، وأن غالبية هذه الحدودمفروضة ليس بالقانون، ولكن بالوقت وبقدرة اجتذاب الجمهور.

وتحديدات الوقت تفرض على الأخبار المذاعة والتلفزة قيدين هامين، أولا أن صحافيي الصحافة المنطوقة مجبرون على اختصار أخبارهم، بحيث لايمكنهم التطرق الى كل مواضيع الأحداث التي تتناولها الصحافة المكتوبة، ثم إن تحقيقاتهم لاتتضمن كثيراً من التفاصيل، كما هو الشأن على صعيد الجرائد، ويتمثل القيد الثاني في صعوبة الوصول الى أحسن نتيجة من خلال حصر وضغط الكتابة، ومن هنا فإن الجمهور لايمكنه الحصول على أكبر قدر من المعلومات انطلاقاً من الريبورتاج الاذاعي أو التلفزيون، أي من خلال ريبورتاج مكتوب بطول قصير جداً».

وتكون المادة الاعلامية الاذاعية عموماً من عدة عناصر وهي: الكلمة المنطوقة والمؤثرات الصوتية والموسيقى والحضور الانساني المباشر، ويشترط في اللغة المنطوقة أن تتسم بالشمول، والسرعة والمباشرة والعادية، والواقعية، وأن تستخدم أقل عدد ممكن من الألفاظ للتعبير عن أكبر عدد ممكن من الأشياء في وضوح وبساطة وايجاز وتأثير.. أما المؤثرات الصوتية فتساهم في اعطاء صورة كاملة للحدث دون تدخل المعلق، فالميكروفون باستطاعته أن يقدم صورة صوتية للحدث يبقى فيها

المراسل، أو المعلق في الخلف ويدفع الحقائق الصوتية لرياح عاتية، وأصوات تتحدث بنفسها عن نفسها مثل الصورة الصوتية لرياح عاتية، وأصوات الحرائق، ودوي المدافع، وتصفيقات الجماهير[٢٦].

وينصح الاستاذ فيرنون استاذ الصحافة بجامعة ميسوري الأمريكية صحافيي الاذاعة الذين يستخدمون برقيات وكالات الأنباء أو تقارير الصحف قائلاً: «لاتنقل كالببغاء أية قصة اخبارية من برقيات وكالات الأنباء أو الصحف، ولكن اقرأ الموضوع بطريقتك الخاصة وقصها بكلماتك أنت دون أن تستخدم النسخة -المصدر- إلا كمادة خام فحسب، ولعل كثيراً مما يدعى (نسخاً أعيد تحريرها) ليس في الواقع أكثر من مقتطفات (أعيد نسخها).

ويمكن تلخيص أفكار فيرنون فيما يتعلق بلغة الاذاعة في النقاط التالية:

- لاتضع في مقدمة الخبر أسماء غير مألوفة.. اذ أنها سرعان ماتسقط من ذاكرة المستمع، ولكن مهد للمستمع لتقبل هذه الأسماء بتقديمها مع معلومات تعريفية، أي تعرف المستمع بصاحبها.

- تجنب أن تبدأ المقدمة باقتباسات أو أسئلة، فالاقتباس المباشر قد يجعل المستمع يتساءل للحظة أو لاثنين حول ما اذا كانت هذه الكلمات هي كلمات المذيع أو كلمات شخص آخر، كما أن المقدمة التي تبدأ بسؤال تبدو أشبه باعلان تجاري عن الصابون أو عرض للألقاب.

- ينبغي أن تجذب المقدمة الاهتمام الى العنصر الرئيسي في القصة الخبرية ولاينبغي أن تحشوها بحقائق عديدة ولاتحاول حشد العناصر الخمسة وهي (من، أين، متى، لماذا، كيف؟) في المقدمة، لأنك بذلك تفقد اذن المستمع عن طريق تحميله ما لايطيق.

- ينبغي تفادي الشكل الصحفي في ذكر أعمار الأشخاص بصفة

٢٦- المدخل الى لغة الاعلام، تأليف جان جبران كرم، ص: ١١٨.

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

عامة مثل -جون جونز ٣٠- أما التناول القياسي للاذاعة بالنسبة لذكر أعمار الأشخاص فيجب أن يكون كالتالي:

جون جونز البالغ من العمر ٣٠ عاماً.

- لاتسرف في استخدام الاقتباسات، وإن كان استخدام الاقتباسات غير المباشرة أو المشروحة مفضلاً في أغلب الأحيان.

- استخدم الزمن المضارع عندما تتحدث عن تقارير اللجان وميزانياتها الخ . . لأن مثل هذه الوثائق تشبه الأدب في أنها موجودة كي تكون تاريخاً مسجلاً.

- تجنب الكلمات الصعبة والمعقدة متى وجدت لديك كلمات بسيطة فلماذا تقول مليون دولار «على وجه التقريب» بدلاً من «حوالي» مليون دولار.

- تجنب القوالب اللغوية والصيغ المبتذلة والتعبيرات التي تلوكها الألسن باستمرار، وذلك أن القوالب اللغوية مثل الهيبيز والصقور والحمائم ليست إلا تبسيطات زائدة عن الحد وغالباً ما تضر بدلاً من أن تخدم نوعيات متعددة من الأفراد في العالم الواقعي المُعاش.

لغة التلفزيون: تتسم لغة التلفزيون هي الأخرى بخصائص معينة لكنها في ذات الوقت تجمعها بلغة الاذاعة أوجه شبه عديدة، كما تعتمد بعض الصياغات المستخدمة في الصحافة المكتوبة.

وتجدر الإشارة أن الصورة الفيلمية هي العنصر الأساسي في تكوين مضمون المادة الاعلامية في التلفزيون، وتقول دراسة قام بها المركز الوطني للبحوث العلمية بباريس «أن الصورة الفيلمية في السينما تعطي المشاهد احساساً بالاندماج في المعروض».

والصور الفيلمية من حيث المبدأ، نقل حقيقي وكامل للواقع لأن الكاميرا تلتقط الصورة شخصاً كان أم طبيعة، أم مشهداً جامعاً كما هي أمامها، ولكن هذا الواقع يتدخل في عملية نقله عناصر فنية وتقنية مساعدة كالضوء واللون وزوايا التصوير وغيرها ... وما يميز الصورة الفيلمية أيضاً

أن فيها الحركة التي تفتقدها المرسلة الإعلامية الإذاعية والصورة في الصحافة المقروءة وهذه الحركة هي التي تؤمن الإحياء الكامل [٢٧].

إن للكلام في الصورة الفيلمية مهمة التوضيح وإتمام المعاني وبخاصة في الأفلام الاخبارية الوثائقية، أو التربوية أو التاريخية، وفي مجمل الأفلام الأخرى الموجهة إلى طبقة معينة من الناس تتمتع بقدرة متوسطة على الاستيعاب والادراك والتفسير. ان تصوير إعصار ضرب إحدى الولايات المتحدة الأمريكية لا يعطي محصلته الأخبارية. إذا لم يُشر فيه إلى المكان والزمان ومقدارا لخسائر المادية وعدد الضحايا ومسار الريح ونتائجها المرتقبة ... الخ [٢٨].

وفيما يتعلق بلغة أخبار التلفزيون فهي مزيج مركب تجمع بين الصوت والصورة، لكن هناك من الأفلام ما يكتب باعتباره تعليقاً على الفيلم المصور، هناك أخبار أخرى لا ترتبط دائماً بفيلم إخباري.

وفي هذا النوع الأخير من الأخبار يجب على لغة الخبر أن تلتزم بالقواعد التالية:

http://Archivebeta.Sakhrit.com

١- استخدام الجمل القصيرة.

٢- عدم استخدام الجمل الاستعراضية، والاستطرادات، أو الاستثناءات.

٣- ليس من الضروري ذكر الأسماء الكاملة للشخصيات التي ترد في الأخبار، ويفضل الاكتفاء باللقب الأكثر شهرة من الاسم.

٤- ليس من الضروري ذكر المناصب، والوظائف التفصيلية للشخصيات التي ترد في الأخبارفيقال مثلاً: الرئيس الأمريكي، بدلاً من رئيس الولايات المتحدة.

٥- يفضل ذكر الاعداد الكلية والتغاضي عن كسور الاعداد.

---

(٢٧) مدخل إلى لغة الاعلام. تأليف جان جبران كرم ص: 128.

(٢٨) نفس المرجع السابق ص: 130.

٦- يفضل عدم ذكر الأرقام الدالة على التاريخ فبدلاً من أن نقول 21جانفي يقال اليوم أو غداً، ما لم يكن ذكر التاريخ بالأرقام ضروري للخبر .

وبخصوص كتابة استهلال أو مدخل الأخبار السمعية البصرية يشير الباحثان : دانيال وويليام بأن للمدخل وظيفة إشعارية للتنبيه للاستماع، وهو في جميع الحالات لا يكون نفسه في الصحافة المكتوبة الذي يجيب على الأسئلة التالية : (من ؟ ماذا؟ لماذا ؟ أين ؟ متى ؟ كيف ؟). حيث يمكن الاجابة في الخبر التلفزيوني على سؤال أو اثنين من الأسئلة التقليدية، ولكن ليس على جميعها، فالمدخل لا يجب أن يتضمن إلا القليل من العناصر الهامة فعليه أن يضعها في نهاية الجملة، وهنا يجب الانطلاق من مبدأ أن الجمهور لا يعير أي اهتمام للكلمات الأولى الواردة بالمدخل إذا كانت هذه الكلمات لا تحمل أي معلومة هامة .

أما شأن كتابة الأرقام فينصحان بضرورة التبسيط الدائم للحسابات للمستمعين ويقولان مثلاً : لماذا نكتب 67 بالمائة في حين يمكننا وضع بدلها (ثلثين، أو اثنين على ثلاثة) كما لا يمكن للمستمع تذكر الميزانية إذا كتبناها هكذا 6 ملايين و215 ألف و827 دولار ،48 سنتيما . إذن يجب كتابة بدلها «أكثر من 6 ملايين دولار » .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

* * *

الشعرية والمقارنة والمنهج العلمي

د. خليل الموسى

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وضع سليمان البستاني[١] المقدمة النقدية الهامة التي صدّر بها ترجمة الإلياذة[٢]، وتكلّم فيها على أربعة موضوعات وخاتمة، هي:

* د. خليل الموسى: باحث من سورية، دكتوراه في الأدب العربي، مدرس في قسم اللغة العربية بجامعة دمشق، آخر مؤلفاته: «المدرستان الاحيائية والتجديدية في الشعر السعودي».

١- نسب هوميروس وحياته وأعماله.

٢- الإلياذة: موضوعها ونظمها وكتّابها وخلودها وإغفال العرب عن ترجمتها.

٣- تعريب الإلياذة ومنهج البستاني في التعريب، والأوزان والضروب التي نظمت عليها.

٤- الإلياذة والشعر العربي: الحديث عن الشعر العربي واللغة العربية وعلوم الأدب ومقارنتها بالإلياذة.

٥- الخاتمة: اللغة العربية واللغة اليونانية.

سنتوقف، بناء على ما سبق، عند الشعرية والمقارنة والمنهج العلمي في هذه المقدمة التي تقع في مئتي صفحة.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

- ١ -

١-١-الشعرية (POÉTICITÉ)

علم موضوعه الشعر، أو هي «كل نظرية متصلة بالأدب»[٣]، أو هي «نظام نظري»[٤]، وإذا كانت الشعرية علماً فإنها تستقي قوانينها من الأعمال الغنية الخالدة كما فعل أرسطو في «فنّ الشعر» أكثر مما تستقي قوانينها من الأعمال العادية، «ويكون موضوع الشعرية مفضّلاً بالأعمال المضمرة أكثر منها في الأعمال الواقعية»[٥].

ولكن مصطلح الشعرية نسبي، وهو ذو عمر طويل بالقياس إلى غيره من المصطلحات، ولذلك فإنّ دلالته متغيّرة بين عصر وآخر، وأمة وأخرى، ويستدعي هذا التغيير أحياناً أن تكون دلالاته على طرفي نقيض، فالشعرية قواعد تستنبط من الشعر نفسه، ومفهوم الشعر متبدّل في موضوعاته

وحجمه وشكله عند الأمم بتغيّر الظروف والمعطيات، فالشعرية عند أرسطو - مثلاً - محاكاة، وهو يحاكي أفعال الناس، وقد تكون هذه الأفعال نبيلة، لتكون التراجيديا والملحمة، وقد تكون خسيسة، لتكون الكوميديا، ولذلك اقتصرت الشعرية في «فنّ الشعر» على هذه الأجناس الشعرية الثلاثة التي يمكننا أن نصنّفها بـ«الشعر الموضوعي»، واستنبط أرسطو قواعد الشعرية من عملين أُعجب بهما إعجاباً شديداً، هما: تراجيديا «أوديب ملكاً» لسوفوكليس، وملحمة «الإلياذة»، لهوميروس، ويمكن أن يدّعي المرء أن أرسطو في «فنّ الشعر» يذكر تراجيديات كثيرة، ولكنّ الصورة المثالية للمحاكاة والوحدات تترسّم سوفوكليس في «أوديب ملكاً»، وكذا شأن هذه القواعد في «الملحمة»، فإنها تترسّم خُطا هوميروس في «الإلياذة».

والمحاكاة عند أرسطو أساس الشعرية، فالشاعر «ينبغي أن يكون أولاً صانع القصص قبل أن يكون صانع الأوزان، لأنه يكون شاعراً بسبب ما يحدثه من المحاكاة، وهو إنما يحاكي الأفعال»، ولذلك فإنّ أرسطو لا يُقيم وزناً للشعر الغنائي في شعريته، وذلك لأن عصره هو عصر الشعر الموضوعي.

لكنّ مصطلح الشعرية تحوّل تحوّلاً جذرياً في العصر الرومانسي، فاستُبدلت الشعبية بالنبل، والذاتية بالموضوعية، والداخل بالخارج، والشعر الغنائي بالشعر الموضوعي، فاتجه الشعر إلى مخاطبة القلب، وغدت لغته لغة العاطفة والوجدان، وصار تعبيراً بعد أن كان محاكاة.

ولم يقتصر التحوّل في مصطلح الشعرية على ما تقدّم، وإنما كان يتداخل بالفنون الأخرى مرّة، ويتباعد عنها أخرى، فمرّة يكون الشعر إيقاعاً منغّماً، كما هي الحال في الشعر الرمزي ومرة يقترب من الرسم والتصوير، فإذا هو لوحة مكانية بعد أن كان إيقاعاً زمنياً، كما هي الحالة في الشعر التصويري.

وهكذا نجد أن هذا المصطلح لا يستقرّ على حال، وليس ذلك لعيب فيه، وإنما هو دليل صراع وخصب وحيوية، فالشعر كائن ما كان الإنسان، متغيّر بتغيّره وتطوره واختلاف الزمان والمكان، فلأرسطو شعريته التي فرضتها نصوص عصره، وللكلاسيكية مع بوالو شعريتها المقنّنة، وللرومانسيين شعريتهم، ومثلها للرمزيين والسرياليين والواقعيين والحداثيين وسواهم، ولذلك من المتعذر أن يكون هناك تعريف جامع مانع لهذا المصطلح الممتدّ في الزمان والمكان، ولذلك كان لابدّ من أن تستخدم المنهج التزامني (SYNCHRONIE)، وبخاصة أن البستاني يتوقف طويلاً عند «الإلياذة» وما يقاربها في الشعرية العربية من مشاهد ملحمية، منذ الجاهلية حتى مطلع القرن العشرين زمن كتابة المقدمة.

يفرّق سليمان البستاني في المقدمة بين الأجناس الشعرية كما جاءت عند الإغريق، فهي محصورة في بابين: «الشعر القصصي»، وهو بسط أحوال العالم بمظاهره البارزة، والشاعر بهذا الاعتبار يعبّر عن شعائر غيره، و«الشعر الموسيقي»، وهو ما نعبّر عن منظوماته بالقصائد أو الأغاني، والشاعر الموسيقي إنّما يعبّر عن شعائر نفسه، وقد ألحقوا بهذين البابين باباً ثالثاً دعوه «دراما»، وهو متوسّط بين البابين السابقين، وهو ما يستحسن التعبير عنه بالتمثيلي، لأنهم يقصدون به غالباً منظوم الروايات التمثيلية[٧].

لكنّ هذا التقسيم لا يضع حدوداًمنيعة بين هذه الأجناس الشعرية، وبخاصة إذا وضعنا في الحسبان أن الأجناس تتلاقح وتتوالد، وتستبطن صفات ثابتة مهيمنة وصفات وليدة متحولّة، ففي الشعر الملحمي، وهو موضوع الدراسة والترجمة، قطع من الشعر الغنائي، وأخرى من الشعر التمثيلي، وإن كانت الهيمنة للشعر القصصي، وهذا ما تنبّه عليه البستاني في قوله: «إلاّ أنه يترتّب على ما تقدّم أنّ منظومات الشعراء يجب أن ينتمي كلّ منها إلى قسم من هذه الأقسام ويلصق به غير متجاوز إلى ما سواه. بل

قد يكثر التداخل بينها ولاسيّما في منظوم البلغاء. فإلياذة هوميروس ملحمة من الشعر الغنائي بالنظر إلى ما تضمنته من سرد الوقائع والأخبار. وما تجاوزت به إلى ما وراء الطبيعة من شؤون الآلهة وملابستهم للبشر في أعمالهم وإيضاح حقائق الفضائل والرذائل بطريق الإخبار. ولكنّ فيها قطعاً من أبدع ما قيل في الشعر الموسيقي وحسبك منها رثاء أخيل لفطرقل وتفجعه عليه في مواضع مختلفة منها. وإن وداع هكطور لزوجته في النشيد السادس مازال على قدمه المثال الذي ينسخ على منواله أرباب الشعر التمثيلي وليس بين المتقدمين ولا المتأخرين من أدرك شأوه وأجاد إجادته فيه مع كلّ ما أحسن راسين الفرنسي في روايته «أندروماخ»» (ص١٦٤).

وللبستاني وجهة نظر في أسبقية الأجناس الشعرية، فهو يذهب إلى أن الشعر الموسيقي (الغنائي) أقدم عهداً من الملحمة، وأن الملحمة أقدم عهداً من الشعر التمثيلي، وأنّ الشعر التمثيلي لا يتكوّن إلاّ مع رقي الأمم: «قد يتبادر إلى الذهن أن رسم الظواهر أقرب إلى الفطرة وأيسر تناولاً من رسم الخوافي الكامنة في النفس ولهذا كان الشعر القصصي في أكثر الملل متقدّماً على الشعر الموسيقي وفنونه. والصواب أن الأغاني والقصائد أقدم من الملاحم والملاحم أقدم من التمثيليات لأن أقدم ما نطق به الإنسان بعاطفة من نحو حبّ ودعاء وغيظ ورجاء. أو ملهاة ينشدها الكبير ليتلهّى بها الصغير: فهذه القطع الصغيرة تقدمت بلا ريب على المنظومات الطويلة من أشباه الإلياذة إذ لاتتوفّر معدّات نظم الملاحم إلاّ في الشعوب الراقية بعد أن آتألف نظم المقاطيع القصيرة مئات من الأعوام. ولكن قد يمكن أن يكون ارتقاء الشعر القصصي متقدّماً على ارتقاء الشعر الموسيقي وإن تقدّم الموسيقي بالوضع كما أنّ ارتقاء بلاغة الشعر متقدّمة على بلاغة النثر وإن كان النثر متقدّماً بالوضع. أما التمثيليات فهي من نتاج الملاحم فجاءت متأخرة عنها بالطبع لأنه كان أيسر على الشاعر في غابر الأزمان أن ينطق بلسان نفسه في محلّ مُعدّ لذلك كما هو الواقع في التمثيليات» (ص١٦٥).

والبستاني معجب بشاعرية هوميروس، وهذا أمر بدهي يعود إلى أنه أمضى في صحبته فترة طويلة، وطاف في لغات العالم بحثاً عن هذه الشاعرية من جهة، ثمّ إن هوميروس في ملحميته محطّ إعجاب العالم، حتى إنّ أرسطو استنبط قوانين الملحمة من «الإلياذة»، وكان أرسطو لايقلّ إعجاباً بهذا العمل عن البستاني، ولذلك توقف الأخير عند التشابيه والاستعارات والكنايات في هذه الملحمة، وبدا له أن شعر هوميروس ينتمي إلى الواقعية، ولذلك ترك سجيّته على حريتها، فقد كان الموقف هو الذي يسيّر هذه الشاعرية، فأبرز صفات الطبيعة إبرازاً واضحاً، ووصف الأبطال وصفاً دقيقاً، كما وصف الحيوانات وصفاً أخّاذاً، وكان يوظف الوصف توظيفاً شعرياً، وهو يطلق العنان لتشبيهاته، فلاتتوقف إلاّ حيث يقف الخيال، وهو في كلّ ذلك بعيد عن الإغراب معنىً ولفظاً، ثمّ دافع البستاني عن هوميروس في تشبيه الإنسان في بعض صفاته بصفات بعض أنواع من الحيوان، كتشبيهه الرجل الصبور بالحمار، وعظيم القوم بالثور، ويقدّم البستاني أمثلة من شعر العرب حيث شبّه السيد بالثور أو الكبش أو سوى ذلك.

١-٢ الملاحم والشعر العربي:

ينطلق البستاني من معالجة قضية الملحمة في الشعر العربي من الردّ على بعض علماء الإفرنج الذين ذهبوا إلى أن العرب لم يضربوا إلاّ على وتر الشعر الموسيقي، ولم يتخطوا في النظم إلى ماوراء القصائد والأغاني، وذهب إلى أن هذا القول مبالغ فيه، بل زعم موهومٌ فيه (ص١٦٥)، ولذلك كان عليه أن يعود إلى كتب التراث العربي منذ عصر الجاهلية إلى عصره للردّ على هذا الزعم ردّ العالم الموضوعي الخبير.

يبيّن البستاني أولاً أن العرب عرفوا شيئاً من الملاحم، ولكنّها مختلفة

كلّ الاختلاف عن الملاحم العالمية المشهورة لاختلاف طبيعة الشعوب وطرق معيشتها، ويقول: «إذا قلنا إن العرب نظموا الملاحم فلسنا بزاعمين أنّ في لغتهم شيئاً يماثل إلياذة هوميروس وشهنامة الفردوسي وفردوس ملتن بالشعر الحيّ» (ص١٦٧)، وهو يرجّح إذا كان النبي أيوب عربياً[٨] بأنّ العرب قد عرفوا الملحمة في «سفر أيوب»، وبذلك تكون الملحمة العربية أقدم من سواها. (ص١٦٧). ويُعيد البستاني خلوّ الشعر العربي من الملاحم الطويلة إلى سببين رئيسين، أولهما تعدّد الآلهة في الملاحم، فالعرَبُ في الجاهلية لم ينظموا الملاحم الطويلة المحكمة العرى «لأن ذلك النسق في النظم لم يكن في طبعهم فلم يتخطّوا إلى ماوراء الطبيعة وكانوا مع عبادة الأصنام يميلون إلى التوحيد وكان التسليم للأحكام العلوية من سننهم قبل الإسلام. فلم يوغلوا في التخيلات الشعرية إلى النظر في أحوال الآلهة وما يترتّب على ذلك من تفرّع البحث الواحد إلى أبحاث متعدّدة على ما هو شأن الأمم الآرية»(ص١٧١).

وثانيهما أن الشعر العربي يمثّل الحياة العربية بما فيها من تنقّل وترحال، فأرض العرب في الجاهلية شبه الجزيرة، وهي مكان يفرض على سكّانه عدم الإقامة الطويلة طلباً للماء والكلأ، ولذلك فإنهم لم يُطيلوا المقام في المكان، ولم يطيلوا أيضاً المقام في القصيدة، وتتطلّب الملاحم الإطالة، وهو يقول في هذا الصدد: «وإذا نظرت إلى حالة اليونان بما كانت عليه مع تلك الخشونة من الانتظام والدربة رأيت أنهم كانوا أيام حرب طروادة أقرب شبهاً بالعرب في أيام الخلفاء الراشدين ثمّ كانوا في أيام هوميروس أي في زمن نظم الإلياذة قد بلغوا من الحضارة مبلغاً لم يكن للعرب في جاهليتهم منه إلاّ النزر اليسير. فلم يسع أبناءَ الجاهلية أن يتجاوزوا بنظمهم أحوال فطرتهم وطرق معاشهم فكانوا يتنقلون بالشعر من باب إلى آخر انتقالهم من حيّ إلى حيّ يجيدون في كلّ ما يقولون ولكنهم لايطيلون المقام فلا يشيدون المنازل الفسيحة المشيدة الأركان» (ص١٧١).

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ولا يعيب البستاني الشعر العربي ويقلل من شأنه لخلوّه من الملاحم الطويلة، كما جاء في بعض الشعر الإغريقي أو الفارسي أو سواهما، فهو يدرك أنّ لكلّ أمّة حياتها وطبيعتها وخصوصيتها، ولذلك فإنه لابدّ من أن تختلف في فنونها وآدابها، وهذا التنوّع والاختلاف دليل غنىً وثراء، «وليس من اللازم أن يكون شعر جميع الأمم على نسق واحد، بل ربما كان هذا التباين من الأسباب المؤدية إلى إبراز أنواع الجمال كافة على اختلاف صوره وأشكاله». (ص١٧١).

ومع ذلك كلّه فإنّ الشعر العربي لم يخلُ من المقاطع الملحمية الراقية، لأن حياتهم لم تخلُ من الحروب والغزوات، ولذلك جاء شعرهم صورة ناطقة عن حياتهم، وهذا مادعا البستاني إلى أن يتوقف عند أطوار الشعر العربي وأبوابه وفنونه، ليبحث عن هذه المشاهد التي يمكننا أن نعيدها إلى الملاحم.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

١-٣ أطوار الشعر العربي وتطوره:

تناول البستاني بدقة متناهية في المقدمة موضوعاً نقدياً على غاية من الأهمية في عصره، وهو دراسة الشعر العربي حسب تطوره التاريخي متلازماً مع تطوّر الحياة ذاتها، وكان لابدّ من أن يقف أولاً عند الشعر الجاهلي، فعدّه نموذجاً صادقاً لحياة العرب في بداوتهم، فقد كان الشاعر الجاهلي أميناً لواقعه ونفسه فيما يقول أو يصف، وهو يتتبّع موصوفاته من مشهد الطلل إلى مشهد الظعن إلى رحلة الصحراء إلى غرضه الرئيس، فكان شعره واقعياً للتعبير عن الحياة العامة من جهة وإحساساته من جهة أخرى.

صحيح أنّ لكل شاعر خصوصية تميّزه من شاعر آخر، فلكلّ إنسان تجاربه التي يعيش فيها ويعبّر عنها، ولكلّ شاعر موضوعاته وطرائقه، فبعضهم من شعراء الطبع، في حين أن بعضهم الآخر من شعراء الصنعة، ولكن ثمة قواسم مشتركة تجمع هؤلاء الشعراء، وأهمّها نظام القصيدة،

ونظام القول، واللغة الفصيحة، والتمسّك بالعادات القبلية والافتخار بها، كالكرم، والشجاعة، وإغاثة الملهوف، والنسب العريق، وتجمعهم أيضاً ثقافة مشتركة وطرق معيشة واحدة، وعصر واحد، ولذلك سمّى البستاني شعراء الجاهلية بـ«الطبقة الأولى»

ولكنّ الحياة العربية تغيّرت بعد الفتوح الإسلامية الواسعة، وبخاصة بعد دخول شعوب غير عربية في الإسلام، فانتقل مركز الخلافة إلى دمشق، وهي بلاد قريبة من بلاد الروم، وتختلف في طبيعتها وعاداتها عن طبيعة الجزيرة العربية وعاداتها، ولم يقصّر الشعراء المخضرمون وشعراء بني أمية عن أسلافهم شعراء الجاهلية في علوّ الطبقة ومتانة السبك، ولكنّ مبلغهم من الرقي في الحضارة أضعف فيهم نزعة المتقدمين الفطرية فقصروا فيها عن المتقدمين (١٣٢)، وأطلق البستاني على هؤلاء شعراء الطبقة الثانية.

ثمّ بيّن البستاني أنّ الأمة تحولت بعد ذلك تحولاً خطيراً مع قيام الدولة العباسية، فانتقلت نقلة نوعية من البداوة، أو ما بقي منها، إلى الحضارة، ومن الفقر إلى الغنى الفاحش، فتغيّرت المنازل والملابس والمآكل وأساليب الحياة الأخرى، وكان لابدّ لهذا التحول من أن يلحق الشعر العربي، فطرأ تغيير ظاهر في بنية القصيدة في بغداد والأندلس، ويقدّم البستاني أمثلة على هذا التغيّر من شعر الرقاشي وأبي نواس والبحتري وابن المعتز وابن الرومي والمعرّي والمتنبي وأبي فراس وابن زريق البغدادي وسواهم من الطبقة الثالثة.

ثمّ يتوقف بعد ذلك عند طبقة الشعراء المحدثين أو المتأخرين، ويصف هبوط مستوى الشعر في عصرهم لزوال السلطان العربي، إذ أخذ الشعراء يقلدون القدماء في تجاربهم، فخمدت القرائح، وحدث شرخ هائل بين الشعر والحياة، فانصرف الشعراء إلى الصناعة اللفظية يغطّون بها عجزهم، فإذا شعرهم صور باهتة، وخلاصة رأي البستاني في هذا الشعر قوله: «ويقال مع ذلك إجمالاً إن الانحطاط في الشعر العربي أخذ يظهر قبل انقضاء عصر المولّدين وبات التقليد شعار المتأخرين. وحبّذا لو كان تقليداً

صحيحاً بل هو شوّه وجه الشعر ولاسيّما في القرنين الأخيرين إذ بات شاعرنا لا إلمام له بأحوال عصره فضلاً عن أحوال المتقدّمين يتحدّى امرأ القيس فيضرب في البوادي والقفار وهو في بيت موصد الأبواب. ويسوق الظعن وهو على متن قطار البخار. ويترنّم ببهجة الرقمتين ويُبْلِيهما من كرمه صفات جنّة عدن ولايدري أنهما مطمئنان من الأرض في بادية قفرة تقتله أشعة الشمس إذا وقف إليهما ساعة واحدة. وهو لو فطن يتنقل في موطنه في روض أريض وجنان تجري من تحتها الأنهار. حتى لو أردت أن تستدلّ من شعرهم على شيء من حالة مجتمعهم لأعياك ذلك. وغاية ما يرتسم في ذهنك صور مشوّهة لا يُعلم لها رأس من ذيل. ولما كانت الكنانة فارغة من سهام المعاني عمدوا إلى قذف الألفاظ مزوّقة بحلية يتستّرون من ورائها وما هم بمتسترين. حتى كأنّ قدماء العروضيين كانوا ينظرون إليهم عندما وضعوا للشعر ذلك التعريف الناقص فقالوا هو الكلام المقفّى الموزون ولم يزيدوا». (ص ١٦١ - ١٦٢).

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

واضح مما تقدم أن تصنيف طبقات الشعراء كما جاء في هذه المقدمة زمني تاريخي، وقد كان هذا المنهج هو السائد في الدراسات الإفرنجية حين كتب البستاني المقدمة.

١-٤ أبواب الشعر العربي وفنونه:

يبحث البستاني في أبواب الشعر العربي وفنونه وعلومه وبلاغته ليتوصّل بعد ذلك إلى المقارنة بين الشعر العربي والإلياذة. فهو يتوقف عند أبواب الشعر العربي بالنظر إلى معناه، وقد حصرها أبو تمام في عشرة أبواب في «الحماسة»، ثم أبلغها ابن أبي الإصبع العدواني إلى ثمانية عشر باباً، وهي «الغزل والوصف والفخر والمدح والهجاء والعتاب والاعتذار والأدب والزهد والخمريات والرثاء والبشارة والتهاني والوعيد والتحذير والملَح

والسؤال والجواب. وزادوا عليها الزهريات والحكم والمجون والحماسة وهي أشرفها عندهم وأجادوا في كلّ ذلك» (ص١٤٩).

أما فنون الشعر فقد تفنّن فيها المتأخرون، فأفاضوا في التشطير والتخميس والمعمّى والأحجية واللغز والدوبيت الفارسي، وكان الموشّح الأندلسي أواخر القرن الثالث للهجرة، وقد كانوا ينظمونه على أساليب وأوزان الشعر، وتعرّض البستاني إلى ما استنبطه المولدون من ضروب كثيرة من الشعر العامي، كالمواليا والزجل وسواهما.

ويتوقّف البستاني بعد ذلك عند علوم الأدب عند المولّدين، وقد أصبح الشعر عندهم علماً، فقد فتحوا البحث في صناعة الشعر وعلومه، فضبطوا الأوزان، وقيّدوا المعاني، فكان أن ضبط الخليل بن أحمد الفراهيدي علم العروض، وكتب ابن المعتز رسالة في البديع، ثمّ استمدّ العلماء العرب علم البيان من بقيّة الأمم، وصارت هذه العلوم لاغنى للشاعر عن الإلمام بها.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

١-٥ المشاهد الملحمية في الأدب العربي:

يتوصّل البستاني إلى أن طبيعة الحياة العربية ممتلئة بالحروب، وأن الشعر العربي لا يخلو من المشاهد الملحمية، وإن كانت مختلفة عن طبيعة الملحمة عند هوميروس، فيستعرض هذه المشاهد في التراث بدءاً من العصر الجاهلي إلى زمانه.

يتوقف البستاني اولا عند الشعر العربي الذي قيل في حرب البسوس، فإذا مجموع الشعر الذي قيل فيها يشكّل ما يشبه الملحمة، وكان أشهر الرجال والنساء فيها شعراء من كليب وجليلة ومهلهل ومرّة وجسّاس، والحارث بن عباد، فلكلّ حادثة شاعر، ولكنّ هؤلاء الشعراء يتكلّم كلّ منهم بصوته، في حين أن المتكلّم في الإلياذة واحد، هو هوميروس.

ويتوقف البستاني أيضاً عند كتاب «جمهرة أشعار العرب» الذي ألفه أبو زيد القرشي، واختار فيها تسعاً وأربعين قصيدة لتسعة وأربعين شاعراً، هي المعلّقات والمجمهرات والمنتقيات والمذهبات والمراثي والمشوبات والملحمات، وكلّ منها ملحمة قصيرة. ثمّ يتوقف بعد ذلك عند «رسالة الغفران» للمعري، ويرى أنها ملحمة نثرية أوغل فيها صاحبها في التصوّر حتى سبق دانتي وملتون. (ص١٧٤ -١٧٥).

ويمكننا أن نتوقف هنا وقفة قصيرة عند بعض أحكام البستاني في هذه الدراسة، فهو يرى مثلاً أنّ الصدق في الشعر مقياس الجودة، وأنّ الشعر الجاهلي في هذه المزية فوق الشعر الإغريقي والروماني (ص١٣٠)، وأنّ بلاغة المعنى ومتانة التعبير وإحكام التراكيب في شعر الطبقة الثانية (المخضرمين) تقابل مثيلاتها في الإلياذة (ص١٣٦)، ثم هو يفضّل لغة العرب على سواها، لأنّ هذه اللغة من الاتساع بحيث تزوّد الشاعر باللفظة التي يريدها على خلاف لغات الإفرنج قديمها وحديثها، فلا محاد لكتّابها من استعمال لفظة محدّدة، وإلاّ اضطرّوا إلى تبديلها أو إغفالها أصلاً (ص١٨٨).

٢-١ المقارنة بين الإلياذة والشعر العربي:

إنّ شروط الدرس المقارني متوافرة أولاً في البستاني الرجل على أحسن وجه، فهو يتقن خمس عشرة لغة، ومعظمها يتّصل بالإلياذة ودراستها من قريب أو بعيد، وهذه صفة غير متوافرة في كثير من أصحاب الدرس المقارني في الشرق والغرب، ثمّ هو يذكر مصطلح «المقارنة» صراحة في ديباجة المقدمة، فيقول: «وانتقلت إلى المقارنة بين الإلياذة والشعر العربي. فوطّأت لذلك بالشعر القديم وأصله وسبب ظُمُوسه ومناشدات سوق عُكاظ وشأن لغة قريش فيها وفضل القرآن في جمع أشتات اللغة وتوحيدها وإحكام بلاغتها في النظم والإنشاء. وقابلت بين لغة قريش

المُضَرية ولغة الإلياذة اليُونيّة. وفصّلت أطوار الشعر العربي مميزاً بين طبقات الشعراء من عهد الجاهليين حتى يومنا. وأثبتُّ مزايا كلّ طبقة منها مع تعيين مدّتها وأسماء فحولها وإيراد ما اتسع لهُ المقام من نفيس شعرهم» (ص ص٥ -٦)، فالكتاب، كما يبدو من التوضيح في هذه الديباجة، في الدرس المقارني الخالص، حتى إنّ المؤلف عدّ التوطئة بالشعر القديم ودراسته باباً للوصول إلى المقارنة السليمة.

ويمكننا أن نتوقف في المقارنة في هذه المقدمة عند ثلاثة موضوعات:

أ- المقارنة بين جاهلية العرب وجاهلية اليونان: يتوصّل البستاني إلى أنّ ثمة ملامح تشابه كثيرة بين حياة العرب في جاهليتهم وحياة اليونان في جاهليتهم، وقد استقى البستاني هذه الملامح من الشعر الجاهلي والإلياذة، وأهمّها:

- أنّ ثمة اعتقاداً لدى الشعراء العرب بأنه هناك شياطيناً وجنيّات يُلقّنون الشعراء فصيح الكلام، فقد كان لكلّ شاعر في الجاهلية والإسلام شيطان أو جني خاص به(٩)، وهذا يعني أنّ الشعر إلهام وموهبة أكثر منه صناعة وجهداً وعرقاً، وهذا ما بدأ به هوميروس نشيده الأول في الإلياذة:

ربَّة الشعر عن أخيل بن فيلا أنشدينا واروي احتداماً وبيلاً

- وأن ثمة ملوكاً كباراً على قبائل صغيرة تتكاتف، وتتحالف لأخذ الثأر، وهذا ما كان في حرب البسوس بين بكر وتغلب، وتقتتل عبس وذبيان على إثر سباق داحس والغبراء، وهذا نفسه ما كان بين الإغريق والطرواد، فقد نشبت الحرب بينهما بعد أن اختطف فاريس بن فريام هيلين زوج منيلاوس ملك إسبارطة، فقامت الإغريق لذلك النبأ وقعدت. ثمّ اجتمعت قبائلهم على الحرب ثأراً لهذه الفضيحة، وكان ما كان بعد ذلك

- وأن العرب أطلقوا في جاهليتهم تسمية الأيام على حروبهم، وتغنَّوا بها، ومنها يوم الكلاب، ويوم الجفار، ويوم النسار، وتغنّى هوميروس أيضاً بأيام الإغريق، ومنها يوم القناطرة، ويوم الإيتول، ويوم الكوريت.

- وثمة تشابه بين أحوال الشخصيات وأفعالها وردود أفعالها، فعنترة بطل عبس وفارسها ترتجف لصوته القبائل، يظلمه بنو قومه، فيقعد عن القتال، ثمّ ينكّل العدو ببني قومه، فيقوم إليه السّادة يسترضونه ليعود إلى ساحات الوغى، فيعيد لقومه ما كان لهم من أمجاد وانتصارات، وهذا ما كان في شخصية أخيل بطل الإلياذة الذي ظلمه آغاممنون، فقعد عن القتال، وكادت كفّة الطرواد ترجح في الحرب إلى أن عاد، فكان النصر حليفاً للإغريق.

- وثمة تشابهات في لباس القوم ورياشهم وطرق معاشهم، وبخاصة في حال المعيشة الفطرية، فثمة التسابق بين القوم إلى الكرم وخدمة الضيوف، ففي جاهلية العرب حاتم الطائي مثال على ذلك، وفي جاهلية اليونان أكسيل، وهو مضرب المثل للكرم عند الإغريق.

- وثمة تشابه آخر في حالة السبايا والجواري التي تُشرى وتُباع هنا وهناك، وثمة أسرى تُقتل أو تُفتدى أو تُسرَّح بإحسان، وثمة حالات أخرى كثيرة من التشابه اقتضتها ظروف الحياة المتشابهة عند الأمتين.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

٢-٢ المقارنة بين لغة قريش المضرية ولغة الإلياذة اليونية:

يبحث البستاني في لغات اليونان القديمة وصلات بعضها ببعض، ثمّ سادت اللغة اليونية في الشعر والعلوم والمعارف، كما هو شأن لغة قريش المضرية في العربية، ولكن الفرق بين اللغتين أن لغة هوميروس اليونية دال الزمان بها، وقامت مكانها لغة اليونان الحديثة، فيحتاج اليوم اليوناني إلى ترجمة الإلياذة أو سواها من تراث الإغريق إلى اليونانية الحديثة لقراءتها، وكأنهما لغتان منفصلتان. ولكنّ العربية ليست كذلك، فهي مازالت على ما نطق بها الشعراء في الجاهلية، ويُعيد البستاني الفضل كلّ الفضل إلى القرآن الكريم، فيقول: «وخلاصة ما تقدّم أنّ اللغة العربية أطول اللغات الحيّة عمراً وأقدمهنّ عهداً، والفضل في كلّ ذلك للقرآن» (ص١١٥).

ولا تقتصر المقارنة بين اللغتين على ما جاء في متن الكتاب (المقدمة)، ولكنّ البستاني توقّف في الخاتمة وقفة طويلة ليبيّن غنى اللغة العربية وضخامة ثروتها وتوافر إيجابياتها وتفوّقها على سواها، فهي «شعرية بطبعها لتفرّع مفرداتها وتنوّع اشتقاقاتها القياسية على أسلوب لا يُرى له مثيل في اللغات الآرية. والقوافي مزدحمة فيها ازدحاماً يسهّل النظم. وهي بخلاف ما يزعم بعض الأعاجم جزلة التركيب محكمة الانسجام. وفيها من طرق الحذف والتقدير والتقديم والتأخير ما ينفسح معه المجال للشاعر لصوغ عبارته على قوالب شتّى. وتلك مزيّة تُمدح عليها اللغة في الشعر وإن عيبت في النثر حيث يُقصد الجري على نمط واحد جليّ. وهي على الجملة متّسعة للشعر أكثر منها للنثر. فشعرها منذ القديم أرفع طبقة من معظم نثرها وجيّده أسهل منالاً من جيّد النثر حتى لتجد النثر شعراً في كثير من الأحوال» (ص١٩٢).

واللغة العربية غنيّة في كثرة مترادفاتها، ممّا يسهّل عملية الترجمة الشعرية، فإزاء المترجم مجال واسع لاختيار لفظة دون أخرى، وهذه مزيّة في مفردات هذه اللغة تقصر اليونانية واللغات الغربية عن مجاراتها فيها، إضافة إلى مزيّة تعدّد المعاني في اللفظة الواحدة، «فقد ذكروا عشرات ومئات من الألفاظ الموضوعة لمسمّيات معيّنة من الحيوان كالأسد والحيّة والبعير والناقة والفرس والثور والكلب والهرّ. والمأكولات كالتمر واللبن والعسل. والمشروبات كالماء والخمر. والسّلاح كالسيف والرمح. والصفات كالطويل والقصير والكبير والصغير والشجاع والجبان والكريم والبخيل. وغير ذلك من مألوفهم كالنور والظلام والشمس والقمر والسحاب والمطر والتراب والحجر. ولهم مثل ذلك في الأفعال. فقد عدّ أحدهم أكثر من ألف فعل يمكن إطلاقها على معنى واحد. ويقابل ذلك تعدّد معاني اللفظ الواحد فإذا تصفّحت معاجم اللغة وقرأت باب الخال والحال والعين والعجوز وأمثالها تولاّك العجب لكثرة معاني كلّ كلمة منها» (ص١٩٥).

ويدرك البستاني أن كثرة المترادفات وردت إلى اللغة العربية اتفاقاً،

وهي إما لمنقول عن الأعاجم، وإما لاختلاف المدلولات في لغات القبائل المتباعدة، وإما للمح صفة مقصودة يتغيّر بها المعنى تغيّراً طفيفاً، لا يُشعر به لوحدة المسمّى. لكنّ هذه المترادفات أصبحت في زمن ضعف الذاكرة متشابهة يقوم كل منها مقام الآخر (ص ص١٩٥ -١٩٦)، ويقدّم أمثلة على هذه المترادفات في المعاني، فإذا «أتى على ذكر الخيل فما من لغة أوسع من العربية بأوصافها وتمثيل عَدْوها وجريها وتطبيقها وتقريبها وحُضرها وارتفاعها -وإذا ذكر الحروب وعليها مدار الإلياذة فلم تتفنّن أمة فوق العرب بوصف القتال والنزال والمجاولة والمصاولة والمشق والرشق والحذق والقذف والمماصعة والنفح بالمناصل والضرب بالمغاول والوخز بالعوامل. وقس على ذلك جميع ما تناول وصف الأحوال المعاشية والروابط القومية والأحكام العرفية والمناظر الطبيعية من وهاد وهضاب ومطر وسحاب وبحرّ وبرّ وزرع وضرع وماء وهواء وأرض وسماء» (ص ١٩٤).

ثمّ إنّ للغة العربية مزيّة أخرى، وهي أنّ المفردة الواحدة فيها تنوب أحياناً عن عبارة في لغات الأعاجم، ويقدّم أمثلة محسوسة على ذلك كعادته، فيقول: «وإني مورد لك الآن أمثلة مما عُبّر عنه في اليونانية بكلمتين فأكثر ويتيسّر ردُّه في النقل العربي إلى كلمة واحدة في الأفعال والأوصاف والموصوفات. وذلك كالسَّلهب للجواد الطويل. والأجيد للجواد الطويل العنق. والأجرد للفرس القصير الشعر. والقبّ للخيل الضامرة والقياديد للخيل الطويلة. والتَّبيع والتَّبيعة لولد البقرة لحول واحد والحوليّ لابن سنة من ذوات الحوافر وغيرها. والسَّديس للذي أتمَّ خمس سنين... وأمثال ذلك مما سترى منه في الإلياذة شيئاً كثيراً» (ص١٩٤).

وينبّه البستاني في مجال اللغة على قضية هامة في زمنه، وهي ضعف اللغة العربية في استيعاب ما جدَّ من علوم وصناعات ومعارف في عصره، وهو لا يُعيد هذا العجز إلى طبيعة اللغة العربية، وإنّما يعيده إلى ضعف القائمين عليها في عصره في لغتهم، فيقول: «وما هذا النقص البادي الآن في إحكام التعبير وخصوصاً في المعنويات إلاّ نتيجة إهمال الخلف اقتفاء آثار

السلف» (ص١٩٣)، ثم يناقش هذه الفكرة مناقشة جادّة في الخاتمة، ويبيّن أنّ تقدّم اللغات جارية مع العلم والحضارة في حين أن العربية كانت حتى زمنه ثابتة في موقف واحد عاجزة عن مجاراة تلك اللغات[١٠]، ثمّ يبيّن أن العيب في أبناء زماننا، ويتوقف عند طرق القدماء في تعريب المصطلحات والكلمات الجديدة ليدلّ على حيوية هذه اللغة واستيعابها لكل ما يصدر من نتاج العلم وسواه. (انظر ص ١٩٧ وما بعدها)

٢-٣ المقارنة بين الإلياذة والشعر العربي:

يدخل البستاني في «مقدمة ترجمة الإلياذة» إلى علم المقارنة من بابه الواسع، فيحلّل الشعر العربي في الجاهلية تحليلاً دقيقاً، ويتطرّق إلى ذكر الحروب ومواقف الأبطال، فإذا عثرة شبيه بأخيل، وإذا الاستعارات والتشابيه تكاد تكون في بعض صورها واحدة، فقد وصف هوميروس هجوم هكطور على الاغريق، فقال:

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وهبَّ الطرواد والتـصـقـوا	وفي الصـدر هكطور مندفقُ
كجلمود صخر قد انتزعا	من الشمّ سيلٌ به اندفعا
له الغابُ مرتجّةٌ ترتجفْ	إلى القعر حيث بعنف يقفْ

(ص ١٨٢)

فهذا التشبيه من مكونات الطبيعة (جلمود الصخر المندفع من أعلى إلى أسفل بقوة السيل)، وهو شبيه بوصف امرئ القيس لجواده في المعلّقة:

مكرٍّ مفرٍّ مقبلٍ مدبرٍ معاً   كجلمودِ صخرٍ حطّهُ السَّيلُ من عَلِ

ويتناول البستاني مثالاً على الشعر الدقيق في الوصف، وهو قصيدة «حديقة الشعر» التي مدح بها ابن الرومي إسماعيل بن بلبك، وهي قصيدة طويلة تزيد على مئتي بيت، وهي في موضوعات شتّى، ولكنّ الشاعر

استطاع من خلال هذا الوصف أن يجذب القارئ في زهريته وغزله ووصف الخمرة ومدحه، ويرتقي الشاعر بقارئه من درجة إلى أخرى بطلاوة، والقارئ مشغوف بها. ثم يتوصل بعد تحليل هذه القصيدة إلى قوله: «وهذا المنزع بعينه هو منزع هوميروس في إلياذته ولو لم تكن حديقة ابن الرومي خلية من أخبار الشعر القصصي لقلت هي شطر من تلك الملحمة التي خلب بها هوميروس عقول رواته وقرّائه. وكأنّي بابن الرومي وفيه لمحة من كنيته التي كان يُعَيَّر بها في زمانه إلى جرثومة في أصله أو عرفانه كانت تحمله على تحدّي هوميروس في كثير من أساليبه ومعانيه وتشبيهاته (ص١٥٥).

ويدخل في باب المقارنة حديث البستاني في باب «أوزان الشعر وأبوابه»، فيتوقف عند المعاني التي يصلح لها هذا الوزن أو ذاك، ثم يذكر الأوزان التي نظم عليها ترجمة الإلياذة، ويصل أخيراً إلى أوزان الشعر الإفرنجي، فيتوقف عند الوزن الإسكندري الذي ينسب إلى إسكندر دوبراني، وهو المؤلف من اثني عشر مقطعاً «SYLLABE»، واستخدام القوافي في الشعر الإفرنجي (الفرنسي - الإنكليزي - الإيطالي - الألماني)، ليتحدّث بعد ذلك بلغة الباحث المقارني عن القوافي في لغة العرب وتناسبها للمعاني.

وإذا كان ثمة وجوه اتفاق بين جاهلية العرب وشعرهم وبين جاهلية اليونان وشعرهم، فثمة وجوه اختلاف توصّل إليها البستاني، وأهمّها:

- أنّ أيام العرب قصيرة وأيام الإغريق طويلة، وذلك لأسباب العمران وحصون طروادة، فقد دام الحصار سنوات، ولم يستطع الإغريق انتزاع النصر من الطرواديين إلاّ باستخدام الحيلة (حصان طروادة).

- وأنّ البطل عند العرب سيّد موقفه، وهو يصنع مصيره مع أنه مؤمن بأنّ الأجل لا يتقدّم ولا يتأخّر، لكنّ البطل عند الإغريق عبد للآلهة، فهي التي تصنعه وتقرّر مصيره سلفاً، وهذا ما كان من هزيمة الطرواد، لأن فاريس اعتدى أخلاقياً على حرمة الإغريق، فارتكب إثماً ينبغي أن يعاقب عليه هو

ومن ينصره، وكان لابدّ من حلّ وحيد، وهو دمار طروادة.

- وإن الإلياذة قصة طويلة محكمة البناء، لأنّ المتحدّث فيها واحد، نطق باسم الجميع، في حين أن حرب البسوس قصائد حماسية قصيرة مفككة، لأنّ المتكلّم فيها متعدّد (كليب - جليلة - مهلهل - جساس - مرّة - الحارث بن عباد)، ويعلّل البستاني هذا الاختلاف إلى أن العرب كانوا في جاهليتهم يميلون إلى التوحيد، فلم يوغلوا في التخيلات الشعرية إلى النظر في أحوال الآلهة من جهة، ثم إن الشعراء كانوا يتنقلون في قصائدهم من موضوع إلى آخر انتقالهم من حيّ إلى حيّ، فتشابهت قصائدهم بحياتهم.

وثمة فروق أدركها البستاني بين الإلياذة وشعر المولدين، فهو يأخذ على شعرهم أربعة مآخذ ترجع إلى خلال أربع: الخلة الأولى اقتضاب الوصف الشعري، والخلة الثانية تبذلهم في المديح حتى جعلوا الشعر صناعة للتكسّب ومهنة للارتزاق، والخلة الثالثة ابتذال الغزل، وبخاصة في مقدمات قصائد المديح، والخلة الرابعة تجاوزهم في المجون وبذاءة التعبير إلى ما لا يستبيحه أدب المجالس ويغض من قدر الشعر ومنزله الشعراء. ثم يصل أخيراً إلى بيان أن إلياذة هوميروس تخلو من هذه المغامز، فيقول: «أما إلياذة هوميروس فهي على ما وصلت إلينا نقيّة من تلك الغامز لا يؤاخذ صاحبها على شيء من هذه الخلال الأربع. أما الخلّة الأولى فلأنّ الشاعر جاهليّ وحيثما تصفّحت شعره رأيته أبدع في الوصف ورسم الحقائق. وأما الثانية والثالثة فلأنّهما مخالفان لطبعه وذلك بادٍ في كلّ منظومه. وأما الرابعة فقد تحاشاها الشاعر لسموّ في أدبه مع ما كان فاشياً في عصره من الاستسلام للشهوات كما أثبتنا في ترجمته ولهذا جاءت إلياذته نقيّة لا يتخلّلها شيء مما تحظر قراءته حتى على الغادة العذراء» (ص١٤٩).

ويمكننا مما تقدّم أن نعدّ مقدمة ترجمة الإلياذة الكتاب الأول في اللغة العربية في المقارنة العلمية، فالكتاب في مجمله في موضوعاته وعرضه وغرضه ومنهجه ظاهر في المقارنة.

٣-١ المنهج العلمي في مقدمة الألياذة

اتبع البستاني منهجاً علمياً دقيقاً في المقدمة التي تُعدّ بحقّ نموذجاً للبحث العلمي الرصين، ومن صفات منهجه العلمي في هذه المقدمة:

- التوثيق، فالرجل صاحب أمانة علمية، وهو يُعيد كلّ فكرة اقتبسها أو استفاد منها إلى صاحبها، ويجول في الأدب الأوروبي قديمه وحديثه، والأدب العربي، وينصّص، ويذكر رقم الصفحات في الهامش، وإذا ذكر الكتاب أول مرّة ذكر معه معلومات النشر ومكانه وزمانه.

- الاستقصاء والتدقيق والتمحيص، فهو يتوقف عند الآراء المختلفة حول قضية من القضايا، ويناقشها مناقشة موضوعية، ثم يرجّح رأياً على رأي وحكماً على حكم (انظر دراسته لاسم هوميروس ولقبه وحياته وأسفاره وعماه . . . الخ).

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

- تواضع العلماء، فالعالم يتعرض أحياناً لأمور يستعصي عليه فهمها، وتظلّ، وبخاصة في الشعر، مستعصية على الانقياد، ويحاول العالم، ولكنه يجد الطرق أمامه مسدودة، فلا يجد حرجاً من أن يعلن أمام الملأ عن تقصيره في هذه الناحية، وهذا الإعلان سمة جليلة من سمات العلماء، وهذا ما نتلمّسه في المقدمة، فقد أغلقت بعض الأمور في الإلياذة على البستاني، فأوردها في مقطع، وقال: «ولقد أُغلق عليه فهم المراد من مخالفة أثينا لأبيها زفس مخالفة بلغت حدّ العصيان وهي ربّة الحكمة والسّداد تعرف أنها لا قِبَل لها به ويشقّ عليها الخذلان فلا تأتي أمراً يورثها الندم. فكيف قامت بعد هذا تتهدّد وتتوعد بكلام ملؤه العتوّ ثم ما لبثت أن استلأمت وتدجّجت بالسّلاح لتنخرط في سلك مقاتلة نهاها زفس عن الأخذ بيدهم فصدعت بالأمر وقالت «أطعنا فلا نأتي النزال» ثم خالفت قولها وانتفضت عليه انتفاضاً كاد يودي بها . . . وحبذا لو كانت هذه الرواية في بضعة أبيات إذاً ليتيسّر لي أن ألتمس للشاعر عذراً فأجزم بكونها دخيلة

ولكنها مندمجة في الرواية اندماجاً ولا سبيل إلى إفرازها منها إلاّ إذا اختلّ نظام سياق الحديث فلابدّ إذاً من أن تكون من نظم الشاعر أدرجها هنا لأمر غمضت عليّ حكمته» (ص٤٦).

- التنبيه على الشعر الموضوع، فيتحدث البستاني عن إجادة الشعراء الجاهليين في نظم أبيات تثقل بدلالتها، ولاسيما في أثناء مزج الغزل بذكر الحروب، كالبيتين التاليين:

ولقـد ذكـرتُك والرمـاحُ نواهلٌ   منّي وبيض الهند تقطر من دمي
فـوددتُ تقبـيلَ السيـوف لأنهـا   لمعت كبـارق ثغـرك المتبـسّم

ويشير البستاني إلى أنّ هذين البيتين منسوبان إلى عنترة(١١)، وهذه نظرة علمية دقيقة، ورأي يدل على سعة اطلاع وتطواف في الشعر الجاهلي ومصادره ومصادر النقد الذي تناوله بالدراسة.

- التنبيه على الخلط الذي أصاب الأسماء الأعجمية عند القدماء، وبخاصة أسماء العلم منها، مما يجعل الباحث في حيرة من أمره، وهو يعيد هذا الخلط إلى تلاعب النسّاخ، ولاشكّ في أنّ لثقافته الموسوعية دوراً في اكتشاف هذا الخلط، وهو يشير إلى هذه الظاهرة الخطيرة بقوله: «وأما تحريف النسّاخ وتصحيفهم فمما لايدركه حصر فكثيراً ما تقرأ فيلقوس وفيلشوس وفيلنوس وقنلتوس ويكون المراد فيلبُّس أبا الإسكندر. وتقرأ بودنطه وتيرنطه وبيرظه وبورنطا والمراد البيزنطية. وخذ أي كتاب شئت من كتب التاريخ من البيروني والمسعودي إلى ابن الأثير وابن خلدون حتى المقريزي وانظر فيه إلى الأعلام اليونانية فيشكل عليك إرجاعها إلى أصلها.

وكثيراً ما ترى الاسم الواحد مكرّراً في صفحات وهو في كلّ صفحة بهجاء مختلف عما قبله وما بعده فإذا فتحت القرماني طبع بغداد صفحة ٢٣٦ وقرأت أنطياقوس ثم رأيت أبطيحش بالباء والحاء ص: ٣٦٩ فما أدراك أن المراد بهما أنطيوخوس إذا لم تكن هناك قرينة ترشدك.

ومن بلاء النسخ أيضاً تحويل الفكر من علم مشهور إلى علم مشهور فتضيع فائدة الرواية بجملتها كقولهم في يوليوس قيصر بولس أو بولوس وأين بولس من يوليوس» (ص ص ٨٠ -٨١).

- وجهة نظر العالم الباحث، فليس البستاني ناقلاً عن العلماء في الغرب والشرق فحسب، ولكنه عالم باحث له وجهة نظره في هذا الموضوع أو ذاك، وهو لايقلّ عن كثيرين ممن ينقل عنهم خبرة واطلاعاً ومعرفة باللغات، ولذلك نجده لاينقل أبيات الإلياذة، كما هي حالة المترجمين، وإنما يسوق لنا آراءه في هذا البيت أو ذاك، فيقول: «هذا وإنّ في الإلياذة بضعة أبيات لا أرى لها محلاً أصلاً ولو خيّرت لحذفتها ولكنه لا سبيل إلى ذلك لأنها مثبتة في كلّ النسخ. مثال ذلك قول إيريس إذ أنفذها زفس برسالة إلى هيرا وأثينا فبعد أن بلّغتهما قوله كجاري العادي قالت لأثينا:

وأنتِ يا شــرّ الكلاب وقــاحــةً   أتلقَيْن بالرمح الثـقـيل أبا الورى

فإنها تجاوزت حدّ مهمتها وفاهت بكلام بذيء لم يَفُهْ به زفس ولم يتفق للشاعر أن أتى بأمثاله فضلاً عن أنه كلام لا يجوز أن يوجّه إلى أثينا ربة الحكمة وحيثما ذكرها هوميروس فإنه يذكرها بالتعظيم والتبجيل» (ص٤٤).

أما فيما يخصّ موضوعه (الإلياذة فإنّه يمكننا أن نتوقف عند الملاحظات الثلاث التالية:

أ- إثبات صحة رواية الإلياذة: كان لابدّ قبل ترجمة الإلياذة من أن يتأكّد البستاني من أنّ العمل الأدبي الذي سيقوم بترجمته صحيح الرواية، وهذا يتطلّب منه أن يطوّف في معرفة الأمم القديمة لإنشاد الشعر وقدرتها على الحفظ ليثبت صحة رواية هذا العمل عن مؤلفه، ويتأكد من سلامته من التحريف، فأثبت أولاً شهرة الإلياذة عند الإغريق واهتمامهم بنسخها وتمحيصها وحفظها ونشرها اهتمام الأقوام بالكتب الدينية، وهذا لايمنع من أن يجد البستاني بيتاً هنا أو هناك لم يطمئن إلى مكانه أو إليه، فلم يسلم من التحريف أو التصحيف، ولكنها أبيات قليلة في هذا العمل الإنساني الخالد الطويل.

وكان لابد للتأكيد على صحّة الإلياذة من المقارنة بين قوّة الذاكرة عند الرواة الإغريق وقوّة الذاكرة عند الرواة العرب القدماء، ليبيّن أنّ حفظ هذا العمل غير متعذّر على راوٍ جهبذ، فقال: «وإذا قيل لك إنّ الإلياذة مؤلّفة من زهاء ستة عشر ألف بيت فيصعب الأخذ بقول القائلين إنه أمكن استظهارها فما بالك لوسمعت ما ذكروا عن غرائب حافظة حمّاد الراوية إذ امتحنه الوليد بن يزيد ووكّل به من يسمع إنشاده فأنشد تباعاً ألفين وتسعمائة قصيدة من شعر الجاهلية. أو لو قيل لك إنّ الأصمعي كان يحفظ ستة عشر ألف أرجوزة كاملة ما خلا القصائد والمقاطع وأخبار العرب بدوهم وحضرهم. وهذا قول مهما أُنس فيه من المبالغة لا يخلو من صحة بعضها كافٍ لإثبات ما نتوخّاه» (ص ٣٨).

ب- طريقته في إثبات صحة نسب الإلياذة إلى هوميروس: أثبت البستاني أولاً من خلال اطلاعه على ما كتب في موضوعه أن شاعراً يلقّب بهوميروس قد وجد في العصور الغابرة، ونظم الإلياذة والأوديسة، ويبقى عليه أن يثبت أنّ الإلياذة عمل شعري من نتاج قريحة واحدة.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ولذلك كان على البستاني أن يحلّل الإلياذة ليبحث في طبيعتها وأسلوبها، ليردّ قول من قال إنّ عدداً من الشعراء أنشدوها، ولذلك تناول وحدة هذا العمل، وقام بتحليلها وشرحها. ثم قدّم تحليلاً وشرحاً لشخصيات الملحمة ولأعلامها الجغرافية وارتباط أجزائها وفلسفتها وآدابها، ليتوصّل في نهاية ذلك كلّه إلى أنّ الإلياذة ذات أسلوب واحد، وأنّها جسم متماسك مترابط الأجزاء، وهذا يثبت أنّ الناظم واحد، وهو هوميروس.

جـ- أسباب إغفال العرب لترجمة الإلياذة: يُعيد البستاني إغفال العرب نقل الإلياذة إلى لغتهم إلى ثلاثة أسباب(١٢)، هي:

- الدين: لقد وجد العرب في الإلياذة عقيدة وثنية ما ارتاحوا إلى بثّها بين العامة لئلاّ تكون من مفسدات الإيمان، إضافة إلى أن العرب كانوا في زمن الترجمة في العصر العباسي يحتاجون إلى علوم اليونان أكثر من

حاجتهم إلى شعرهم، وبخاصة أن ما عندهم من شعر كان يربو على ما عند الأمم الأخرى (ص٦٥).

- عجز النقلة عن نظم الشعر العربي: كان معظم المترجمين في العصر العباسي من السّريان، وقلّة منهم من الفرس، وهم عاجزون عن نظم الإلياذة شعراً عربياً (ص٦٦).

- إغلاق فهم اليونانية على الشعراء العرب، فلم يكن هؤلاء الشعراء يحسنون فهم اليونانية، ولم يكن فيهم من يصلح لتلك المهمة.

أما فيما يخص منهجه في تعريب الإلياذة فيمكننا أن نتوقف عند النقاط التالية التي توضّحها المقدمة:

أولاً: وجد البستاني أنّ اللغة العربية ذات غنى واتساع في مفرداتها ومترادفاتها، ولا تجاريها لغة قديمة في ذلك، ولذلك اعترف بفضل هذه اللغة التي ساعدته في عملية التعريب بانتقاء المفردة المناسبة للمعنى المناسب (ص١٨٨).

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ثانياً: طوّف البستاني في أوزان الشعر العربي ومعانيها وملاءمتها لهذا المعنى أو ذاك، ودرس التناسب بين الأوزان ومعانيها وبين القوافي ودلالاتها دراسة متأنية ليكون ذلك كلّه عوناً له على عملية التعريب الشعرية (ص٩٠-٩٧).

ثالثاً: بيّن لنا البستاني حكايته مع تعريف الإلياذة، وكيف كان يعرض ما ينظمه منها على أدباء العصر ليتنسّم ما يكون من وقعها على النفوس، ويتبيّن مواطن الخلل قبل أن يتوغّل فيه، ثمّ بيّن الأخطاء الكثيرة التي وقع فيها بعض المترجمين، ثمّ ذكر لنا طريقته في الترجمة، وهي طريقة حنين بن إسحق والجوهري، وهي أن يأتي الجملة، فيحصل معناها في ذهنه، ويعبّر عنها من اللغة الأخرى بجملة تطابقها سواء ساوت الألفاظ أم خالفتها (ص٧٥-٧٦).

رابعاً: الأمانة في النقل، فلم يفعل ما فعله بعض نقلة الإلياذة من الإفرنج من حذف أو إضافة، ويقول: «وأغرب من هذا ما يقدمون عليه من الحذف والإضافة فقد رأيت في بعض المواضع أبياتاً كثيرة قضوا عليها بالحذف وأبياتاً كثيرة حسّنت لهم أنفسهم إضافتها حتى إنّ أحدهم حاك من أربعة أبيات أربعة وثلاثين بيتاً ضمّنها معاني لم تخطر على بال هوميروس» (ص٧٨).

خامساً: اجتناب حوشي الكلام ووحشيه في الترجمة التي تقدّم للقارئ العربي وتعريب الأعلام تعريباً مقبولاً على السّمع العربي . . . إلخ.

هذه هي دراسة البستاني للإلياذة، وهي دراسة أفقية عمودية، فلم يترك -كما يقال- مزيداً لمستزيد، فهي دراسة تاريخية ونصيّة، وهو لم يترك شاردة ولا واردة في أيّ لغة دون أن يعود إليها، فكان الخارج (الدراسات) متضمّناً في الداخل، ولذلك نجده يقارن بين الإلياذة والشعر العربي، ويقارن أيضاً بين حياة العرب في جاهليتهم وحياة اليونان القديمة، وقد استقى معلوماته من الشعر، ولذلك هو دارس نصوصي، كما يمكننا أن نصفه اليوم.

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

- 4 -

ولابد من أن نتوقف هذه الوقفة الأخيرة عند هذه المقدمة لنُدلي بالملاحظات التالية:

أولاً: إنّ إعجاب البستاني بالإلياذة أو الموضوع الذي يشتغل عليه محبّب ومسوّغ؛ فهو قد أمضى فترة طويلة وهو يبحث في هذا الموضوع، وقد قامت بينه وبين موضوعه ألفة، فصارت الإلياذة علماً على البستاني، وصار البستاني رفيقاً لإلياذته، والمسوّغ الثاني أن الإلياذة شعر عالم، وهي نموذج الملحمة في الشعر القصصي، حتى إنّ أرسطو، وهو المعلّم الأول، كان هو الآخر معجباً بهوميروس من خلال إعجابه بالإلياذة، ولذلك لم يكن إعجاب البستاني نتيجة للانبهار[١٣]، وإنما هو نتيجة موضوعية، فالإلياذة عمل تفتقد إلى أمثاله كثير من الأمم.

ثانياً: كان البستاني من أوائل الشعراء العرب في العصر الحديث ممن قام بالترجمة الشعرية شعراً، وهو أول باحث في فنّ الملاحم عند العرب، وأول من وضع منهجية صارمة في ترجمة الشعر إلى اللغة العربية.

ثالثاً: إن طبيعة البحث الذي قام به البستاني فيما يخص الإلياذة في اللغات التي درستها نجم عنها اكتشافه للأدب المقارن، فكان أول باحث عربي يوجّه الباحثين إلى الأدب المقارن وفوائده في حلّ مشكلات الأدب.

رابعاً: البستاني فاتح طريق في نظراته النقدية الخاطفة، فهو قد ذهب إلى أنّ ذوي الأصل الآري أصحاب خيال واسع، وقد وقف عند ابن الرومي ليعيد خياله الخصب إلى جرثومة رومية الأصل في شعره وخياله (ص١٥٥)، ثم جاء بعده بعض الأدباء والنقاد، فأخذوا هذه الفكرة وتوسّعوا فيها، ومنهم أبو القاسم الشابي في كتابه «الخيال الشعري عند العرب» وإسماعيل مظهر في دراسته لشعر بشار (مجلة العصور ١٩٢٨)، والعقاد في دراسته لشعر ابن الرومي، علماً بأنّ هذه الفكرة تحتاج إلى إعادة نظر.

http://Archivebeta.Sakhrit.com

خامساً: تنبّه قبل سواه من النقاد العرب إلى أنّ القافية الواحدة أحد أسباب خلوّ الشعر العربي من الشعر القصصي الطويل، فهو يحمّل وحدة القافية هذه التبعية، فيقول: «فقد يأتي الضرر من حيث يُرجى النفع فإنّ اتساع القوافي في اللغة العربية من جملة أسباب التضييق على الشعراء إذ مهما طال الشاعر باعاً فلا يأتي على عدد معلوم من الأبيات حتى يكاد يستنزف القوافي السائغة ولهذا كان من المستحيل نظم الألوف المؤلفة على قافية واحدة. وهذا من جملة أسباب ضعف الشعر القصصي في العربية. وإذا فرضنا وجود قافية تتسع لمثل هذا المجال فالأذن تملّ توالي النغمة الواحدة لأطيب الألحان» (ص١٠١)، ثم يسرد علينا حكاية صديق له من نوابغ شعراء العصر[١٤]، يستنصحه في نظم حادثة تاريخية تستغرق نحو خمسمئة بيت في سياق واحد، فنصحه بأن يجعلها نشيداً مسبّعاً أو مثمّناً، فاستحسن الشاعر ذلك، ويظنه قام بذلك (ص ١٠١ - ١٠٢).

سادساً: يذهب البستاني إلى أن الشعراء سلاطين الكلام، والشعر ريحانة النفوس ومبدّد البؤوس، ويستشهد على ذلك بالبيتين التاليين:

للسادة الشعراء فضل ثابت ولهم مقامٌ شامخ ومكان
وهم سلاطين الكلام ألا ترى كلَّ امرئٍ منهم له ديوان

(ص ١٨٩)

ويقصّ علينا البستاني سلطة الشعراء وقيمة الشعر عند العرب، فقد نقل إلينا نقدنا القديم احتفال القبائل العربية بولادة شاعر بين أبنائها[١٥]، وليست هذه الفكرة غريبة عن الفكر المثالي الغربي، فقد كان الفلاسفة المثاليّون في أواخر القرن الثامن عشر يذهبون إلى أن الشعر مصدر المعارف والفلسفات[١٦]، ولاتزال هذه الفكرة مطروحة في النقد المعاصر[١٧].

سابعاً: إذا كان الشعر سلطان الكلام فإن الشعر العربي هو سلطان الشعر عند الأمم، وأن اللغة العربية لغة شعرية من الطراز الأول وهذا ما ذهب إليه البستاني (ص ١٩٢ -١٩٣).

ثامناً: إنّ لغة البستاني علمية مختصرة مكثّفة، سليمة، فصيحة، مشرقة، وتراكيبه متينة، مما يدلّ دلالة قاطعة إلى أننا إزاء عالم حقيقي، وأنّ كتابته جديرة بالاهتمام والوقوف عندها.

وبعد، فإنّ هذه المقدمة -الكتاب تَعدّ من أغنى المقدمات في اللغة العربية وأوسعها اطلاعاً، وأطولها باعاً، وهي كما يقول البدوي الملثم: «خلاصة درس دقيق لأسفار عديدة تاريخية وأدبية وعلمية في لغات مختلفة»[١٨]، وقد ذهب أحد الدارسين إلى أن البستاني في مقدمته «أول من وضع تصنيفاً للعصور الأدبية، وأول من تحرّى عن الآثار الملحمية في شعر العرب، وانتقد أصول دراستنا أدبنا العربي»[١٩]

الهوامش

١- سليمان بن خطار البستاني، ولد في ٢٢ من أيار سنة ١٨٥٦م في بكشتين إحدى مزارع قرية الدبيّة في لبنان، وتوفي في الأول من حزيران سنة ١٩٢٥م بنيويورك، ونُقل جثمانه إلى مسقط رأسه في آب من العام نفسه.

زار البستاني العراق والجزيرة العربية وإيران وأوربا ومصر والولايات المتحدة الأمريكية، وعمل في الأستانة، وانتخب عن بيروت في مجلس المبعوثان، واختير في عام ١٩١٣ وزيراً للتجارة والزراعة والمعادن في حكومة الاتحاد والترقي، وكان يتقن خمس عشرة لغة، هي: (العربية -التركية -السريانية -الفارسية -الإنكليزية -الفرنسية -اليونانية القديمة واليونانية الحديثة -اللاتينية -الإيطالية -الإسبانية -الألمانية -الروسية -الهندية -العبرية -لغة النَّوَر).

لسليمان البستاني عدد من المؤلفات المطبوعة، وهي: «دائرة المعارف» -الأجزاء ٩ و١٠ و١١ (بالاشتراك) -إلياذة هوميروس- عبرة وذكرى أو الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده -الاختزال -الداء والشفاء (قصيدتان)، وله عدد من المؤلفات المخطوطة، وهي: تاريخ العرب -ديوان العرب الحاليين -MEMOIRES بالانكليزية وهي خواطر.

للتوسّع انظر: البدوي الملثّم -البستاني وإلياذة هوميروس -دار المعارف -القاهرة -١٩٦٣م

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

٢- بدأ سليمان البستاني في سنة ١٨٨٧م في ترجمة «الإلياذة» لهوميروس شعراً، وانتهى منها في سنة ١٨٩٥م، وانتهى من شرحها في عام ١٩٠٢م، وكتب المقدمة في أواخر صيف ١٩٠٣م، ثم أخرجها في سنة ١٩٠٤م بمطبعة الهلال بمصر.

للتوسّع انظر: البدوي الملثّم -البستاني وإلياذة وهوميروس.

- DUCROT, SOWALD, ET TODOROV, TZVETAN -Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage -SEUIL -1972 -P.106.

4- IBID, .-P.107.

5- IBID,. P.106.

٦- كتاب أرسطو طاليس في الشعر -تح وترجمة ودراسة د. شكري محمد عيّاد -دار الكاتب العربي للطباعة والنشر -القاهرة -١٩٦٧م -ص٦٦.

٧- انظر: البستاني، سليمان -مقدمة ترجمة الإلياذة- تحرير وتقديم محمد كامل الخطيب -منشورات وزارة الثقافة -دمشق -ط٣ -١٩٩٦ -ص١٦٣ -١٦٤. وسنكتفي في الدراسة بالإشارة إلى أرقام الصفحات في المتن.

٨- يذكر البستاني في هامش الصفحة ١٦٧ أن كثيراً من كتّاب العرب يذهبون إلى أنّ سفر أيوب كتب شعراً باللغة العربية، ثمّ نقله النبي موسى إلى العبرية، ولكنّ هؤلاء الكتّاب لايقدّمون حجّة تؤيّد هذا الرأي، ويمكننا هنا أن نشير إلى أن الشاعر رزق الله حسّون (١٨٢٥ -١٨٨٠م) قد أشار في مقدمة ديوانه «أشعر الشعر» أنّ أيوب وهوميروس وشكسبير أشعر الخلق، وأن النبي أيوب أكثر إجادة، وله قصب السبق وقد جاء عن أصل ملحمة «سفر أيوب» قوله: «أقدم الصحف الأولى على الإجماع وقد خيّل لبعض من لهم في العلم أطول باع، إنّ الأصل باللغة العربية. وقد نقله موسى النبي إلى العبرانية. وإنّ الأصل العربي مفقود الآن من بين أيدي البشر» -حسّون، رزق الله -أشعر الشعر -لندن - ط١ ١٨٧٠م

٩- للتوسع انظر: حميدة، د. عبد الرزاق -شياطين الشعراء -مطبعة الرسالة - القاهرة -د. ت.

١٠- أعاد حافظ إبراهيم هذا الرأي في قصيدته التائية الشهيرة، ومنها:

وسعتُ كتابَ الله لفظاً وغايةً ... وما ضقتُ عن آيٍ به وعظاتِ

فكيف أضيقُ اليومَ عن وصفِ آلةٍ ... وتنسيقِ أسماءٍ لمخترعاتِ

أنا البحرُ في أحشائه الدُّرُّ كامنٌ ... فهل سألوا الغوّاصَ عن صدَفاتي . . إلخ

ديوانه -ضبط وتصحيح وترتيب أحمد أمين وزميليه -دار العودة -بيروت -د. ت -١/٢٥٣ -٢٥٤.

١١- لم نجد ذكراً لهذين البيتين في ديوان عنترة -تح. ودراسة محمد سعيد مولوي -المكتب الإسلامي -بيروت -دمشق -ط٢ ١٩٨٣م. والديوان برواية الأعلم الشنتمري مع زيادات البطليوسي.

١٢- تبيّن للنقاد والدارسين أنّ سبباً آخر كان حائلاً دون ترجمة الإلياذة، وهو ترجمة التراجيدي بالمديح والكوميديا بالهجاء، وهوخطأ فاحش أدّى إلى خلط الشعر الموضوعي الإغريقي بالشعر الغنائي العربي، حتى إنّ بعض الفلاسفة العرب راح يقدّم شواهد من الشعر العربي على هذين الجنسين الشعريين المختلفين.

انظر: كتاب أرسطو طاليس في الشعر -شكري عياد- ص٦٤ و٦٥ و٦٦ و٦٧ و٧٤ و٧٥ و١٨٨ . . . إلخ وتلخيص كتاب أرسطو طاليس في الشعر ابن رشد -تح. وتعليق د. محمد سليم سالم -لجنة إحياء التراث الإسلامي -القاهرة -١٩٧١م -ص٥٦ هامش رقم٢.

١٣- إن الانبهار غير الإعجاب، وإن كان المفهومان يتداخلان أحياناً في الوجوه الإيجابية، ولكن في الانبهار وجوهاً سلبية ربما لانجدها في الإعجاب، وإنّ إطلاق مفهوم

الانبهار على معظم نقادنا وعلمائنا في مطلع عصر النهضة حكم فيه كثير من الإجحاف، فاذا استقرأنا مثلاً «تخليص الإبريز في تلخيص باريز» للطهطاوي، أو «الواسطة في معرفة مالطة» و«كشف المخبأ عن فنون أوربة» للشدياق، و«مقدمة ترجمة الإلياذة» للبستاني فإننا لا نقع على مواطن الانبهار، لأن الشخصية الشرقية بادية للعيان، وهي متماسكة، وكثيراً ما يعبّر الكاتب عن اشمئزازه من ظاهرة اجتماعية في الغرب، بل يلمس القارئ مواطن يتعصب فيها الكاتب لشرقيته ومعتقداته، ليصف القوم بصفات يطلقها من منظور شرقي خالص، والانبهار استلاب كلّي وتبعية. أما أن يتوقف الكاتب عند ظاهرة اجتماعية ايجابية، ويمتدحها فهذا ما تقتضيه الموضوعية والحياد والنزاهة، ولذلك لا يصحّ أن نصف أدباءنا الكبار بالانبهار. ولاسيما أمثال الطهطاوي والشدياق والبستاني.

١٤- يبدو لي أن هذا الصديق الشاعر، وهو نابغة من نوابغ العصر لم يفصح عن اسمه البستاني، هو الشاعر خليل مطران، وأرجّح أن تكون القصيدة هي «الجنين الشهيد» التي انتهى من نظمها مطران في عام ١٩٠٢، وهي في ١١٥ مخمساً.

١٥- جاء في كتاب العمدة -ابن رشيق «كانت القبيلة من العرب إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنّأتها، وصنعت الأطعمة، واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر، كما يصنعون في الأعراس، ويتباشر الرجال والولدان؛ لأنه حماية لأعراضهم، وذبٌّ عن أحسابهم، وتخليد لمآثرهم، وإشادة بذكرهم. وكانوا لا يهنّئون إلاّ بغلام يولد، أو شاعر ينبغ فيهم، أو فرس تنتج».

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

العمدة تح. محمد محيي الدين عبد الحميد -دار الجيل -بيروت -ط٥ ١٩٨١ - ٦٥/١.

١٦- انظر: الموسى، د. خليل -وحدة القصيدة في النقد الأدبي الحديث - اتحاد الكتاب العرب -دمشق -١٩٩٤م -ص ٢٦ -٢٧.

١٧- يذهب جان كوهن إلى أنّ «الشعر طبيعة سلطانية، فهو يسيطر وحده أو يتنحّى»

STRUCTURE DU LANGAGE POÉTIQUE -FLAMMARION PARIS -1966 -P.171.

١٨- البستاني وإلياذة هوميروس -ص١٠٦.

١٩- الجندي، إنعام -دراسات في الأدب العربي -دار الطليعة -بيروت - ص١٤٤.

ابـــداع

شــعر

من مأساة الرجل (صفر)

ابراهيم الجرادي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مِن   مقاصيرَ منسوجةٍ من دمي
مِن   بقايا الكلامِ
ومن خيبة الشعرِ
من يأسه
مِن   نحيبٍ علَى شرفة الكون

ابراهيم الجرادي : أديب وشاعر من سورية . عضو اتحاد الكتاب العرب ، عضو جمعية الشعر . من أعماله : « مسامير في خشب التوابيت » .

من مائه

مِن ظلال الهباء يدوّنُ أوصافَه في الهباءْ

من بقايا دمٍ عالقٍ بذويه

ومن حيْرَةِ الحبرِ

لوّثَ ألفاظَه بالجثثْ

ومن ظلمة تحجب اللّه

من ضوئها

من كلام سيرفو المديح بمعدنه

من لغات الأسى

من بقايا المحن

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ومن راعيات القطيعِ اللواتي تيمّمْنَ فيه

يقدْنَ إلى اليأس أعضاءهنَّ

ويصعدْنَ

نحوَ إلهِ المكان الذي سوف تَقْتُلُهُ بعضُ أوصافه

ومن صرخة الذئبِ

من حتفه

ومن رقّةِ الطعنِ

ومن مَكْمَنِ الظنّ

مِن كلامٍ يلوّثُ أسيادَهُ بالغوايةْ

من
هواءٍ
غريبٍ
سيفسدُ هذا المكان .
من هتافٍ جَهِمْ!
من حديقةِ أمواتنا
ومن شاعرٍ سوفَ يعبثُ بالوزن
من وطنٍ غائمٍ بالرمادْ
من أنينِ العبادِ
ومن دمعةٍ للمليكِ الأخيرِ
ومن سرِّ آبائه

http://Archivebeta.Sakhrit.com

ومن شاعرٍ هائمٍ مرتخٍ مثل أعضائهِ
ومن ناقدٍ فاسدٍ
من مكيدةِ إصرارهِ
من بقايا دمٍ سيؤنِّثُ هذا الزمان .
مِن هياكلَ مرفودةٍ بفتاتِ اليقين
ومن صيغةِ الله أرفو بها يقظتي
ومن شاعرٍ فارسٍ
سيقودُ القصيدةَ، يوماً، إلى حتفهِ
ومن سرِّهِ

ومن فتنة الشعرِ
من يدها
ومن رنّةِ اليأس في فمها
سوف أرفو المدى بحضوري
وألغي القصيدةْ

مِن أنينِ الفراتِ الذي سوف يمشي به أهلُهُ التُرُكُ
نحو حشائشهِ والسعيرْ
من نفيرٍ أخيرٍ
ومن سرِّ هذا النفيرْ!

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مِن عراقِ الأسى وعراقِ المكيدةْ
من رديفِ الخرابْ
من تدابيرِ شأنِ المذلّةِ
من حيلةِ الطاغيةْ
من خزائنِ أهليكَ منهوبةً
من رياحِ دمٍ مثخنٍ بذويكْ
من بنيكْ
من عراقٍ لنا
لا عراقٍ لهم

مِن ألِيفين يشتغلانِ على اليأسِ

من رقّة البأسِ

من شارةِ البدءْ

من فروقِ الغوايةِ

من شأنِها

مِن صراخٍ كسيرٍ يمدُّ العروبةَ بالعطفِ والظنّ

مِن لغات الجنائزِ

من إسمها

من بقايا دمٍ والهٍ دمِها

مِن مواثيقَ زانيةٍ

مِن زُناة يجيئون دوماً على هيئة الأهلِ

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

من معجم الذلِّ

ينشر أصفادَهُ في اللغَةْ

مِن مزايا دم يتزيّا بدمْ

مِن مزايا العدمْ

ومن غامض اليأسِ

من لونِهِ

سوف

آتيك مرتجلاً حكمتي

ثمّ

أفضحُ سرَّ العويلِ
الطويلْ
وأمسكُ بالعابرين / الأثاثي
وبالعابراتِ
الأثافي
وبالوطنِ المستحيل.

المكانُ، هناكَ، دمٌ عالقٌ
عنكبوتٌ يشرنقُ معنى القصيدةِ
باليأسِ
أسرعْ إلى الفأسِ
ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com
أسرعْ إلى الفأسِ
أسرعْ
إليهِ
احتطبْ بالغزالِ الشرودِ معانيكَ
واطلعْ إليهمْ كفاكهةِ الدم
لوّثْ
يديكَ
بهمْ
ثمّ رصّعْ بهذا الأسى قاتليكَ

وقل للنبيين منهم :
أهذا أوانُ نبيك!

من سادرَيْنِ عليَّيْنِ
ممّا يرى سادرانِ عليّانْ
من صريرِ مواثيقِ أنثاكَ مــن إثمــها
ومن نفحـــــةِ اللّهِ مــن صدرها
من رعاةِ الغزالِ الأليفِ ومــن خوفِـهِ
ومن ضربـــةِ الضـوءِ فــي المـــاءِ
من آخرِ الليلِ
من شرفة في أعالي السماء
أطلُّ بها والهاً مُسْتَنيراً على اللّهِ والشعرِ
أرفو
بها
رئتي
مِن قصائدِ لوركا ومن لهفةِ الناي فيها
مِن بقايا النعاسِ
ومن خيبة الأنبياء
ومن مخْمَلِ الجنسِ
مما يقولُ الأميرُ لخادمِهِ

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مِن بقايا اليقينِ

وَمما يرى العربُ السادرونْ

مِن بقايا الظنونْ

مِن نسيجِ الخيانةِ

مِن خُوَذِ الجُنْدْ

مِن ظلالٍ على الروحِ

من بابها والنفيرْ

مِن جمال الذنوبْ

مِن جهاتٍ أرى

وجهاتٍ ترى!!

ومن مُدْرِك الوقت حين تنوسُ الخليقةُ في غيّها

ومن خفقاتِ القلوبِ

ومن لهفةٍ

للسجينِ

الأخيرْ!

مِن بقايا الظنونْ

على كفنِ الظنِّ من نعشِهِ

مِن رنينِ الكهولةِ فوقَ رغائبها

مِن أنين البلاغة

يطلع نصُّ الملامةِ
من شجرٍ يابسٍ ووحيدْ
مِن صليلِ الحريقِ ومن مكمنِ الطيرِ
من جرحهِ
مِن بقايا الأسى النائمِ، الآنَ، في صدرِهِ
مِن دمشقَ
ومن شجر النعتِ
من هجرةِ الإستعارةْ
ومن عزلةِ الذئبِ
من بهجةِ الظنِّ
من وطنِ الكلبِ
من رقّةِ الطعنِ في القلبِ
آتيكَ مرتجلاً حكمتي وأمـوتْ:

تبـاً لمـن لا يصـافح أعداءنـا في الظـلام

سـأعلـنُ مـوتـي إذنْ
وأفرزُ منّي دماً أبيضَ اللونِ مثـلِ الشـمالْ

وأغسلُ فيه الغوايــةَ أهتـــــــــفُ
يا صبيَـــــةَ الضــــــدِّ يـــا مخـــــبرونَ
ويا شاعرَ المخملِ الوطنيِّ ويا وطنَ التيـــــهِ
يـــــا طفلــــــــةَ الإثـــــــــمِ:
هــلاّ فتحتم إلى اللّه نافــذةً كــي يـــــراني
على غيـرِ عادتِـــــهِ
لينسجَ ذئبُ القصائدِ رغبتَهُ في أناثي الكـــلامِ
ويكتب ملحمةً للخرابِ ويمضي بسيف الذهولِ
إلى آخـرِ القلب
ففي يا قرى
ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com
يا قصائدُ
يا ناقداً نائماً في الصديدِ ويا صقرَ يا مخبرونَ
ويا جثثاً منتقاةً ويا صاحبي يا أليفُ
ويا بَطْرَيَرْكَ المجازرِ
يا حاملَ الذهبِ الوطنيِّ
ويا متبنّي الرضا والقضا
قفوا!
لقد أسرفَ الوطنيونَ في الضدّ
لقد أسرفَ العربُ السادرونْ

مِن	تشققِ ماءِ الذهولِ بسيفِ السفينْ

مِن	حنينِ الغريبِ إلى غربةٍ ثانيةْ

مِن	بقايا الحنينْ

مِن	محابرَ فارغةٍ ونشيدٍ على جثثٍ فاسدةْ

مِن	قصائدِ دمٌ المكانِ	ومن نشــــرهِ

مِن	بقايا الكلامِ

ومن شهوةِ الضدِّ

من دمعةٍ لا تنامْ

مِن	أذانِ أليفٍ قبيلَ الأوانِ،

سيعبرُ صقرٌ على ثلةِ الجالسينَ، هناكَ،

على لغةٍ من نبوتهم

يمضي إلى حتفه شاعرُ الضدِّ

يصعدُ شعرٌ إليَّ

ويصعدُ شعبٌ إلى حافةِ النارِ

يعرفُ محمودُ درويشُ

أنَّ الثيابَ المنداةَ بالدمِ أسمالُنا

والمجازُ

زجاجٌ سيكسرهُ الرمزُ	أنَّ الأجاجْ

ملحُ أشعارِنا

خبزُها

ولحافُ	النبي.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ابـــداع

ثلاث شموع .. في ليل القدس

تغريد لطفي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

١ - رؤيـــا

كانَ في البلدةِ مَدَّاحٌ وقداحٌ.. ونايٌ وربابَهْ
كان في العَتمةِ... لصٌّ.. وعصابَهْ
وأنا .. بين الكوابيس المُدَمَّاة سجينهْ

تغريد لطفي: أديبة وشاعرة من سورية، تنشر أعمالها في الدوريات المحلية والعربية.

أمتطي الليلَ حصاناً ... ... وأرى رؤيا حزينهْ
هربَ النجمُ . . وضوءُ البدر غابْ
وتَوارتْ شمسُ قومي في الحِجابْ
لم أعُدْ أحلَمُ إلا بالبحار السبعةِ الهوجِ . .
وأمطارٍ . . وسيلٍ كالعُبابْ
علّها تُغرقُ أسرابَ الذُّبابْ
في سماءِ «القُدس» . . في أرضِ« الجَنوبْ»[1]
في الهضاب الخُضْرِ[2] . . في كل الدروبْ
علّها تَغسلُ وجهَ الشرقِ من ليلِ الرَّتابهْ
علّها . . تَمسحُ عن عالمِهِ المحزونِ . . تاريخَ الكآبهْ

***

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

٢-تكوين

«جاءَمن أقصى المدينهْ
رجلٌ يسعى» . . ولا يخشى عَدُوّاً . . أو حِمامْ
خلّفَ الزوجةَ والأطفالَ في بيتٍ من الطين . . قديمْ
جاء يبغي لُقمةَ العيش لهم من يدِ مُختَلٍّ أثيمْ
كانت الشمسُ - مع الصبح - خيوطاً من ذَهَبْ
ثُمَّ لما غرَبَتْ وقتَ المساءْ
لم يَعُدْ حيّاً إلى البيتِ . .

ولكنْ عادَ محمولاً على كفِّ الفَناءْ
عادَ محمولاً على لوحِ خَشَبْ
صادهُ الوحشُ الذي ما زالَ يُدمي «القُدْسَ»
عاماً بعدَ عامْ
ويُنادي بالسلامْ . . !
فَبَكتْهُ الزوجةُ الثكلى . . بكاهُ الزهرُ والنهرُ
وأسرابُ الحَمامْ
وبكاهُ «المسجدُ الأقصى» . . بكاهُ الحجرُ الثائرُ . .
والأطفالُ . . و«البيتُ الحرامْ»

* * *

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

٣- تحية . . !

لِعينَيْكِ يا «قُدْسُ» أكتبُ شعري المُقاتِلَ
أَنقشُهُ اليومَ في كلِّ ساحْ
لِعينَيْكِ يا «قُدْسُ» أحرقُ عودَ البخورِ غَراماً نقياً .
كوجهِ الصباحْ
أنا كُنْتُ عاشقةً . . ودَرَجْتُ على الأرضِ عاشقةً .
وسأبقى أُحبُّ الضياءَ . .
سأبقى البتولَ . . التي عن مدارِ الهوى . . لا تَحولْ
إلى أنْ أرى في مغانيكِ يا «قُدْسُ» عُرْسَ الضُّحى .

وعروسَ الأصيلْ
وأَسْمَعَ في مطلع الفجر عصفورةً.. زَقْزَقَتْ.. للهديلْ
لك الحُبُّ يا «قُدْسُ».. لكنَّهُمْ.. ما عساني أقولْ..؟
لقد غرسوا في الضفَّائرِ سكِّينَ حقدٍ..
وفي العين سكينَ حقدٍ..
وفي القلب سكينَ حقدٍ.. فأضحى السَّلامُ - مع الحقد - يا قِبلَتي
مُستحيلْ
سلامٌ عليكِ.. على البَرِّ والبحرِ.. والبُرتُقالِ المُدَمّى.
ولوزِ الجبالِ..
وقمحَ السهولْ
سلامٌ على العنب الكرمليِّ.. وليمون «يافا»..
وزيتون «عكَّا».. وتين «الخَليلْ»
سلامٌ على سَعَفاتِ النَّخيلْ
على كُلِّ طفلٍ يُقاتِلُ بالحجرِ اللّيلَ والغاصبينَ..
ليُطْلعَ فَجْراً مُضيئاً.. وصُبْحاً أَصيلْ
سلامٌ على كُلِّ مدرسةٍ في «الخليلْ»
سلامٌ على كُلِّ شاهدةٍ في «الخليلْ»
سلامٌ على كُلِّ طفلٍ هوى فوق «أرضِ السَّلامْ».
فكانَ - على العِشْقِ - أسمى دليلْ

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ابـــداع

قصـــة

ألا يحق للقلب أن يخفق؟

ARCHIVE
http://archive.Sakhrit.com

د. هيفاء بيطار

بعد أكثر من ثلاثين عاماً ، تتجسد أمامها صورة والدها مسجى في التابوت ببذلته السوداء الأنيقة وقد تصالبت يداه فوق صدره، ووضعت باقة من القرنفل الأبيض فوق صدره.. لقطة يستحيل أن تمحى من ذاكرتها ، بل إنها تشعر أن هذه

* د. هيفاء بيطار : أديبة وقاصة من سورية . عضو اتحاد الكتاب العرب ، عضو جمعية القصة والرواية . من أعمالها : «ظل أسود حي» .

الصورة تتبلور أكثر كلما تقادم الزمن عليها، تنبش هذه الصورة من أعماق ذاكرتها لتحس بدفء وعزاء عجز كل الأحياء عن توصيله إليها. إنها تعي تماماً كيف ارتبط القرنفل بالموت، فحين أقتربت من التابوت متحدية أمها لتطبع قبلة أخيرة على وجه أحب إنسان إلى قلبها، أحست أن القرنفل يذيع رائحة الموت، استندت بمرفقيها على حافة التابوت، وتدلى جذعها النحيل قليلاً ليطبع أعظم قبلة حب على جبين الأب الذي لم يعد بإمكانها أبداً أن تناديه بابا.

صدمتها برودة الجثة، شهقت ألماً وهي تتلقى الصفعة الأولى من يد الموت المثلجة. أبعدتها النسوة الغارقات في السواد جانباً، وأمرتها أمها أن تلتزم غرفة النوم مع أخيها وأختها اللذين يصغرانها، أذعنت للأوامر وهي تشعر أنها آلة تنفذ مايطلب منها. كان أخوها في الخامسة وأختها في الثالثة، جلست وسطهما وأطعمتهما وجبة الغداء التي تبرعت بها إحدى الجارات، وراقبتهما بعينين تطفحان بالحزن كيف يأكلان بشهية. كانت في العاشرة من عمرها تتلقى بصبر صفعة الحياة الأولى، وحين طلبت منها أختها أن تحكي لها حكاية علاء الدين وحبيبته ست بدور داخل السبع بحور، استجمعت قواها وبدأت تحكي بصوت مرتعش، أخذ يتشقق أكثر فأكثر، حتى اختفى متحولاً لغصة قهر حين كانت تقول، طار، طار، كانت تتخيل أن والدها يطير مبتعداً وليس علاء الدين، ويستمر في طيرانه حتى يصل إلى خط المدى حيث يتعانق البحر مع السماء، كانت تعتبر هذا الخط نهاية العالم وتسأل والدها وهي ترنو بافتتان إلى ذلك العناق الشفاف: بابا أليس هذا الخط آخر الدنيا؟ يضحك والدها وهو يداعب جديلتها الطويلة ويقول: لا ياحنان، العالم كبير، كبير.

بكى أخوها حين قالوا له أن بابا صار ملاكاً في السماء، وفي أوقات متباعدة حين يباغته شوقه الطفولي لأبيه، كان يقول: أريد أن أصبح ملاكاً. لكن المدرسة أنسته البابا. أما الصغيرة فصارت لاتنفصل عن حنان، أحست

أنها تتحول لأم مذ كانت في العاشرة، كانت تطعم أختها، وتحممها، تحكي لها قصصاً، وتخيط لدميتها ثياباً. الأرملة الشابة كانت في عالم آخر، غافلة عن أولادها، يرعبها المستقبل الأسود الذي ينتظرها وأطفالها بعد أن فقدوا معيلهم، كان التعويض الذي دفعته الشركة للمتوفى لايكفي لشراء الخبز لأسرته، كيف عليها أن تدبر أمرها؟

وبعد فترة وجيزة تزوجت كهلاً في الستين معتل الصحة، الصفقة صريحة، تهديه شبابها وسنواتها السبع والعشرين. مقابل أن يعيلها وأطفالها.

الحزن أكسب الأم القسوة، لايمكن لحنان أن تنسى ذلك اليوم الذي خاطبتها أمها بخشونه دون أن تنظر إليها قائلة: سوف أتزوج عمو كمال ياحنان.

شهقت الطفلة وقالت بسذاجة: عمو كمال صديق جدي!

زجرتها أمها قائلة: اسكتي، سيكون بمثابة والدك وعليك طاعته ومحبته.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

في تلك الليلة امتصت الوسادة دموع الطفلة التي رددت حتى هدّها الإعياء وأغفت. لن يكون بمثابة والدي أبداً

كان «عمو كمال» رجلاً طيباً محباً، وكريماً، يملك مطعماً شعبياً يدر عليه ربحاً معقولاً، وكان متيماً بزوجته الشابة التي تفشل غالباً في إخفاء قرفها منه رغم الجهود الجبارة التي تبذلها للتقرب منه، ذات يوم سمعت حنان أمها تهمس للجارة: المحبة من الله، لاأطيقه، الله يلعن الفقر الذي أجبرني على الزواج منه، تنهدت ثم تابعت من حسن الحظ أن السكر أفقده شيئاً فشيئاً رجولته وسكتت الأم حين لمحت حنان.

في ذلك الزمن، لم تكن حنان تعرف ماهية العلاقة الزوجية، لكنها كانت تتعاطف مع عمو كمال الطيب، والذي أحب أولاد زوجته كما لو كانوا أطفاله، وكانت تحس بألم من قسوة أمها وجفائها مع الزوج اللطيف لم

تكن تعرف أن نار الأهواء تغلي في صدر الزوجة الشابة وأنها منقوعة في يأسها بلا عزاء، كان حدسها الطفولي يدلها كيف أن جو البيت مشحون بالتوتر إلى أن حدث الانفجار بمجرد تفصيل تافه.

كانت ليلة عاصفة من ليالي كانون حين دخلت الجارة تحمل الكستناء لتشويها على المدفأة، وتقضي السهرة مع الزوجين الكئيبين، الحسناء التي تحرقها أهواؤها. والعجوز المريض المتيم حباً والذي ينتظر الفتات، كانت حنان تنتحي زاويتها المفضلة وتدرس للشهادة الإعدادية، حين ذكرت الجارة عرضاً، أن ابن أخي زوجها رحمه الله، تعرض لحادث سيارة ونقل إلى المشفى، ولم تكد الجارة تكمل كلامها حتى انتفضت الزوجة العاشقة وقد شحبت وتسارعت أنفاسها وأعلنت بتهور أنها ستزوره حالاً، لم تبال بنظرات الاستنكار ولا برائحة ذلك الحب الآثم الذي لم يعد يعنيها أمر انكشافه. . . لم تكلف نفسها بالرد على نظرات الزوج والجارة، والابنة المنطوية على نفسها خلف نار المدفأة التي لاتعادل نار حب أمها للشاب الذي يصغرها بأعوام.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لم يكن بإمكانها أن تفهم أبداً موقف أمها هذا، إلا بعد مرور أربعين عاماً على وقوعه، إنها الآن امرأة في الثالثة والخمسين، في الواقع لم تكن تهتم إن كان الشخص يستحق حبها، كانت تتدفق محبة مع كل من حولها دون أن تنتظر مقابلاً، حتى النباتات تعاملت معها بحب. إنها الآن في خريف العمر تفهم ماالذي اعتمل في قلب أمها منذ أربعين عاماً ليقذفها من بيتها الآمن إلى غرفة في مستشفى تضم شاباً تحبه حتى النخاع، لايمكن للإنسان أن يفهم الحب إلا حين يتأجج قلبه بالحب.

مرت سنوات حياتها أمامها كشريط باهت مشوش، مات الكهل الطيب، ، وتزوج عشيق أمها من صبية تصغره بسنوات، انكفأت الأم العاشقة تداوي جرحها وتلعن حظها العاثر، ومعتمدة على ابنتها البكر في تحمل مسؤولية أخوتها، تفاقمت كآبة الأم، حتى اضطرت حنان لاستشارة

طبيب نفساني، يومئذ كانت حنان قد حصلت على الشهادة الثانوية والتحقت بمدرسة لإعداد المعلمات للمرحلة الابتدائية، لم يعد مورد المطعم الشعبي يكفي لإعالتهم، وخاصة بعد أن استولى أخوة العجوز على معظم مدخول المطعم، كان على حنان أن تعمل بنشاط النحل وجلَد النمل لتعيل أسرتها.

تخرجت معلمة بدرجة امتياز وأغرقت نفسها بالدروس الخصوصية. كانت تلهث لتواكب طلبات الأسرة، أدوية أمها النفسية الغالية، مصروف أخيها الذي لا يرضى أن يلبس رفاقه أفضل منه وأختها التي تريد جهازاً يليق بعريس المستقبل.

استحالت حنان إلى أنثى من لطف وحنان. زوّجت أختها بعد أن قدمت لها حصيلة ما ادخرته طوال أربع سنوات من الدروس الخصوصية. الأخت اعتبرت أن قدرها أن تأخذ، وقدر حنان أن تعطي، المحزن أن حنان آمنت بهذه الحقيقة أكثر من أختها. ماتت الأم غارقة في مستنقع كآبتها بعد أن عجز الطبيب النفساني من علاجها، وتزوج الأخ المدلل من فتاة مريضة بالغيرة. كانت تتشاجر مع زوجها كل يوم وتتهمه بأنه يغازل السيدات اللاتي يصففن لهن شعورهن، كان على حنان أن تمتص شجار الزوجين كل مرة، لكن الزوجة العنيدة أصرت أن يعمل زوجها في مهنة أخرى لا تتطلب احتكاكه بالسيدات. وأخذ يتنقل بين مهن كثيرة يتركها بعد فترة وجيزة معتمداً على أخته المكوكية التي تضع تحت تصرفه كل قرش تدّخله.

كانت حنان تعرف كم هي دميمة، ولم تؤلمها هذه الحقيقة لأنها لا تملك الوقت لتشعر أنها أنثى، إنها تهدس بأولاد أخيها الثلاثة، الذين تناديهم ماما، كانت أمهم التي لم تلدهم وكانوا ينامون في غرفتها ليتركوا والديهما في عشهما الزوجي. كانت تسهر على مرضهم ودراستهم وتحيك لهم الكنزات الجميلة، ولم تخجل طوال عشرين عاماً من العيش المشترك مع أخيها وأسرته من الاعتراف بأنها غالباً لا يوجد في حقيبتها أكثر من خمس ليرات.

زجت نفسها في ديون كثيرة للحصول على المال، لشراء التلفاز الملون أولاً، ثم الغسالة الأوتوماتيكية لزوجة أخيها، ثم براد جديد بدل البراد القديم، ثم أقساط غرفة النوم للأولاد، آمنت أنهم جميعاً مسؤوليتها ولم تلم أخاها يوماً على نزقه وأنانيته كونه لايثبت على مهنة معينة، فمن بلاط إلى نجار إلى دهان . . . تلك المهنة التي استقر عليها أخيراً لكنه لايمارسها إلا بمزاج.

وحدها الدورة الشهرية كانت تذكرها أنها أنثى، وأحياناً يتناهى إلى سمعها صوت عناق وشهقات صادرة من غرفة أخيها فتحس أنها تتكمش وتتكور كحلزون داخل قوقعته تحكم الغطاء حول نفسها وتدفن جسدها في الفراش مستنجدة بالنوم.

كل يوم مرّ في حياتها كانت تفرغ ذاتها كليا لمن حولها، صديقاتها في العمل فهمنها بأنها الانسانة التي لاتطلب شيئاً لنفسها، وكن يقصدنها ويرهقنها بمشاكلهن فتصغي إليهن وتخفف أحزانهن وخيباتهن العاطفية، لم تعرف كيف تحولت من مراهقة إلى امرأة في الثالثة والخمسين.

http://Archivebeta.Sakhrit.com

عاشت عمرها على إنكار الذات، وآمنت أنها تحب أن تكون الحائط المتين الذي تستند عليه الأسرة. تذكر ذلك المساء حين عاد أخوها يغلي من الغضب بسبب غلاء الزيت، وعدم تمكنه من شراء مؤونة السنة منه، لم يغمض لها جفن، ومع شفافية الفجر الأولى، سحقت كرامتها وقررت طلب سلفة من طالباتها الثريات لشراء الزيت، ولم يحن العصر حتى كانت تحمل بنفسها خمسة عشر كيلو غراماً من الزيت ومن أجود الأنواع وهي تبتسم لأخيها، الذي لم يكلف نفسه أن يسمعها كلمة شكر واحدة، ولا أن يرد على ابتسامتها بابتسامة، لكنها لم تشك بطيبة أخيها الذي يعتبر أن هذا واجب العانس الدميمة.

يومذاك والابتسامة ترفرف حول وجهها، وحين أهدتها إحدى طالباتها الثريات غطاءً صوفياً رائعاً، لم تتردد لحظة في تقديمه لزوجة أخيها

بمناسبة عيد الأم، قبلته الأخرى وكأنه حقها. وكم قاومت حنان وخزة الألم حين سمعت زوجة أخيها تهمس لزوجها قائلة: وماذا ستفعل أختك بهذا الحرام الرائع، وهي عانس لم تدخل دنيا.

كانت سعادة حنان أن يستدفئ بها الآخرون، لم تفكر يوماً بتدليل نفسها، تعاملت مع ذاتها كعدوة، تجاوزت نفسها ولم تقدم لها سوى الضروري، وحين احتاجت للاستعانة بنظارة للقريب للقراءة، اختارت أرخص إطار للعدسات، بينما قدمت لابن أخيها ثلاثة أرباع راتبها لأنه يريد أن يتباهى بإطار عدساته! كانت سعيدة للغاية وهي ترى فرحته الأنانية.

ذات يوم قالت لها صديقتها: إنهم يمتصونك، ولن تجدي الخير منهم.

ضحكت وقد شعت الطيبة من وجهها المحتفر بتجاعيد خطها التعب والسهر طوال سنوات. قالت: إنهم مساكين يحتاجون لمن يساعدهم.

- يالك من بلهاء كيف ترضين أن تتنازلي عن حصتك من بيت أهلك لأخيك؟

نظرت إلى الصديقة بذهول وقالت: لم لا، أخي صاحب عائلة. لديه ثلاثة شبان، كيف سيضمن مستقبلهم؟

- لكن أختك المتزوجة لم تتنازل عن حصتها، برغم أن زوجها ثري؟

- إنها حرة.

- وأنت، ألا تحتاجين ضمانة لشيخوختك، إذا مرضت لن يكفيك راتبك التقاعدي ثمن دواء، هل تتخيلين أن زوجة أخيك وأولادها سيعتنون بك؟

- أتخيل ذلك، لقد كنت معطاءة معهم. لذا.

- يالك من مغفلة، ألا تعرفين المثل: خيراً لاتعمل، شراً لاتلقى.

كانت تبتسم بصفاء لايتأتى إلا من ضميرها المرتاح، ونقاء روحها، لم يستطع شيء أن يعكر ثورة المحبة في روحها، لاالفقر، ولا الحرمان العاطفي والجسدي، ولاتوالي السنوات وهي تعمل كآلة

كانت وسيلتها الوحيدة للتخفيف من انتقاد صديقاتها وفظاظة زوجة أخيها هي الفكاهة اللطيفة، إنها تفتعل إضحاك نفسها لتخفف من وطأة الأيام وثقلها على روحها، التي لاتعطيها الحق أن تئن

كانت تمتص بكل طيبة تعليقات صديقاتها الساخرات: إيه ألم يلمسك أحد؟ ألا تعرفين رجلاً؟ ألم يطلبك أحد للزواج؟

كانت تشعر بالخجل والدونية كون أي من الرجال الذين وضعهم القدر في طريقها لم يفكر بالزواج منها، ترى ماالسبب؟ كانت تقلب الاحتمالات بذهنها ولاتصل سوى لنتيجة واحدة، هي أن الكل كان يلاحظ أنها ليست ملكاً لذاتها، بل لهم، فلذات أكبادها، كيف تتركهم لأم أنانية، وأب لايعي مسؤولياته، كيف تتركهم ونظرات الحرمان في عيونهم تلاحقها؟! لاتستطيع، لاتستطيع، قدرها أن تكون جسراً يطأه الآخرون، إنهم أولادها، هذا ماتحسه، أيعقل ألا يعتنوا بها حين ستطاردها الحياة وتهددها الشيخوخة؟

http://Archivebeta.Sakhrit.com

كانت في أوقات متباعدة تتساءل ماهو الرجل؟ فتحس بشوق غامض مبهم، ماتت حاجتها لنصفها الآخر مع تعاقب الأيام، أليس الزمن مقبرة للشهوات؟ لم تحلم يوماً أن تكون بين أحضان رجل، إنها كائن لاجنسي ماكينة عمل، إنما قلب يخفق أبداً بالحب

أكان قدرها أن يتأجج قلبها بالحب وهي في الثالثة والخمسين، كان يماثلها في العمر، قريب لاحدى صديقاتها، التقته صدفة أثناء زياراتها، ولأنه خصها بنظرة طويلة، أحست أن كيانها في العمق يتزلزل، أحست بتفجر ينابيع متدفقة في روحها لم تتبين طبيعتها، حتى وجدت نفسها تعي شيئاً فشيئاً أنها أنثى، لم يخصها بالحديث، لكنه كان يطيل تأملها، ولأول مرة تشعر بنمل في راحتيها وتذكر أن لديها نهدين عذراوين، سربلهما جو من الألفة، لايوجد إلا بين صديقين يكنان لبعضهما مودة كبيرة عمرها سنوات.

تكررت اللقاءات، عرفت أنه قضى عشرين عاماً في السجن، وانه يحاول أن يجد لنفسه مكاناً في الحياةخارج القضبان.

كان يأخذها بين ذراعيه الدافئين وهو يقول: الوحدة هي السجن، وحده الحب يحررنا من السجن.

كانت تندهش لماذا تبكي في كل مرة يأخذها بين ذراعيه، بكاء صامتاً دون أن يعكر وجهها، كانت تحس أن الدموع تنزلق مذيبة تعب وحرمان سنوات طويلة.

فاحت رائحة الحب الحرام بين خريج السجون وبين المعلمة الخمسينية الدميمة. مدهما الحب بتهور المراهقين، ولم تكن تبالي بالتعليقات اللاذعة حين تزوره في غرفته الحقيرة في حي شعبي.

هددها أخوها بطردها من المنزل لأنها تشوه سمعة العائلة، حتى صديقاتها نبذنها، كانت تقرأ إدانتها في نظراتهن، وتحس أنهن يرغبن بتعليق آثامهن عليها.

لأول مرة تندم لماذا تنازلت عن حصتها في البيت لأخيها، كانت تعرف أنها لا تملك شيئاً سوى أن تحيا هذا الحب. وكانت تسأل روحها بألم: لماذا نبذني الناس لأنني أحببت؟ ترى ألا يحق لقلبي أن يخفق؟

كان يمكن أن تفهم قسوة الناس معها ماعدا موقف ابن أخيها البكر، إنه ابنها الذي لم تلده. والذي ربته حتى غدا شاباً. فاجأها وهي تنعطف داخلة الزقاق الذي ينتهي بالبيت القديم الذي يسكن حبيبها في إحدى غرفه. اعترض طريقها وعيناه تقدحان شرراً قائلاً: إلى أين؟

لم تستطع أن تواجه الأذى في عينيه بالمثل، إنها تحبه رغماً عنها، قالت: أتتبعني؟

قال: إنسانةساقطة مثلك يجب أن أربيها.

صعقها كلامه، فغرت فاها وهي تردد غير معقول، امسكها من ساعدها بقبضته الحديدية وقال: هيا إلى البيت.

دفعته من صدره وهي تقول بحزم: ابتعد من طريقي، لاعلاقة لك بي.

هوت صفعة مدوية فوق خدها، جعلتها تترنح وتفقد توازنها للحظات، ولولا قربها من جدار عتيق اسندها، لكانت سقطت أرضاً، فوجدت نفسها تصرخ بلوعة: أتضربني ياكلب، لحم أكتافك من تعبي، تقرحت معدتي من شرب القهوة، وأنا أدور من بيت إلى بيت أدرس التلاميذ لأقدم لك المال لتشتري حذاء إيطالياً، وبيجامة رياضية، ونظارة شمسية... من درسك دروسك يانذل حتى حصلت على الشهادة الثانوية بمجموع ممتاز؟... أتضربني، أتجرؤ أن تمد يدك على عمتك!

تجمهر البسطاء حول الشاب الأنيق مفتول العضلات، والعمة الخمسينية البائسة، رفعت عينيها الدامعتين لتطالعها وجوه ذابلة بدت كأنها مرسومة على سطح الماء، سأل رجل خرج من قلب الجمهرة: خير ما القصة؟

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

قالت وهي تلمح الذعر في عيني ابن أخيها: لاشيء أبداً، لاشيء، مجرد سوء تفاهم.

استجمعت قواها وطلبت من الناس أن ينفضوا، قالت: مجرد سوء تفاهم كما قلت لكم بين أم وابنها...

سمعت تعليقاً ساخراً: لم نر ابناً يضرب أمه من قبل.

انسحب ابن أخيها بخطا واسعة، تاركاً إياها وحيدة تلملم ذاتها المبعثرة في الزقاق، أغمضت عينيها هاربة من المكان وناسه، تحت أجفانها ارتسمت صورة والدها مسجى في التابوت وقد ضم باقة من القرنفل الأبيض بين يديه، كان وجهه الأقرب إلى روحها، أمكنها أن تحس في رقاده وفي إغماض عينيه أنه يباركها ويشجعها على عيش الحب الذي لاقيمة للحياة من دونه.

ابـــداع

السباحة في الاتجاه المعاكس

اسكندر نعمة *

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تلك الليلة لم يعرف النوم إلى عينيّ سبيلاً... قضيتُ ساعاتها المديدة معلقاً من أعصابي ... تطوّح بي الهواجس الممزقة كما تشاء... ألقيتُ بجسمي على الفراش في غرفتي الصغيرة، رقدْتُ على ظهري في محاولةٍ لاستجماع أشتاتي المبعثرة، لقد التمعت في قاع

---

* اسكندر نعمة: أديب وقاص من سورية، عضو اتحاد الكتاب العرب، عضو جمعية القصة والرواية. من أعماله: «عيون تعشق المطر».

وجداني ونفسي جميع الوقائع بكل تأكيد ووضوح . . . أنا واثق من معرفتي، أعرف جيداً ماحصل وكيف حصل . . . كان يتملكني إحساس عجيب بالضيق والخوف، يداهمني ذلك الإحساس على هيئة هلوسية محيرة جيداً تكاد تفقدني رشدي . . . عندما تستبد بي الهلوسة، كنت أتصور جسدي ممدداً على قارعة الطريق الإسفلتية، وعجلات سيارة معروفة الهوية تتلذّذ بدعسي وتحطيم رأسي وصدري .

* * *

كان الصّباح مايزال مبكراً، وكنتُ أقف بثبات على ذلك الرصيف عند ذلك التقاطع الخطر . . . لم تكن قطعان السيارات قد بدأت ترعب الشوارع بعد . . . وكان الضوء الصادر عن إشارة المرور أحمر . . . كنتُ أحدّقُ ملياً بالضوء الأحمر منتظراً غيابه كي أعبر الطريق . . . لم يكن ثمّة سيارات أخرى في الطريق المعاكس . . . التمع النور الأخضر أمامي آمراً السيارات بالتوقف، كنت منهمكاً باشعال سيجارة من ولاعة قديمة قد استعصى عليها اللهب عندما بدت لي سيارة بيضاء أنيقة تتهادى من أول الشارع . . . إلا أن الضوء قبالتها كان أحمر، اقترب شرطي المرور وأشار للسيارة الفخمة أن تتوقف . . . أخذتني المفاجأة . . . كان طفل يحمل على ظهره حقيبته المدرسية، يضحك للحياة مل‌ء عينيه، ويعابث الرّصيف بقدمين غضتين . . . عند المكان المخصّص لعبور المشاة، نزل من الرصيف تتملكه طمأنينة وهدوء كبيران، ومضى بخطوات طفلية باتجاه الرصيف المقابل . . . تسمرتُ في مكاني على الرصيف . . . لفتني المفاجأة بذهول مرعب . . . صحتُ بالطفل المطمئن . . . السيجارة بين شفتيّ، والولاعة الحرون بين أصابعي . . . شاهدت شرطيّ المرور يرفعُ يده ويبحلق في خوف واستنكار . . . لم يكمل الطفل عبوره فقد اندفعت السيارة البيضاء نحوه بسرعة جنونية، وقذفت به إلى أشداق الموت، وداست عليه كقطعة فاكهة فاسدة ملقاة على صفحة الإسفلت الأسود . . . مرق الموت الأبيض ضاغطاً من سرعته ولاذ بالفرار . . . كان الموت على هيئة شاب قد أرخى

شعره على حاجبيه وكتفيه، وحلقات الدخان تتصاعد من شفتيه . . . لقد فرَّ الموت تاركاً حطام الطفل يتبعثر على قارعة الطريق. ولكن قبل أن يختفي الموت، استطاع شرطي المرور أن يلتقط رقم السيارة الآثمة . . . . . أيقظتني من هول المفاجأة الشرسة لكزات الشرطي المزمجر مُهدداً متوعداً . . . صاح بي: «ستكون شاهد عيان . . المجرم يعتقد أن فراره سينقذه . . مصيره في يدي» . . ودون تفكير مني استنطقني اسمي ودوّنه إلى جانب رقم السيارة .

بعد ساعات قليلة أُلقي القبض على الموت الأبيض الذي تبيّن أنه لايحمل إجازة لقيادة السيارة، وأنه قد استقل سيارة أبيه الذي يُشغل منصباً كبيراً في أجهزة الدولة.

* * *

لم إستطع الهدوء على فراشي . . . فككتُ أزرار سترتي . . . كانت الغرفة تزداد ضيقاً حتى كدت أشعر بالاختناق، إلا أنني لم أشعر برغبة في القيام عن الفراش . . . تقلبتُ بعنف وضجر . . . عيناي تحدّقان بالسقف، وأعصابي تكاد تنقطع من شدة التوتر . . . حاولت الهرب من نفسي، فاستعصت عليّ النجاة . . . كان كل شيء فيَّ يُعيدني إلى ساعات الصباح . . . الرّصيف - الولاعة القديمة - شرطيُّ المرور - الطفل الحالم - السيارة الأنيقة - الموتُ المارق - الجثة المدماة . . . . عبثاً أحاول الهروب فتخونني الوسيلة، حتى قدماي عجزتا عن المسير . .

كل شيء يشدني إلى الصباح، والصباح يقودني إلى الظهيرة . . . في ظهيرة ذلك اليوم . . . بدأت ضغوط شديدة تمارس عليَّ . . . توسّلاتٌ . . . . تهديداتٌ . . . تلويحٌ بعطايا ومغريات كثيرة . . . .

مستقبل الفتى بين يديك . . . الشابُ وحيدُ أبويه، طالب جامعي، أمامه مستقبل واسع . . . لقد وقع قضاء الله وقدره . . . ليس مطلوباً منك إلا أن تقرر وتؤكد أن الإشارة باتجاه السيارة لم تكن حمراء، وأن خطَّ المرور كان مفتوحاً للفتى المدلل، وأن الطفل لم يسمح له طيشه وعبثه أن يتحرّز أثناء عبور الشارع، يسيطر عليهم اللهو والعبث، أهلهم وحدهم يتحمّلون

مسؤولية ماجرى. . كيف يتركونهم يذهبون منفردين!!! . . . لمَ لايرافقونهم إلى المدرسة!؟ . . .

اشتدّ الحصارُ من حولي، وأحكم الطوقُ على صدري، وكنتُ كلّما ازدادَ الإلحاح وأحكمت المحاصرة ازددْتُ إصراراً وتشبّثاً بموقفي. . وأخيراً لذتُ بالصمت. . الصمت المطبق الحزين. . .

جاءتني أمّه ترجو، امرأة شابّة هيفاء القَد، شاحبة الوجه، تدخنُ بعصبية وشراهة. . . تتوسَّلُ إليّ بانكسار، وتصيح بمن معها صيحات غاضبة حادة. . . خاطبتني بصوت آسر. . . «الإشارة لم تكن حمراء. . أليس كذلك. . لا لم تكن حمراء. . . فقط هذا كل شيء. . . كل مايُطلب منك. . . كلمة صغيرة وينتهي كل شيء. . . كلمة صغيرة يتوقف عليها مستقبل الطالب. . الطفل ذهب إلى قدره، وانتهى كل شيء». . . . خرجت الكلمات الأخيرة من بين شفتيها واهنة هامسة، وثبّتت عليّ نظرات كانت مزيجاً من الرجاء والتوسل واللهفة. . .

ازداد وجهي احتقاناً، ودخلت في سرداب الصمت أكثر، كنت أمضغ نفسي من الداخل، واجترُّ ذكريات الصّباح الأليمة، فينصبُ الإنسان في داخلي عملاقاً. . . لا. . . لا. . الإشارة كانت حمراء، والطفل ذهب ضحية عبث ابن المسؤول الكبير ورعونته.

اقتربَ مني المحامي. . . كان يصطحب السيدة الأنيقة. . لعلّه أدرك بحدسه الخاص أن التعامل مع أمثالي يحتاج إلى جهد أكبر، وإلى أسلوب آخر من المراوغة والاحتيال، والضّرب على حوافي الجرح النازف أبداً. . . نظر إليّ نظرة احترام وإكبار. . . تجاهلته بادئ الأمر. . ولذتُ بصمتي وشرودي، ربت على ذراعي اليمنى وراحَ يُشعل سيجاراً طويلاً استلّه من محفظته. . صبَّ نظراته في عيني. . . حاولت أن أهرب من عينيه فلم أتمكن. . . نطق أخيراً وقال باتزان يحطّم الأعصاب: «فكّر جيداً. . . أغمضْ عينيك، واستعرض شريط الأحداث في مخيلتك». . . كان يتكلم بتعالٍ مثير مَقيت. . . تابع بعد أن ازدرد ابتسامة صفراء كادت تعلو

شفتيه . . . «لابدّ أنك لم تكن تدرك تماماً ماذا حدث . . . كنت غارقاً في ذاتك، مشتتاً مع همومك اليومية الثقيلة . . . كلنا غارق في متاهة حياته الصعبة، فلا نكاد نعرف مايجري أمامنا . . . الإشارة كانت خضراء، أليس كذلك؟! . . لم تكن حمراء أبداً . . . . أنت لم تنتبه . . . . أنا متأكد من ذلك . . . كنت تفتّش في ثنايا نفسك عن موقف ما، غارقاً في صعوبات حياتك اليومية . . . ما أقسى هذه الحياة . . . تجعل الإنسان شارداً، ذاهلاً على الدّوام . . . ولكن يجب على المرء ألا يُخطىء في حقّ الناس لقاء ذهوله» . . .

أخذ المحامي نفساً عميقاً من سيجاره وزفره بقوة فملأ الدخان أرجاء الغرفة الصغيرة . . . حدّق بي بشراسة وتجهّم وصَمَتَ . . . تاركاً لي فرصة التفكير في كلماته . . . امتص نفساً عميقاً آخر وتابع كلامه والدخان يتماوج من بين شفتيه الصارمتين . . . «أنت متأكد أن الإشارة قبالة السيارة لم تكن حمراء . . . لابدّ أنك تذكرت الآن، نعم الإشارة لم تكن حمراء . . . هكذا أفادَ الشرطي بعد أن صحا من المفاجأة وعاد لذاكرته، أكدَ أن الإشارة لم تكن مطلقاً حمراء، وأن السيارة لم تخطىء، والطفل المسكين كان يعبث فلم ينتبه للسيارة والإشارة» . . .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ابتسم ببهلوانيّة غريبة، وأشرقت عيناه بمهارة وخبث لاعهد لي بهما . . اقترب مني أكثر وقال بتصميم ووقار: «فكرّ جيداً، ونحن رهن إشارتك، ستصلكَ النقود في مغلّف مغلق، ولن يدري به أحدٌ، سيظلُّ الأمر حبيساً بيننا، وتنتهي المشكلة . . . لقد طلبتُ من قاضي التحقيق أن يؤجّلَ إفادتك كشاهد وحيد إلى الغد» .

* * *

السرير يئنُّ تحتي كلّما تحركتُ، كنتُ أتقلب بعصبيّة . . ارتسمت كلمات المحامي أمامي كشبح مخيف . . . رأيتُ الشبّح يبتسم . . . لقد أحدثت كلماتُه فيَّ اضطراباً مُمزِّقاً لاقبلَ لي باحتماله . . . الشهادة غداً في الصباح . . الإشارة لم تكن حمراء أليس كذلك؟! . . ستصلك النقود في

مُغلّف مغلق . . النقود . . . النقود . . . ولكن الإشارة كانت حمراء، حمراء بلون الدم، وأحاسيسي لاتزال تحتضن جثة الطفل الصغيرة، والدمُ اللزجُ لايزال يغلّف شعوري بالألم والحزن المتدفق.

أشعلتُ سيجارتي بعنف وعصبية محاولاً أن أبعدَ عن نفسي مشاعرها، وبأصابع متشنّجة شددتُ ياقتي عن عنقي . . . كان العرق يتصبب عن وجهي وتتدحرج حبّاته على صفحة ظهري وصدري . . .

أصحيح ماقاله المحامي؟!! هل كنتُ ساعتئذ ذاهلاً شارداً فلم أنتبه لشيء؟؟!! لست أدري! . . . قد يكون ذلك صحيحاً! ! . . . حقاً إن الحياة قاسية . . . تسحق الإنسان . . . الإنسان مَسُوقٌ للشرود والذهول دون أن يدري . . . كثيراً مايغرق الإنسان في ذاته متأملاً مفكراً فلا يدري مايجري حوله . . أيكون الطفل طائشاً، وطيشه ساقه إلى حتفه . . . لا . . . لا . . أبداً . . . أنا نفسي كنتُ على وشك أن أقطع الشارع إلى الجانب الآخر . . . الضوءُ قبالتي كان أخضر . . . لكن الولاعة العتيقة أنقذتني فتأخرتُ . . . أكان مُقدراً لي أن أكون مع الطفل جثة هامدة تعانق إسفلت الشارع . . . ياللهول . . . لقد تدخلت المصادفة فأنقذتني، وراح الطفل ضحية رخيصة . . . شكراً لك أيتها الولاعة العتيقة . . . . إذن الضوء قبالة السيارة كان أحمر، والسيارة جانيةٌ وسائقها قاتل . . . المحامي قال لي . . . تذكر جيداً . . . الذهول . . الشرطي . . المغلف المُغلق . . . آه أكادُ أتقيأ نفسي بعد أن ابتلعني الضّياع .

كانت ليلة بلا نهاية . . . اعتصرني الالم والتردد فكادا يزهقاني . . . لم يلمس النوم عيني . . . كنت طوال عمري في عزلة عن مشاكل الناس . . . هاأنذا في قلب الدوامة . . . أدرتُ وجهي للحائط وأطفأت المصباح، وأغمضتُ عينيَّ في محاولة للنوم . . . ارتسمت الأشباح أمامي . . . أشباحٌ مُرعبة . . . الهواجس ذاتُها تدور بضراوة في داخلي . . . السيارة الأنيقة . . السائق الأرعن . . الطفل . . الرصيف . . الولاعة العتيقة . . شرطي المرور . . المغلف المُغلَق . . السيدة الأنيقة . . الشرود والذهول . . .

نهضتُ كالمجنون.. فكرت فيما سأقوله غداً.. أضأتُ المصباح من جديد... واقتعَدْتُ جانب السرير... لفتني الأحلامُ بجوانح مذهّبة فامتطيتها... ورحت مُحلّقاً..

لماذا لاأحسمُ هذا الصراع الممزّق؟؟ أحاربهم بنفس سلاحهم.. أطلبُ عن موقفي ثمناً باهظاً... إن الحياة صفقات!! فلأربح الصفقة... أليسوا يفكرون بهذا المنطق؟! الشرطي كان يهدد ويزمجر!! لاشك أن مُغلّفاً مغلقاً قد سقط في جيبه... يجب أن أخرج من الدوامة غانماً... إنهم ينتظرون أن تتحرك شفتاي بكلمتين صغيرتين... إنهم تحت قبضتي الآن... فلأشدد الخناق عليهم... لأساومْ... لأُدرِ اللعبة كما أشتهي، وأخرج بالنتيجة ظافراً مليء الجيوب... سأودّعُ الفَقر، إنهم يصفونني بالذهول والشرود... سألغي هذا الشرود... سأخرج من عزلتي، سأسبحُ مع التيار، سأبتاعُ ماتبقى لي من عمري... سأقول لغرفتي الحقيرة هذه وداعاً... سأبدأ من جديد...

تصوّرت جيوبي منتفخة... راح خيال المغلّف المَغلقِ يلاحقني.. أُغمضُ عينيَّ فيبتسم لي... أحدقُ في كل مكان فيرتسم أمامي...

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أشعلت سيجارة أخرى ورحت أدخّن بشراهة فظّة... كان الدخان يمزّق حنجرتي، فأشعر بحشرجة مع كل نفس أنفثُهُ.. غمرني شعور بالحيرة ردّني عن أحلامي المجنّحة، وقادني إلى إحساسٍ بالتفاهة... سلخ الدهر من عمري خمسين سنة طويت في أحضان السذاجة والسكينة... لم أرتكب في حياتي إثماً، كما لم أقم بعمل خارق، عشتُ الحياة على هامشها، كنت جزءاً من غرفتي البالية، وولاعتي العتيقة... ولكنني من خلال سكينتي هذه لاحت لي أشياء كثيرة، واكتشفت المزيد من خفايا الحياة... وضعتُ يدي على بعض أسرارها... تكشّفت لي وجوه قبيحة وعواطف ذئبية... رأيت التلاعب والكذب والخداع، كل شيء يجري في لجة الصمت، ويبرزُ فجأة حقيقةً عاريةً شامخةً...

وقفتُ طويلاً على ضفة التيار... عليَّ أن أفعلَ شيئاً.. أأقفز إلى

الضفة الأخرى وينتهي كل شيء . . . أم أبقى حيث أنا وابتعد عن الأمواج . . . عاد التردُّدُ يأكلني من جديد . . . سحقتُ بحذائي عقب سيجارتي الأخيرة ، زيّنتُ به أرض غرفتي القذرة . . . كانت الضفّة الأخرى تبدو لي سوداء مرعبة ، تنتشرُ في رحابها مستنقعات ومطبّات . . . أدرت ظهري وقد أحسست برغبة في البكاء . . . غُصّةٌ تتمرَّغُ في حلقي . . . طوفان داخل صدري يضغط أضلاعي ، يبحث عن مخرج . . . هربتُ إلى النافذة الصغيرة ، فتحتُها وأشرفتُ منها على الليل . . . المدينة الهاجعة . . . . الحياة المصطرعة . . . .

تلاحقت أنفاسي ، وتفصّدَ العرق غزيراً من كل مسام جسدي . . من مكاني أمام النافذة شاهدت هوّة سوداء سحيقة تحيط بكل شيء . . . وفي قاع عينيَّ المُحلقتين ارتسمت لوحة الحياة على حقيقتها . . . ساورني شعور عارم أن أصيح في جوف الليل الساجي : «أيّها الناس ، أبعدوا عني محبّتكم الزائفة ، ومودتكم الخبيثة . . . لن استحمَّ على شاطئكم المُترع بالمستنقعات والأشواك ، فأنا لم يبقَ لي من حياتي سوى كبرياء جريحة» .

كانت جفوني قد هدّها الإعياء والنعاس . . . فأغلقتُ نافذتي وجررت ساقيَّ إلى سريري العتيق .

* * *

في الصباح الباكر نهضتُ مُحطَّماً من صراع الأمس . . .

في غرفة قاضي التحقيق ، كان المحامي ينتظر . . . كلٌّ منهما استقبلني ببشاشة مغرية وابتسامة مُذهلة . . . . وعندما أنهيت كلامي خرجتُ مُشيَّعاً بنظرات تتهدَّدُ وملامحَ تتوعَّدُ

لقد قلتُ : كانت الإشارةُ حمراء .

* * *

الرواية العجائبية

محمد عزّام

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

هي نوع من الأدب الميتافيزيقي الذي ينطوي تحت عنوانه عدد من الأنواع الأدبية الأخرى، مثل: الحكاية، والخرافة، والأسطورة، والعجائبي ... الخ. ازدهرت في القرن الثامن عشر في انكلترا. ويمكن ايجاز خصائصها في:

* محمد عزّام: أديب وباحث من سورية، عضو اتحاد الكتاب العرب، عضو جمعية النقد الأدبي. من أعماله: «النقد والدلالة».

١ - موضوعاتها تدور حول الشياطين والسحر والموت والأشباح ومصاصي الدماء.

٢ - تدور أحداثها في الأماكن المهجورة، والخرائب، والأطلال، والقلاع القديمة...

٣ - يتردد القارئ فيها بين التصديق والتكذيب، قبل أن يسلّم بصحة أحداثها الغريبة، لأن الكاتب يتخيل فيها أحداثاً ممكنة، ولكنها بعيدة عن الواقع، وخارقة للعادة.

وقد توضحت معالم الرواية العجائبية مع كاتبين متعاصرين هما: الألماني هوفمان Hoffmann والأمريكي إدغار ألن بو. وإذا كان هوفمان قد ركّز على تصوير أحداث مشاهده العجائبية في إطار واقعي، يرسم فيه ملامح الوسط الاجتماعي خلال القرن ١٩، مما يجعل العالمين: الواقعي والخيالي يمتزجان في أدبه، فإن بو يركّز على الشخصية الرئيسية، فيصور تفصيلاتها في العالم التجريدي، متخذاً العلم التجريبي والمراقبة الدقيقة، وسيلة إلى تصوير أزماتها الروحية والنفسية.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وقد استمر أثر هذين الكاتبين في معاصريهما والمتأخرين عنهما، ونتج عن القصة العجائبية نوعان من القصة هما:

القصة البوليسية، والقصة العلمية التي تطورت إلى قصة (الخيال العلمي) Science-Fiction المعروفة اليوم، والتي ورثت القصة العجائبية.

وإذا كانت (الرواية العجائبية) قد بدأت في القرن ١٨، فإنها استمرت خلال القرنين ١٩ و ٢٠. وبرزت فيها أسماء عديدة مثل هوراس وال بول في روايته (قلعة اوترانتو) ١٧٦٤، وآن رودولف في (خفايا اودلفو) ١٧٩٤، وم ج. مونك في (الراهب) ١٧٩٦، وماري شيللي في (فرانكشتاين) ١٨١٨، وبرم ستوكر في (دراكولا) ١٨٩٧... الخ.

ولعل قصة (الراهب) التي وضعت عام ١٧٩٦، ولكنها لم تُنشر إلاّ في عام ١٩٠٤ أكثرها سادية جنسية. وقد كان مؤلفها نفسه غلمانياً سادياً. عاش ومات في عذاب هائل بمرض الحمى الصفراء. وتحدثنا الرواية عن رئيس الرهبان (القديس) الذي يحتفظ بذكائه وطهره في انعزاله عن الآخرين. ولكن أحد رهبانه يقع في غرامه. ومن هنا يبدأ سقوطه، إذ يتكشف الراهب عن فتاة يقضي وطره منها، ثم يخطط للإيقاع بغيرها، فيغتصبها، ثم يقتلها، كي يخفي إثمه، ويقتل أمها كي يخفي جريمته. وهكذا تتكرر سلسلة الجرائم والآثام.

وتغّص الرواية بالغيلان، والعفاريت، وأساليب محاكم التفتيش الجهنمية، والتعذيب والشياطين. وقد ألهمت هذه الرواية الكثير من الكتاب: شارلوت برونتي في (مرتفعات وذرنغ)، وماري شيللي في (فرانكنشتاين)... الخ.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

* * *

ولعل ادغار ألن بو (١٨٠٩ - ١٨٤٩) E.A.Poe الكاتب والشاعر الأمريكي يأتي في مقدمة كتّاب الرواية العجائبية، حيث وصف القلاع القديمة، والغرف ذات القضبان الحديدية، في قصصه المرعبة: الملتقى، وقناع الموت الأحمر، والحفرة، والنواس... الخ.

وفيها يصف أثرياء منعزلين، يتسمون بالغموض، ويعانون من الأمراض العصبية التي تجعلهم يشرفون على الجنون، ومعظم بطلاته من الفتيات ذوات الجمال البريء النادر، وهن يواجهن مصيرهن في سن مبكرة، وفي أجواء غامضة، حتى أن الرواية البوليسية التالية تدين له بالكثير.

كما كان بو شغوفاً بالعلم، وبخاصة علم الفلك، فكتب قصصاً وكتباً علمية، منها كتابه: (يوريكا) ذو المضمون العلمي عن المريخ، ويرى فنسنت بورانيللي الذي وضع كتاباً عن إدغار ألن بو (القصصي والشاعر)[1]، أن

كثيراً من الفقرات التي وردت في كتابه (يوريكا) تبدو للقارئ اليوم وكأن كاتبها عالم من علماء القرن العشرين، كما كانت آراؤه عن البديهيات والثبوت سابقة لمنطقنا الرياضي ... كما أن العبارة التي يؤكد فيها أن عالم النجوم محدود تبدو وكأنما هي صادرة عن آنشتاين الذي يقول: «إن العالم لا حدود له، ومع ذلك فهو محدود»

وقد ألهمت قصصه القوطية والعلمية رائدي الخيال العلمي في الأدب: الفرنسي جول فيرن، والإنكليزي هـ. ج. ويلز.

* * *

ومن كتّاب (الرواية العجائبية) الأمريكي هوارد لافكرافت (١٨٩٠-١٩٣٧) H.lovecraft الذي شنّ بعصبية هستيرية حرباً شعواء على المدنية والمادية. وهو شخص مفزع ومريض، أوثق علاقاته بالقاتل المشهور في دوسلدورف الذي اعترف بأنه قضى أيامه في الحجز الانفرادي في التفكير بالممارسات الجنسية السادية. ومثله فعل لافكرافت، فقد رفض المعقولية، وانعزل عن الواقع، ليكتب القصص فوق الطبيعية، والحكايات المرعبة التي يهدف إلى إفزاع قرائه. وقصصه تدور في الأمكنة البعيدة، وتصف قوى غريبة مدمرة، وأشباحاً، وغيلاناً، وعفاريت، وغوريللات ذات أصل نصف بشري، تعيش في خرائب مهجورة

في قصة (الصورة التي في البيت) ١٩٢٤ يصف عجوزاً يعيش وحيداً، ويقرأ في كتاب عن أكلة لحوم البشر، حتى يصبح هو نفسه من أكلة لحوم البشر، حيث يتأمل محل جزارة أكلة لحوم البشر.

وتنتهي القصة نهاية غبية، حيث يصعق البرق بيته، فيشاهد دماً ينزف من السقف.

وفي قصته (رعب دانويچ) يستعيد رغبة الأقدمين في السيطرة على

الأرض، من خلال السحر والرعب والإلحاد . وهو يترسّم خطا إدغار ألن بو، ولكن قصصه العلمية ليست مكرسة لتصوير الانتصار العلمي الذي حققته البشرية، فقد كان يهدف إلى نسف الكبرياء البشري وادعاء الانسان بالمعرفة العلمية، ففي قصته (لون من الفضاء) يهبط إلى الأرض نوع من السحاب الذي يمتصّ الحياة من الكائنات الحية، ويعود إلى الفضاء .

وفي روايته (ظل من الزمن) يتصوّر أن الأذهان يمكن أن تخرج من الأجسام بدافع الإدراك الغريب . ويروي القصة أستاذ فقد ذاكرته فجأة، ولم يستعيدها إلا بعد سنوات عديدة . وفي الوقت الذي كان فاقداً ذاكرته استمر في حياته بصورة عادية . ولكن أسرته كانت تشعر أنه أصبح (غريباً)، ثم يعلم القارئ أن عضواً من أعضاء مدينة كانت تعيش في ماض سحيق استعار جسم الأستاذ . وبينما كان ذلك (الغريب) يقوم ببحث في أمريكا القرن العشرين كانت روح الأستاذ منفية إلى الماضي السحيق، تحتل جسم الغريب . وحين تعود ذاكرة الأستاذ إليه لايستطيع أن يتذكر شيئاً عن السنوات الماضية، إذ أن الكائنات الغريبة تفرض عليه النسيان . ولكن ذلك النسيان لم يكن شديداً إلى درجة تمنعه من الظفر ببعض الأحلام عن المدينة التي كان قد نُفي إليها .

وعندما يشترك الأستاذ في حفريات آثرية يكتشف علامات تشير إلى المدينة المختفية التي كان يراها في أحلامه، فيخرج في إحدى الليالي من معسكر التنقيب، ليعثر على مدخل يقوده إلى قصر تحت الأرض، فيجد نفسه في مدينة أحلامه . ويتجه نحو المكتبة التي يدرس فيها في فترة نفيه، فيتناول دفتراً من إحدى الخزانات ليجد خطه وكتابته بالإنكليزية على هامش ذلك الدفتر .

* * *

أما الكاتبة الانكليزية ماري شيللي M.W.Shelly فقد ابتدعت

شخصية (فرانكشتاين) التي هي من أبرز معالم القرن العشرين. وكانت ماري قد ولدت من أم كانت رائدة للحركة النسائية في عصرها، وأب كان معروفاً بمعتقداته الثورية المتطرفة. وبعد ميلادها بعشرة أيام توفيت أمها، فكانت طفولتها منعزلة حالمة بشخص تحبه، حتى قيد لها الشاعر الرومانسي شيللي Chelly فأحبته، وفرت معه إلى سويسرا حيث التقيا بالشاعر الرومانسي بايرون.

وأما روايتها (فرانكشتاين) Frankenstein ١٩١٨ (أوبروميثيوس العصر الحديث) فقد كتبتها إثر حلم أيقظها من نومها، فأمسكت ورقاً وقلماً وشرعت في كتابة القصة التي تروي إعادة خلق البشر، فقد أعاد البارون فرانكشتاين خلق شخص مجرم يثير الرعب أينما حلّ، جمعه من بقايا آدمية، ثم طلب من أحد القتلة المأجورين أن يأتيه بجسد مات لتوّه، فأقدم القاتل على قتل طفلة بريئة، نزع البارون قلبها الذي توقف عن النبض منذ دقائق، ووضعه في محاليل كيماوية، ثم قام بتوصيله بوساطة الضغط الهوائي، فبدأ القلب ينبض.

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

لكن الشرطة عندما علمت بالحادث هاجمت منزل البارون فهرب مع مساعده (هانز). وبعد أيام عاد لاستكمال تجربته، فنجح في ضخ الدم إلى القلب، ودبّت الحياة في المخلوق الذي بدا كوحش عملاق ذي قوة هائلة.

ولكن الشرطة داهمت المختبر مرة أخرى، فأصيب مخ المخلوق الجديد بطلق ناري، فغدا بدون عقل. ففكر البارون في السيطرة عليه من خلال التنويم المغناطيسي، حيث اتفق مع أحد المنوّمين في السيطرة عليه. ولكن المنوّم دفع بالعملاق إلى السرقة والقتل. وعندما عرف البارون بذلك قتل المنوّم. ثم يفاجأ البارون بأن وحشه الضخم قد أصيب بالجنون، فحطم كل شيء أمامه، وأحرق نفسه والبارون وقصره.

* * *

وأما الكاتب الأمريكي آيراليفين فله رواية (طفل روز ماري) ١٩٦٩ وهي قصة رعب، تتبنّى فلسفة الشر، فالكاتب يتصور أن إبليس أنجب في سنة ١٩٦٦ ابناً من امرأة بشرية تدعى (روز ماري) فأصبح الابن رسول الشر والأذى، واتخذ من مدينة نيويورك بديلاً لمدينة (بيت لحم)، وأعلن أن عصر الخير قد انتهى، وأن عصر الشر قد ابتدأ. وقد تحولّت هذه الرواية إلى فيلم سينمائي.

وهنالك نوع من (الرواية العجائبية) عنّي بملاحظة الظواهر الغريبة كالسحر والشياطين، والقدرات الروحية الخارقة.

كما نجد في رواية (طارد الأرواح الشريرة) للكاتب الأمريكي وليم بيتر بلاتي W.P.BLATTY حيث (ريجان) الفتاة ذات العشرة أعوام تعيش مع أمها الممثلة (كريستين) المطلقة، في منزل بضاحية واشنطن، حيث تمثل الأم فيلماً هناك. وتلاحظ الأم ظواهر غريبة على ابنتها: ففي ليلة عيد الميلاد تدخل الطفلة إلى القاعة، وهي ترتدي قميص نومها، وتقول لأحد الحاضرين: سوف تموت في الأعلى. وبالفعل فإنه يموت في رحلته الفضائية. ثم تتحول من فتاة رقيقة إلى فتاة بذيئة الألفاظ، سليطة اللسان، تنبعث من عينيها نظرات مخيفة، وتنطلق من لسانها ألفاظ سوقية، وذات صباح يعثر على جثة مخرج الفيلم الذي تقوم الأم بدور البطولة فيه، ورأسه ملتوية إلى الخلف، كما يحدث لضحايا الشياطين في الحكايات الخرافية، فتدرك الأم أن هنالك علاقة بين مصرع المخرج ونافذة ابنتها المفتوحة. وهنا تلجأ الأم إلى رجل الكهنوت (داميان) الذي يستعين بدوره بالأب (كراس) لطرد الشياطين من جسد الصغيرة. لكن الشيطان لايمكن أن يغادر جسمها بسهولة، ويشترط أن يخرج من جسدها مقابل حياة أحدهم، فيفتديها الأب (كراس)، ويموت، ليخرج الشيطان من جسم (ريجان).

* * *

أما رواية (كاري) للكاتب الأمريكي ستيفن راشيل كنج S.R.King فتتناول ظاهرة أثبتها العلم هي القوى الكامنة (أو الـ Telekinsis) التي تجعل أصحابها قادرين على تحريك الأشياء بمجرد تركيز أفكارهم عليها، وتحطيم الزجاج بمجرد النظر إليه، وإدارة المروحة بالإشارة إليها... الخ.

ويضع الكاتب هذه القوى في الفتاة الصغيرة (كاري)، البريئة، والخجولة، والمنطوية على نفسها، حتى إنها لتصدم بشدة حين ترى الدماء تسيل من بين فخذيها لأول مرة، فتصرخ بين زميلاتها اللواتي يسخرن منها.

لكنها تملك هذا السلاح الروحي الذي ترد به على سخرية الساخرين. فحين سخرت منها زميلاتها، نظرت إلى المصباح فتحطم

أما أمها التي أصيبت بهوس جنسي، بعد أن هجرها زوجها، فإنها تلجأ إلى التدين السطحي، وتمارس على ابنتها كل شعائرها، وتنفث فيها كل عقدها النفسية، فتفرض عليها سلوكاً معقداً، وتطلب منها ألا ترتدي ثياباً تكشف عن مفاتن جسدها. وهكذا عاشت الصغيرة في صراع دائم مع أمها. إنها تريد التفتح على الحياة مثل زميلاتها، فتحب زميلها (تومي) المشغول بحب فتاة أخرى تدعى (سو).

وفي الحفل المدرسي يحاول زملاؤها التندر عليها، بعد أن حضرت في أجمل ثيابها، ورقصت مع تومي، واستلمت جائزة أحسن تلميذة. ولكن الزملاء سكبوا عليها وعاء من دم الخنزير، فغرق الجميع في الضحك، ساخرين منها، عدا زميلها (سو) فاشتعلت كاري غضباً، وركزت أنظارها على الأبواب، فانغلقت، وعلى رشاشات المياه فانطلقت ترش الحاضرين، وعلى النيران فاشتعلت وأشعلت المكان كله. وتبدلت الضحكات بالصرخات، فهرب الجميع ناجين بأرواحهم.

وعندما عادت إلى المنزل، ورأتها أمها بهذا المنظر والدماء تلوث ثيابها الجديدة، ظنت منها أنها قد ارتكبت الخطيئة، فهرعت إلى المطبخ، لتستل

سكيناً تغمده في ظهر ابنتها . لكن الفتاة - بما تملك من قوة تركيز على الأشياء - تثبتت عينها على سكاكين المطبخ ، فتنطلق لتنغرس في ظهر الأم ، وهكذا تسقط المرأتان ميّتتين .

وفي روايته (مشعلة النيران) يتحدث الكاتب عن (شارلي) الطفلة التي لم تكد تبلغ الثامنة من عمرها ، والتي يطاردها الأطفال ، ويسخرون منها . لكنها تملك قوى روحية هائلة ، فهي ما أن تنظر إلى شيء حتى تشعل النيران فيه . فعندما تتأمل سيارة فإنها سرعان ماتنفجر وهي تفتح الأبواب وتغلقها وهي على مسافة منها ، وتطفىء التلفاز بنظرة منها .

أما أبوها فله القدرة على شفاء المرضى ، حتى من أعتى الأمراض ، حتى السرطان ، حيث يستطيع شفاء المريض بمجرد تركيز عينيه على موضع المرض .

وقد رغبت وكالة الاستخبارات الأمريكية C.I.A استخدام أمثال هؤلاء الأشخاص الذين يملكون قوى روحية خارقة ، للاستفادة منهم .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

المراجــــع

١ - فنسنت بورانيللي : القصصي والشاعر

ترجمة : عبد الحميد حمدي - دار النشر للجامعات المصرية - القاهرة - صفحة / ٥٣/ .

* * *

غارودي والصهيونية.. واليهود

نصر الدين البحرة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أتساءل كيف يمكن أن يمر مثل هذا الكتاب «فلسطين أرض الرسالات السماوية» دون دراسة أو تقديم أو تعليق على الأقل.. ليس لأهميته وخطورة محتواه التاريخي والفكري فحسب.بل للمكانة الكبيرة التي يحتلها مؤلفه روجيه غارودي، ككاتب يساري حرّ صديق للعرب، وضع عشرات الكتب عن التاريخ والحضارة العربية، وكرّس الكثير من وقته وجهده للدفاع عن قضية

* نصر الدين البحرة: أديب وقاص من سورية، عضو اتحاد الكتاب العرب، عضو جمعية القصة والرواية. رئيس تحرير مجلة (التراث العربي)، من مؤلفاته: «دمشق الأسرار».

العــرب الأولى : فلسطين . وروجـيــه غــارودي هذا هو الذي لايمل من الاستشهاد بكلمة «أناتول فرانس» صديق العرب الآخر الوفي فقد قالها، يوم زار القاهرة في السبعينيات، فألقى سلسلة محاضرات عن الحضارة العربية، وعاد فكررها في كتابه «وعود الإسلام» :

يشير أناتول فرانس في كتابه «الحياة المشرقة» بدعابة ساخرة إلى مغزى معركة بواتييه «بلاط الشهداء» هذه المعركة التي يريد تاريخ الغرب أن يجعل منها رمزاً للمواجهة بين الشرق والغرب - شأنها شأن معركة ماراتون الفرس واليونان : سأل السيد ديبوا ذات مرة السيدة نوزيير قائلاً : ترى ما أشأم يوم في التاريخ؟ ولما كانت تجهل الجواب، فإنه أجاب قائلاً : إنه معركة بواتييه عام ٧٣٢م إذ تقهقر علم العرب وفنهم وحضارتهم أمام بربرية الفرنجة».

ومنذ السطور الأولى في الكتاب يكشف غارودي عن هويته وموقفه الذي لاهوادة فيه في تعاطفه مع الأمة العربية . . . ومسألتها التاريخية : فلسطين . بل أن هذا الكتاب لم يكتب أصلاً . . إلا من أجل هذا الغرض .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

إنه يهزأ بتعريف الموسوعة البريطانية : فلسطين - شأنها في ذلك شأن الموسوعة الفرنسية الجامعة : أونيفرسالس - أنها المنطقة التي خضعت للانتداب البريطاني منذ عام ١٩٢٣ حتى عام ١٩٤٨ . ويعلق قائلاً : وهكذا اختصرت واحدة من أعرق الحضارات في التاريخ في فترة زمنية لاتتعدى ربع قرن، كما اقتصر في النظر إلى حدودها الجغرافية على وجهة النظر النابعة من علاقات الصراع بين القوى الاستعمارية .

ويستطرد المفكر الفرنسي : فالاستعماريون وقد مزقوا الأمة العربية - الإسلامية تبعاً لمنطق علاقات القوة فيما بينهم، هم الذين ربطوا مصير فلسطين بالحل الذي كان منوياً إجراؤه للمسألة الشرقية، أي : تلك القضايا التي نجمت عن تدهور الامبراطورية العثمانية

ويعد أن يعرج على الموقف البريطاني المتواطئ مع الصهاينة، ينقل ماقاله موبرت يونغ أحد المسؤولين في «مكتب الاستعمار» عام ١٩٢١ :

«إن القضية التي يجب حلها الآن تهدف إلى البحث عن «تكتيك» لاعن «استراتيجية» إن المبدأ الاستراتيجي العام - كما أراه - هو في هجرة متزايدة لليهود إلى فلسطين بغية تأمين أكثرية ساحقة لهم في هذا البلد، ولكني أشك في قدرتنا على مصارحة العرب بحقيقة سياستنا وماهيتها».

وتأسيساً على التعريف العجيب إياه لفلسطين، يستنتج غارودي تعريفاً مغايراً لكنه سياسي أيضاً، ينطوي على كثير من الغيظ والحنق على السياسة الاستعمارية فهو يقول

«إذن يمكن أن نعرف فلسطين على امتداد القرن الأخير من تاريخها منذ مؤتمر بال عام ١٨٩٧ وحتى ١٩٨٥ بأنها ذلك الجزء من العالم العربي الذي حنث الاستعمار جهراً وعلانية بوعوده له بالاستقلال».

. وعبر محاولة تعريف فلسطين يتسلل غارودي رويداً رويداً إلى موضوعه التاريخي. فإذا نحينا جانباً التعريف الاستعماري، فهل نقول «هي أرض التوراة» أو «أرض الميعاد»، ولكن. . . كيف ننسى أن هذه الأرض «من النيل إلى الفرات قد حدث بنوع من التحريف والتضليل بتلك الأرض التي جرى احتلالها في عهد مملكة داود؟ «فالوعد» المحدد في التوراة في الألف الثاني قبل الميلاد لم يرد مكتوباً على أبعد حد إلا في عهد مملكة سليمان أي بعد أكثر من ألف عام من تاريخ الوعد؟».

ويتابع غارودي تساؤله : أم تراها اقليم بلاد الشام في الامبراطورية العثمانية؟ أم أنها «أرض إسرائيل» ذلك الاسم الذي قل أن يرد في التوراة ولكنه ذاع وانتشر على يد أحبار اليهود واستغلته الدولة الصهيونية؟ ولكن هل ننسى أن المنطقة الساحلية ولاسيما عكا وحيفا في الشمال، وغزة في الجنوب لم تكن خاضعة للدولة اليهودية ولا لمملكة داود نفسها . . وهكذا أصبح تعبيرا أرض إسرائيل، الأسطورة التي تقوم عليها الدولة الصهيونية .»

وينتهي غارودي أخيراً إلى فكرة الهلال الخصيب، وهو يحاول تعريف فلسطين وهو الذي يمتد «من الخليج العربي وحوض الفرات ومجرى العاصي مروراً بشاطئ البحر المتوسط وحتى دلتا النيل. أما فلسطين فتقع في الزاوية الغربية من هذا الهلال الخصيب. إن موقعها وبنيتها وحدودها الجغرافية، وما عبر بها من شعوب عبر التاريخ لم يعين لفلسطين دورها فحسب، بل.. وهبها ما أهلها لذلك الدور المتميز في عملية التطور الروحي للإنسان في منطقة الهلال الخصيب».

لقد عرفت فلسطين الدول ـ المدن قبل اليونان بألوف السنين «ولكنها خلافاً للممالك الكبيرة ذات المركزية، لم تشهد في حياة مجتمعاتها تلك الهوة فيما بين المواطنين والحكام». ولئن دلت أبحاث علم الآثار الخاصة بما قبل التاريخ على أن الهلال الخصيب وحده قد كان مهداً لتطور الإنسان إلى جانب أبكر الحضارات في العالم، فإن «إنسان ـ الكرمل ـ وكهوف ـ طابون ـ وقفزى.... هذا الإنسان حدد تاريخه باشعاع الكربون ١٤، بزمن ينحصر فيما بين ٥٢٠٠٠ و٣٥٠٠٠ عام، أي أن الإنسان «الموستيري» في فلسطين بمدافنه كان في مستوى أرقى الحضارات في العالم».

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ويقفز هذا المؤرخ العالم الفرنسي قفزة تاريخية فيتحدث عن «مرحلة استقرار البدو الرحل والانتقال من مرحلة قطف الثمار والصيد إلى مرحلة الزراعة وتربية المواشي التي أطلق عليها «دوروتي غارو» اسم المرحلة النطوفية بعد تنقيباته في «وادي النطوف» فقد جرى تحديدها بسبعة آلاف عام ق.م. وفي هذه الحقبة وجدت في أريحا حيث عرف القمح والشعير والماعز، وجدت آثار مايمكن أن يسمى أقدم مدينة في العالم

.. ثم ماذا بعد؟ إنه يؤكد أن تاريخ فلسطين كان دائماً عرضة للتشويه والتزوير من جراء التعليلات الدينية والسياسية من قبل الباحثين.» وهكذا، فمنذ البدايات الأولى للأبحاث الأثرية المبرمجة في فلسطين في القرن التاسع عشر شوه المنظور التاريخي بفعل وهم ديني، إذ كانت الوثيقة الأساسية هي التوراة.

. ثم ينطلق د. غارودي نحو تكذيب الأساطير التوراتية، من ذلك مثلاً «ما نشره سيلين عام ١٩١٣ - وهو المختص بالتوراة - عن تنقيباته في أريحا» إذ سجل في تقريره أنه وجد أسواراً مهدمة وراح يوحي بما يفيد أنه كان يرى تلك الأسوار تنهار بفعل أصوات الأبواق التي نفخ فيها يشوع بن نون! وواقع الأمر أن التواريخ اللاحقة قد أثبتت - كما يذكرنا الأب ديفو - أن الإسرائيليين لدى وصولهم في نهاية القرن الثالث عشر ق. م لم يستولوا على أريحا لأن هذه المدينة كانت قد هجرت، وقل الشيء نفسه فيما يتعلق بالاستيلاء على مدينة «عاي» على يد يشوع. »

وفي الحقيقة، فإنني وأنا أحاول عرض بعض ماجاء في هذا الكتاب الذي نقله إلى العربية قصي أتاسي وميشيل واكيم وأصدرته دار طلاس في دمشق أشعر أن من الصعوبة بمكان الاحاطة بذلك جميعاً، فإن عدد صفحات الكتاب يبلغ ٣٧٦ صفحة من القطع الكبير. لذلك فإنني سأركز، مثلما فعلت حتى الآن، على أبحاث فيه بعينها نظراً لأهميتها. .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وأحسب أن في طليعة هذه البحوث ذاك الذي يتصدى لتفنيد أكذوبة «الشعب المختار» و«الأرض الموعودة».

إن القادة الصهاينة سواء منهم المؤمنون والملحدون يزعمون أن الله وهبهم فلسطين، دون أن يسألوا أنفسهم: ما ماهية هذا «العهد» وإلى من أعطي «الوعد» وما التزامات «الشعب المختار» أمام الله؟!.

إن غارودي يستند إلى إحصاءات الحكومة الإسرائيلية نفسها ليقول إن ١٥٪ من الإسرائيليين متدينون: ولكن ذلك لايمنع أن ٩٠٪ منهم «يلح على أن هذه الأرض قد وهبهم إياها الله الذي لايؤمنون به»! والغالبية العظمى من الإسرائيليين لاتمارس الإيمان و العبادة، أما مختلف الأحزاب الدينية التي تلعب دوراً حاسماً في الدولة الإسرائيلية فلا تضم في صفوفها إلا أقلية من المواطنين.

. . . ثم ينتقل إلى شرح العلاقة الجدلية بين الصهيوني والدعاوى اليهودية المزعومة حول «الشعب المختار» و«الأرض الموعودة»، ويتناول من كتاب ناثان فاينستوك «الصهيونية ضد إسرائيل» تعبيراً في منتهى الوضوح والصراحة عن هذه الفكرة، فهو يقول:

«إذا قدر للتعصب الأسود لدى الأحبار اليهود أن ينتصر في إسرائيل فذلك لأن الإيمان «الصهيوني لايعرف التماسك والترابط إلابالرجوع إلى الديانة الموسوية» جرب أن تحذف مفاهيم «الشعب المختار» فسرعان ماينهار أساس الصهيونية. ولهذا تستمد الأحزاب الدينية على نحو متناقض قوتها من الصهاينة المتدينين المتواطئين مع هذه الأحزاب. إن التماس الداخلي للبنية الصهيونية في إسرائيل قد فرض على الحكام دعم سلطة رجال الدين، فالحزب الديمقراطي الاجتماعي «ماباي» بتحريض من «بن غوريون» هو الذي قرر تدريس مادة الديانة إلزامياً في المدارس وليست الأحزاب الدينية.».

http://Archivebeta.Sakhrit.com

وإذن فإن «الأحزاب كلها من حزب العمل إلى حزب ليكود تعتمد التوراة مرجعاً لتأسيس سياسة تقول: إنّ فلسطين ملك الصهاينة بموجب صك موقع من الله»!!.. وهذا جانب آخر من الذرائعية Pragmutisme الصهيونية.

. . . وعلى هذا النحو يقرؤون أيضاً توراتهم تلك القراءة الاصطفائية التي «تخلع طابعاً من الامتياز والأفضلية على أكثر نصوص التوراة شراسة كي تبرز المظالم وألوان الاغتصاب الراهنة.».

وينقل غارودي ماجاء في سفر العدد:

«وكلم الرب موسى قائلاً: قل لبني إسرائيل إنكم عابرون الأردن إلى أرض كنعان فتطردون كل سكان الأرض من أمامكم. وإن لم تطردوا سكان الأرض من أمامكم يكون الذين تستبقون منهم أشواكاً في أعينكم ومناخس

في جنوبكم ويضايقونكم على الأرض التي أنتم ساكنون فيها، فيكون أني أفعل بكم كما هممت أن أفعل بهم»

ويعلق هذا الكاتب الفرنسي: وهكذا نقرأ في سفر العدد تصورا سابقاً بل تبشير بما يمارسه الصهاينة تجاه الفلسطينيين من شارون إلى الحاخام مائير كاهانا

. . . أما تتمة التصور الإجرامي الكامل فإنه يبدو في سفر الاشتراع، فإنه «لاينص على اغتصاب الأرض وطرد السكان الأصليين وحسب، وإنما يطالب بذبحهم: «عندما يوصلك الرب الهك إلى أرض كنعان، ويطرد أمامك كافة الأمم، ستوقع عليهم الحرمان. . . وستبيدهم».

وهذا السفر، سفر المذابح، كما يصفه غارودي، من النصوص الكلاسيكية المقررة في مدارس إسرائيل، أضف إلى ذلك أنه يستخدم للإعداد النفسي للجنود الأغرار في الجيش. وحينما وقع الاجتياح الأخير للبنان أعلنت هيئة التبشير الدينية العسكرية الحرب المقدسة. وكان الموضوع الرئيسي الذي طرحه الحاخام العسكري برتبة النقيب يقول: يجب ألا ننسى الأصول التوراتية التي تبرر هذه الحرب ووجودنا هنا بسببها. إننا ونحن هنا نؤدي واجبنا الديني كيهود. إن الواجب الديني كما في تقاليدنا المقدسة هو احتلال الأرض.»

وليس هذا السفر نصا أساسيا يدرس في المدرسة والجيش معاً فحسب بل إنه صار منذ أن أقره حزب العمل بزعامة بن غوريون عنصراً أساسياً أيضاً في وسائل الإعلام «لتضليل الجماهير».

إنه مقرر في المناهج المدرسية الإسرائيلية من الصف الرابع حتى الثامن «وقد قام تاماران أستاذ الجامعة في تل أبيب بتوزيع استمارات على ألف طالب. تقول الاستمارة: أنت تعرف المقاطع التالية الواردة في سفر يشوع: «توجه الشعب إلى مدينة أريحا واستولى عليها وقتل كل سكانها من

رجال ونساء وأطفال وشيوخ دون أي تمييز» أجب عن السؤالين التاليين:

أ ـ ماذا ترى في سلوك يشوع والإسرائيليين؟ أحسن هو أم سيء؟

ب ـ لنفترض أن الجيش الإسرائيلي قد احتل قرية عربية في الحرب، فهل من الواجب أن يفعل هذا الجيش بسكان القريةمافعل يشوع بأهل أريحا؟

وبعد قيام الاستاذ الجامعي بنشر النتائج المخيفة لدراسته الميدانية حول اعداد أطفال المدارس وتهيئتهم نفسياً للاغتصاب والذبح والتدمير.. طرد من جامعة تل أبيب.

وعقب الاجتياح اللبناني في حزيران ١٩٨٢ أصدرت إسرائيل ١٩٨٣ ثلاثة طوابع أحياء لذكرى يشوع، خصص الأول لعبور الأردن. وقد علق عليه «سيغموند غورين» كما ينقل الدكتور غارودي قائلاً: «إن ذلك يذكرنا بالأسلوب الذي اتبعته القوات الإسرائيلية المعاصرة في سيناء عام ١٩٥٦، وفي ثلاث جبهات عام ٩٦٧. وهوتجديد لأسلوب الأجداد منذ ٣٣٠٠ عام حينما أحاط العبريون بالمدن الكنعانية ليهاجموها من الشرق وخصص الطابع الثاني لاحتلال «أريحا» المزعوم... ومعه يذكر غورين بما يسميه «الإبادة المقدسة» لسكانها ماعدا العاهرة: راحاب لأنها استقبلت جواسيس العبريين وآوتهم. وأما الطابع الثالث «فيمثل يشوع وهو يوقف الشمس ليتمكن من إنجاز المعركة والقضاء على خمسة ملوك كنعانيين» قتلوا وعلقت جثثهم عل خمس شجرات. وهاهو ذا غورين يقول: على إسرائيل أن تجابه اليوم عدواً لايقل خطورة عن ملوك كنعان في الماضي.»

إنهم لم يكتفوا بتجديد الأكاذيب التي تضمنها السفران المذكوران ـ وبينها أكذوبة أريحا ـ على صعيدتسخير وسائل الإعلام لتضليل الجماهير، بل أضافوا إليها موضوعاً آخر، يلفت النظر إليه مؤلف هذا الكتاب حين يتحدث عن «الخداع التاريخي» الذي يؤدي إلى تعريض المسجد

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الأقصى وقبة الصخرة للخطر «وهي تحف فنية عالمية تعد من أثمن مظاهر التراث الحضاري الفلسطيني. فهناك حفريات قائمة تحت أساس هذه التحفة بحجة البحث عن بقايا معبد سليمان». هانحن أولاء أمام أكذوبة مزدوجة. فإن «حائط المبكى» الذي يدعم البناء ليس هو من بقايا هيكل سليمان، بل إنه من بقايا معبد هوميروس. «والواضح من بنائه ومظهره أنه بناء روماني نموذجي».

ويدحض غارودي الأكذوبة الأخرى حول هيكل سليمان «على أنه عنصر من عناصر التراث الثقافي اليهودي» فيقول إن التوراة وهي الشاهد الوحيد على هذا البناء تقول إنه بني على يد مهندسين وبنائين وصناع أرسلهم حيرام ملك صور، وأن المخططات والتزيينات والأثاث، على ماورد من وصفها في سفر الملوك تطابق النماذج المعمارية الكنعانية. هذا ولم يسبق أن عرف الإسرائيليون معبداً سابقاً له، فتابوت العهد كان يحمل في خيمة. ثم أن تصوير الأشخاص على المعبد لم يكن مقبولاً لدى العبريين».

من جانب آخر... فإن الدكتور غارودي يرسم وهو يبحث عن جذور الصهيونية المسيحية خطاً بيانياً، لعلاقة أوروبا المسيحية باليهود، من خلال كونهم «ساميين» وانطلاقاً من الاتجاه المعادي للسامية الذي تفجر ذاك التفجر الوحشي منذ الحروب الصليبية، حتى أن «غود فروي دي بويون» حين استولى على القدس لم يكتف بأن أمر بذبح المسلمين وطردهم فحسب، بل أنه حاصر الطائفة اليهودية أيضاً داخل الكنيس وقضى عليها بإحراقها.

ويتبع ذلك بتسلسل تاريخي لاضطهادات ملوك أوروبا لليهود في القرن الميلادي الثالث عشر... ومابعد، فإن إدوارد الأول ملك بريطانيا طردهم عام ١٢٩٠، وحذا حذوه الملك الفرنسي «فيليب دي بل» عام ١٣٠٦، وبعد أن قضت إسبانيا المسيحية الكاثوليكية المتعصبة على «غرناطة» العربية آخر الممالك الإسلامية سنة ١٤٩٢، توجهت نحو اليهود فطردتهم أو ذبحتهم. وكانت «روسيا المقدسة» مسرحاً لمذابح كبرى لليهود عام ١٦٤٨ على يد القوزاق.

إلا أن هذه الصورة بدأت تتغير رويداً رويداً بعد ظهور البروتستانتية التي دعا إليها مارتن لوثر «١٤٨٣-١٥٤٦».

في البداية ترجمت «التوراة» إلى الألمانية على يد لوثر نفسه، فأصبحت في متناول الناس من غير الرهبان الذين كانوا وحدهم حتى ذلك الحين قراء التوراة ومفسريها، ويلفت غارودي النظر إلى مسألة غاية في الأهمية، فإن ترجمة التوراة، لم تطرح المسألة اليهودية، من حيث بعدها الإنساني، بمعنى وضع حد للتفرقة العنصرية ولكل ألوان النبذ والتشريد، بل طرحت طرحاً لاهوتياً، يقول: ماموقع اليهود في المشروع الإلهي؟.

وهكذا قفز اليهود عند البروتستانت إلى مكان الصدارة في علوم الآخرة واللاهوت اعتماداً على «الوعودالتوراتية» المزعومة وماتضمنته من إشارة إلى «العهد» و«الوعد بالأرض» و«الشعب المختار» و«العودة».

بل أن التوراة باتت موضع الإلهام والاستيحاء في أعمال أدبية كثيرة مثل «الفردوس المفقود» لجون ملتون و«أورشليم» البليك.. و«استير» و«اتالي» لراسين وهاهو ذا الأسقف بوسويه في كتابه «مقالة في التاريخ العالمي» يجعل من إسرائيل حجر الزاوية في التاريخ العالمي، ولايرى الناقد والمسرحي الألماني «ليسينغ» والفيلسوف الألماني أيضاً «فيخته» من حل للمشكلة اليهودية «إلا استرجاع الأرض المقدسة وارسال اليهود... إليها».

وأخذ الأمر بعداً آخر مختلفاً لدى الحقوقي والبرلماني البريطاني هنري فينش، فإنه نشر عام ١٦٢١ كتاباً بعنوان «البعث العظيم للعالم» أو «نداء إلى اليهود وإلى جميع الأمم وممالك الأرض للإيمان بالمسيح» رفض فيه كل التفسيرات الرمزية التأويلية للتوراة، وأوصى بقراءتها حرفياً، وهو يقول:

«حينما تُذكر اسرائيل ويهوذا وصهيون وأورشليم في التوراة، فإن الله لايعني بذلك إسرائيل روحية، ولايعني كنسية لله تجمع في صفوفها الأمم - أي جميع الشعوب من غير اليهودية - واليهود المتنصرين... ولكنه يعني

باسرائيل تلك التي تحدرت من نسل يعقوب . وقل الأمر نفسه فيما يخص العودة إلى أرضهم وانتصارهم على أعدائهم . فاليهود هم المعنيون حقاً وصدقاً بالتحرير، وليس المسيح هو الذي يحرر البشر»!! .

. . وعرفت هذه الحركة نهوضاً خاصاً في بريطانية في القرن التاسع عشر على يد البيوريتات (الطهوريين) : - جماعة بروتستانتية ظهرت في انكلترا ونيوا نغلاند في القرنين السادس عشر والسابع عشر وطالبت بتبسيط طقوس العبادة - فقد أحل هؤلاء أبطال التوراة محل القديسين في الكنيسة الكاثوليكية، فصاروا يسمون أبناءهم أسماء توراتية : ابراهيم واسحق ويعقوب . ووصلوا إلى حد المطالبة بجعل التوراة مصدر التشريع الإنكليزي . وصار لهؤلاء شأن يذكر بعد أن حل «كرومويل» البرلمان عام ١٦٥٣ .

«وتجلت هذه الأيديولوجية والعقيدة الأسطورية قوية واضحة لدى الطهوريين المهاجرين إلى أمريكا الذين اندمجوا وتوحدوا بالعبريين التوراتيين في المنفى : لقد تحرروا من عبودية فرعون «جاك الأول» وهربوا من أرض مصر «انكلترا» ليصلوا إلى أرض كنعان الموعودة - أمريكا!» .

وأخذ هؤلاء المستوطنون يستوحون «الإبادات المقدسة» التي قام بها يشوع بن نون في التوراة، لدى مطاردتهم الهنود الحمر بغية الاستيلاء على أراضي القارة الجديدة .

صار لهم إذن منطق لاهوتي عجيب بعيد تماماً عن المسيحية، وبموجبه صاروا يؤمنون أن الوعد الحق . . . لايتحقق بمجيء المسيح .

. . . وهكذا فإن الرئيس الأمريكي ويلسون الذي نشأ على هذه التعاليم بعث برسالة إلى الحاخام «ستيفن وايز» تاريخه ٣١ آب عام ١٩١٨ أكد له فيها، معتمداً على العقيدة الأسطورية الصهيونية قبوله وعد بلفور .

وهاهو ذا الرئيس الأمريكي الأسبق جيمي كارتر يتحدث في الكنيست الإسرائيلي في آذار ١٩٧٩ قائلاً: «إن إسرائيل والولايات المتحدة، كلتيهما تشكلت على أيدي جماعة من الرواد».

إن بلدي هو أمة من المهاجرين، وفدوا من شعوب مختلفة لبلدان عديدة. إننا نتقاسم وإياكم الإرث المشترك للتوراة. وكما يضيف غارودي ملاحظاً فإن كارتر سبق أن قال: إن إنشاء أمة اسرائيلية هو انجاز للتنبؤات التوراتية.

إن هذا المفكر الفرنسي الكبير يرفض نهائياً إعادة فاعلية «اللوبي الصهيوني» على المستوى العالمي إلى قوة تنظيمه وقوة الوسائل السياسية والمالية الجبارة التي يمتلكها مدعوماً دعماً غير مشروط ولامحدود من قبل الدولة الأمريكية، ويرى أن العقيدة الأسطورية الصهيونية، قد ساعدت بأن لعبت ذلك الدور الكبير في مخيلة الشعوب.

يقول د. غارودي: إن قوة «اللوبي» تلعب دون شك دوراً أساسياً، لكن القبول الساذج على الأغلب لهذه العقيدةالأسطورية الوقحة بنتائجها السياسية الدامية الفاجعة لايمكن فهمه إلا حينما نتذكر المناورات الإيديولوجية التي استمرت قروناً عديدة، والتي استطاعت بها الكنائس المسيحية أن تخلق هذه «الصهيونية المسيحية» التي تشكل أرضاً خصبة تستغلها الدعاية الصهيونية ودولة إسرائيل.

وهو يوضح أن هذه الرؤية الأسطورية لفلسطين في منظور الصهيونية المسيحية قد استغلت سياسياً منذ البداية، لتحقيق عدد من الأهداف:

١ـ أهداف لاسامية: وذلك للتخلص من اليهود بإرسالهم إلى فلسطين على أنها معزل عالمي لهم.

٢ـ أهداف امبريالية: ليقوم اليهود الغربيون في فلسطين بدور شرطة للاستعمار في الشرق الأوسط لحماية المعابر المؤدية إلى آسيا.

٣ـ أهداف صهيونية سياسية: وهذه الأهداف يدعمها في آن معاً الاستعمار الروسي والألماني والفرنسي والإنكليزي.. ثم الأمريكي بغية الحفاظ على مشاريعه.

ويضيف إلى ذلك أن نزعة معاداة السامية تدعم «أهداف الصهيونية» بغية اقناع يهود «الشتات» برفض كل انصهار واندماج كي يفدوا إلى فلسطين، وهومؤمن بأن البروتستانتية التي قطعت علاقتها بتعاليم الكنيسة الكاثوليكية وكانت في الوقت نفسه أصل «الصهيونية المسيحية» كان لها موقف ذو دلالة خاصة على هذا الصعيد، إذ أن ترجمة لوثر للتوراة التي أبرزت ملحمة العبرانيين لم تكن عملاً بريئاً، فإن هذا كان «يعبر بوضوح عن خلفية فكرية معادية للسامية!».

إن مارتن لوثر نفسه عاد فكتب عام ١٥٤٤ ـ أي قبل وفاته بسنتين ـ قائلا: «من يمنع اليهود من العودة إلى أرض يهودا؟ لا أحد. سوف نزودهم بكل مايحتاجون إليه في سفرهم.. لاشيء.. إلا لنتخلص منهم.. إنهم عبء ثقيل علينا، إنهم مصيبة كبيرة على وجودنا»

ويعتمد غارودي اعتماداً كبيراً على هذه الفكرة، فيرى أن هذه «الخلفية الفكرية» التي كانت لدى لوثر: أصل «الصهيونيةالمسيحية» هي نفسها التي كانت لدى بلفور الذي وفر للصهيونية السياسية انتصارها الأول. فحينما كان آرثر بلفور رئيساً لوزراء انكلترا ناصر قضية الحد من هجرة اليهود من انكلترا، حتى أن المؤتمر الصهيوني السابع اتهمه بمعاداته السافرة للشعب اليهودي. «وهذه اللاسامية المتأصلة لدى بلفور كانت تتفق تمام الاتفاق طوال حياته قبل عام ١٩٠٥ وبعده مع الفكرة الصهيونية المطالبة بتخصيص أرض لليهود بغية تحقيق هدف واحد هو إبعادهم عن انكلترا. وكان بلفور قد وعد اليهود منذ عام ١٩٠٣ بإعطائهم أرض أوغندة. وفي عام ١٩١٧ وانسجاماً مع أهدافه في حربه مع ألمانيا كتب إلى اللورد روتشيلد تصريحه المتضمن إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين.»

. . ومع ذلك وبعد كل الذي كان، فإن المجتمع المسكوني الثاني للفاتيكان اعترف عام ١٩٦٥ قائلاً:

«إن قيام السلطة اليهودية مع من يناصرها بالتحريض على صلب المسيح لايمكن أن يعزى عشوائياً إلى جميع اليهود المعاصرين للمسيح . . ولا إلى يهود اليوم. وإذا كان صحيحاً أن الكنيسة هي الشعب الجديد لله فاليهود لايجوز أن يعتبروا منبوذين أو ملعونين من الله، وكأن إدانتهم مستمدة من الكتاب المقدس، إن الكنيسة تأسف لألوان الحقد والاضطهاد ولكل مظاهر العداء للسامية التي مورست على اليهود في عصور شتى ومن قبل أطراف شتى. . .»

إن هذا الموقف لايحوز على إعجاب غارودي مطلقاً فهو يرى أنه جاء متأخراً ألفي عام «من الجرائم التي كانت الكنيسة في الأغلب هي الدافع إليها أو . . المنفذ.» ثم يمضي في هذا الاتجاه إلى حد القول إن المجتمع المسكوني في الفاتيكان دان في قراراته هذه التفرقة العنصرية، ولكنه لم يمس بذرة تلك الفكرة اللعينة: فكرة «الشعب المختار» التي تستنكرها رسالة الأناجيل على نحو قاطع، إذا نظر إلى الأناجيل نظرة كلية ولم يكتف منها باقتطاع صيغة معزولة عن سياقها، وهو يثير مشكلة، ربما انتبه إليها بعضهم، إلا أن غارودي يوثقها حين يتحدث عن تزوير اليهود إنجيل «متى» فهو يقول:

«كان مارسيون دي سينوب ـ١٤٤م ـ في روما يلوم المسيحيين على أنهم زوروا النص الأصلي لإنجيل متى. جاء في هذا الإنجيل: «لاتظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء. ماجئت لأنقض بل لأكمل» ويرى مارسيون دي سنوب أن نص «متى» كان في الأصل يقول: «لم آت لأكمل العهد بل لأنقضه» ويعتمد مارسيون في اتهامه على انجيل لوقا ورسائل القديس بولس. . ليستخلص إن الانجيل حل محل شريعة موسى.

ثم أنه يضع يده على نقطة حاسمة في الأمر كله، فإن «الوعد» المسيحي عند آخر تحليل ليس وعداً بأرض «فقد بشر يسوع كما بشر

«الغيورون» ـ وهم جماعة كانت موجودة أيام المسيح وتسعى إلى إصلاح العبادة بتخصليها من فساد رجال الكهنوت ـ بملكوت الله . ولكن تبشيره لم يكن مقترناً بالمطالبة بأرض لوطن قومي . فيسوع لا يقر بأي حق إلهي للامبراطور الروماني ولا لهيرودوس حاكمه ونائبه . . . في فلسطين . ورفض يسوع المسيح في ثلاثة مواقف من الانجيل رفضاً قاطعاً أن يربط رسالته بموضوع امتلاك أرض أو سلطة . وحينما جاء إليه الشيطان في أعلى الجبل وأراه جميع الممالك المسكونة وقدمها إليه أجابه يسوع بقوله : أبعد عني أيها الشيطان .

ويضيف الكاتب الكبير أن المسيح رفض حتى أن ينادى بـ«المخلص» لأن هذه الصفة في التقاليد اليهودية ذات مدلول سياسي ، وهي مرتبطةعندهم بالسلطة . وعندما سأل بيلاطس المسيح : هل أنت ملك اليهود؟ فإنه تولى النفي على طريقته ، فقد قال : مملكتي ليست من هذا العالم .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

. . . . وعند حديثه عن الثورة الفرنسية وموقفها من اليهود ، يطرح د. روجيه غارودي فكرة اندماج اليهود في مجتمعاتهم . لقد أعلنت الثورة الفرنسية منذ البداية إلغاء كل تمييز عنصري يمارس على اليهود «وفي عام ١٧٩١ أعلن الكونت دي كليرمون في الجمعية الوطنيةالفرنسية ملخص ماشرعته الثورة في هذا الصدد حينما وضعت حداً لقرون من التفرقة العنصرية ، فقال : يجب أن نمنع كل شيء عن اليهود ـ على أنهم أمة ـ ونسمح لهم بكل شيء على أنهم أفراد . »

. . . قبل هذا كان يهود أوروبا المعزولون في الغيتو يحلمون حلماً صعبا ، أن تعاملهم المجتمعات التي يعيشون فيها ، لا . . معاملة المساواة ، بل معاملة تحترم فيها عقيدتهم وطراز معيشتهم . . . ولقد مهد إعلان الثورة الفرنسية الطريق أمام يهود أوروبا كي يستعيدوا الكثير من اعتبارهم ، وكي يتقبلهم الآخرون ، من خلال فكرة اندماجهم في مجتمعاتهم .

وأعلن يهود فرنسا بكل وضوح «أنهم لايشكلون أمة» حينما دعا نابليون بونابرت عام ١٨٠٧ المجلس اليهودي الأعلى إلى الاجتماع به.

وينقل غارودي ماكتبه المؤرخ الألماني «ترايشكه» في نهاية القرن التاسع عشر، قائلاً: «لامكان على الأرض الألمانية لجنسية مزدوجة. وإذا طالب اليهود الاعتراف بقوميتهم، فإن الأساس الشرعي لممارستهم حريتهم يسقط وينهار».

وهكذا وجدت الطوائف اليهودية نفسها أمام موقف من اثنين لاثالث لهما، إما أن يكون أفرادها مواطنين حقيقيين في دولة ما، وحينذاك يحق لهم أن يطالبوا باحترام عقيدتهم، مثلهم مثل أي جماعة دينية أخرى. وإما أن يكونوا منتمين إلى «أمة» أخرى، وعندئذ يعدون «أجانب» وينبغي عليهم أن يقبلوا مايترتب على هذا الوضع.

. . . ومنذ ذلك التاريخ، أي مطلع القرن التاسع عشر، بدأ يهود أوروبا الغربية يعاملون على أنهم مواطنون حقيقيون، واندمجوا «على اختلاف أصولهم في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لأوطانهم وأسهموا في تطوير الثقافة الغربية في شتى المجالات، فكان منهم «سبينوزا» الفيلسوف الذي أسهم على نحو رائع وأصيل في التيار العقلي الديكارتي، وكان منهم مفكرون يهود ألمان في حقل الفلسفة الكانتية، ونبغ منهم «هنريش هايني» في مجال الشعر و«مندلسون» في الموسيقى و«انشتاين» في الفيزياء».

. . وعلى نحو مباشر، فيما هو يعلق على ظهور هؤلاء العباقرة اليهود في أوروبا، فإن غارودي ينفي، ماحاولت الصهيونية زرعه في أفكار العالم وروجت له إعلامياً بتركيز وقوة مدهشين، حول «خصوصية يهودية» في رفد الثقافة الغربية المعاصرة، فهو يقول:

«إن كل هذه الروائع هي جزء لايتجزأ من مجمل الثقافة الغربية السائدة.

وأنت لاترى في هذه الروائع أي أثر لخصوصية يهودية، مثلما لاترى أي أثر من كاثوليكية «باستور» في أبحاثه البيولوجية، ولا أي أثر من بروتستانتية «نيوتن» في فيزيائه.»

. وعلى الرغم من أن اليهود في أوروبا ظلوا حتى مطلع القرن العشرين أوفياء إلى حد غير قليل، لقناعتهم بالإندماج في مجتمعاتهم، فإن تياراً آخر، كان يسري في عروق الكثيرين منهم، منذ سنوات.. وهذا ناجم عن تأثرهم، على الأخص، بالروح القومية التي انتشرت في أوروبا كلها في القرن التاسع عشر.

يقول غارودي إن غالبية اليهود الألمان عارضت عام ١٩١٩ استفزازات الصهاينة فأعلنت تقول: «نحن ألمان، ديناً اليهودية، ان الجرمانية تعني لدينا انتماء إلى أمة وشعب وأما اليهودية فتنعي لدينا وملة. نحن لسنا أمة يهودية، وإنما طائفة تدين باليهودية.».. بل أن مؤتمر الحاخامات الذي عقد قبل هذا التاريخ في «بتسبرغ» عام ١٨٨٥ أعلن قائلاً: نحن لانعد أنفسنا أمة، وإنما نحن طائفة دينية. نحن لانتظر العودة إلى فلسطين ولانمارس شعائر التضحية التقليدية، ولانعمل على احياء أي تشريع يخص إقامة دولة يهودية».

... يمكن القول أن النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وهو الذي انعقد في آخره المؤتمر الصهيوني الأول، هو الذي عاش ظهور التيار المعاكس ونموه، فاليهودية لم تعد ديناً، بل انتماء قومي، والصهيونية السياسية الصاعدة قطعت صلتها بتقاليد الدين اليهودي «لتقتبس تقاليد كثيرة أخرى. إنها تقاليد النزعة القومية الغربية في القرن التاسع عشر... قرن القوميات، وراحت الصهيونية السياسية تتجه إلى إنشاء نموذج للمجتمع يختلف جذرياً عن الملة اليهودية مقلدة المفهوم الغربي للأمة والدولة.»

ويستطرد الدكتور غارودي قائلاً: «إن واقع الدولة اليهودية هو نسخة عن «الدول» الأوروبية. وهي تعتمد في نشاطها العسكري مثلاً على نزعة

قومية مقتبسةمن الشوفينية Chauvinisme الأوروبية في القرن التاسع عشر . وكان هذا التقليد عن وعي تام واختيار مدروس مقصود . »

. . . إن الحاخام يهودا الكالاي «١٧٨٩-١٨٧٨» المولود في سيراجيفو - في يوغسلافيا الآن - والذي شغل منصباً دينياً رفيعاً في صربيا «استوحى صراع القوميات لدى دول البلقان في مواجهة الاحتلال التركي، فرأى في استعمار فلسطين مفتاح «الخلاص» لليهود . أما الحاخام «كاليشبا»، فإنه دعا اليهود إلى تقليد القوميات الأوروبية بقوله : فلنجعل قدوة لنا ما قام به الإيطاليون والبولونيون والهنغاريون . »

ولم يتوقف الصهاينة عند هذا الحد، بل إن بعضهم ذهب مذهباً مدهشاً في عرقيته وعنصريته حتى أن «آحادها عام» ١٨٥٦-١٩٢٧ في دراسته التي عنوانها «اليهودية ونيتشه»، فيما يرفض العرقية الآرية لدى نيتشه، يعود من جانب آخر إلى الحديث عن الانسان المتفوق : السوبرمان، ويرى مثل نيتشه نفسه أن «الهدف الأخلاقي الأسمى ليس في تقدم البشرية كلها، بل في خلق نوع بشري أكمل، من بين النخبة»!! ومادام الهدف من الوجود هو ظهور إنسان متفوق، فهناك هدف فرعي ينجم بالضرورة هو ظهور أمة متفوقة .

وكما يلاحظ المفكر الفرنسي فإن أحاد هاعام يطبق على الصعيد الاجتماعي المذهب الداروني الذي تحدث عن النشوء والارتقاء بين الكائنات الحية، بقوله : «نحن نعلم أن هناك درجات متفاوتة في سلم الخلق : المادة غير العضوية أولاً، ويليها النبات، ثم المملكة الحيوانية، ثم الكائنات الناطقة، وعلى رأس كل ذلك يأتي اليهود . »

ويعلن «ماكس نوردو» وهو الرفيق الحميم المقرب من هرتزل «أن اليهود يتصفون بروح المبادرة، وبمواهب وقدرات أكبر مما لدى الإنسان الأوروبي المتوسط، فما بالك، بأولئك الآسيويين والأفارقة؟»

ولكن، ماذا بعد؟

لقد أراد روجيه غارودي أن يستعرض تاريخ أرض الرسالات فلسطين، منذ عهود ماقبل التاريخ، مروراً بالحضارات الكنعانية، و ظهور العبريين وتفسخ دولتهم الطارئة وسقوطها . . . ثم يعرج على فلسطين المسيحية، ثم فلسطين المسلمة العربية منذ القرن الميلادي السابع حتى الآن . . وإذا كان قد توقف هنا أو هناك، ليتحدث عن اليهود في فلسطين أو أوروبا . . أو عن الصهيونية المسيحية، والقومية الصهيونية، فإنه كان التوقف الذي يقتضيه التاريخ لأرض الرسالات

. . . على أنه لايعد ماحدث في النصف الأول من هذا القرن أكثر من غزو لابد من أن ينتهي . . مثلما ينتهي أي غزو في التاريخ، فهو يقول:

«كانت تجربة الحملات الصليبية تجربة حرب مستمرة دامت مئتي عام انتهت بهزيمة الصليبيين، وبرفض شامل لهذه الغزوات. إن الجيوش مهما بلغت من القوة، ومهما كان تجهيزها وإعدادها، لاتقدر أن تفرض نفسها إلى الأبد على إرادة الشعوب. نعم. إن الانهيار النهائي لكل المستعمرين من فيتنام إلى الجزائر، يدل تمام الدلالة على أن المواجهة بين الجيش والشعب منتهية حتماً - على الرغم من المجازر والفظائع - إلى هزيمة الجيش».

ويتابع قائلاً: إن الصهيونية لم تتمكن من احتلال فلسطين إلا بفضل حربين عالميتين، ولم تترسخ على أرضها حتى الآن إلا بفعل خمس حروب، وهي لم تصل إلى انتصارها الأول (وهو صدور وعد بلفور عام ١٩١٧) إلا بعد دخولها لعبة الخصومات بين القوى الاستعمارية الهادفة إلى تقطيع أوصال الإمبراطورية العثمانية وتقسيمها.

. . . ومع ذلك، «وعلى الرغم من هذا النشاط العسكري» فإن الصهيونية الإسرائيلية كما يرى غارودي قد وصلت مرة ثانية - كما سبق أن حدث عام ١٩٢٧ - إلى مرحلة الإنهاك، لأن الهجرة إلى إسرائيل لاتعدل

الهجرة منها، لأن دولة إسرائيل هي أقل بلاد العالم طمأنينة وأمناً، من جراء السياسة العدوانية الحربية التي ينتهجها القادة الصهاينة.

ويؤكد غارودي على أن إسرائيل استعمار استيطاني تماسكه مصطنع لامثيل له سوى نظام جنوب أفريقيا، وكذلك «القومية» الإسرائيلية فهي مصطنعة أيضاً أيما اصطناع، ومن الناحية التاريخية لم تكن هناك أمة يهودية في فلسطين حتى في عهد مملكة «داود». وكان البناء السياسي لمملكة داود هشاً غير مستقر، فلم يتح لثقافة أصيلة أن تنمو وتتطور.. وعلى مدى أربعة آلاف عام ولم تعش دولة عبرية إلا ثمانية وسبعين عاماً في ظل داود وسليمان ومئةعام في ظل «المكابيين».

... إن دهشة غارودي من شراسة الصهيونية ووقاحتها وهمجيتها وفاشيتها لاحدود لها، وقد ظلت تلازمه طوال صفحات الكتاب وهي ٣٧٦ صفحة من القطع الكبير. وها هو ذا يعود إلى إيدانها في صورة أخرى لاتفتقر إلى إصالة النظرة التاريخية «فقد عرفت هذه المنطقة عبر التاريخ اجتياحات وغزوات خارجية، ولكن.. لم تهدف أي منها إلى طرد السكان الأصليين أو إبادتهم، فالرومان والصليبيون والمستعمرون الإنكليز أنفسهم كانوا يكتفون بإقامة محميات لهم واحتلال البلاد للسيطرة عليها واستثمار سكانها. أما المخطط الصهيونية فلا نظير له: إنه يقوم على احلال شعب محل شعب، وحضارة محل حضارة. وقدمورس هذا المخطط بدءاً من هرتزل الذي يعلن في كتابه «الدولة اليهودية» قائلاً:

«سنشكل في فلسطين حصناً لأوروبا في وجه آسيا. وسنكون حصنا أمامياً متقدماً للحضارة الغربية في وجه البربرية».

... وانتهاء بغولدا مائير التي أعلنت في صحيفة «صنداي تايمز» عام ١٩٦٩ قائلة:

«ليس هناك فلسطينيون. نحن لانقر بوجود شعب فلسطيني آتينا لنطرده ونستولي على أرضه. نعم لاوجود لمثل هذا الشعب.»

وينظر المفكر الفرنسي الكبير إلى المقاومة الفلسطينية نظرة أعمق وأشمل، من مجرد كونها حركة كفاح مسلح عادل، من أجل تحرير وطن واستعادة حق مستلب، ذلك «أن المقاومة الفلسطينية - مهما كانت النكسات العسكرية التي واجهتها - تحمل عبء رسالة عالمية: إنها رسالة تاريخية تقوم بالدفاع عن الحضارة بحضارة تمتد بجذورها إلى الهلال الخصيب عبر آلاف السنين.»

. ولا يرى روجيه غارودي من حل إقليمي جزئي للقضية الفلسطينية. «إن الحل الوحيد الممكن، لن يكون إلا في إطار النظر إلى فلسطين على أنها جزء من الهلال الخصيب، لم تنفصل عنه قط عبر التاريخ» وليس هذا الهلال عنده، سوى جزء لا يتجزأ من الوطن العربي الكبير.

. . وهو لا ينسى أخيراً أن ينبه العرب إلى قوتهم الاقتصادية الهائلة، وهي قوة تقدر أن تقلب موازين القوى العالمية، لصالحهم أولاً وأخيراً، ومن أجل كسب تلك القوى إلى جانبهم:

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

«فأوروبا اليوم تعتمد في نصف ما تحتاجه من النفط على الشرق الأوسط وتستورد ٧٠٪ مما تحتاجه من العالم العربي. كذلك تحتاج فرنسا إلى النسبة نفسها من غاز الجزائر. إن حجم علاقة فرنسا التجارية بالجزائر وحدها يفوق أربعة أضعاف حجم علاقتها التجارية باسرائيل. وقل الشيء نفسه عن أوروبا كلها. فنصف صادرات الدول العربية تتجه صوب أوروبا التي تصدر إلى العالم العربي ١٢٪ من صادراتها أي مايعادل صادراتها إلى الولايات المتحدة. إن الدول العربية، سواء كانت مصدرة أو مستوردة هي أفضل شريك تجاري لأوروبا».

. . . مع ذلك فإن أوروبا منحازة بوضوح إلى جانب اسرائيل في موقفها من القضية الفلسطينية . . . وإنما يتجلى ذلك في الممارسة، ذاك أن الأقوال تبدو أحياناً متسمة بكثير من النفاق والتردد، وبينها وبين الممارسات الفعلية هوة كبيرة، فقد أعلن المجتمعون في مؤتمر القمة الأوروبي في

البندقية عام ١٩٨٠ «أن الشعب الفلسطيني يجب أن يمارس حقه في تقرير مصيره» وأعلنوا أيضاً أنهم يخالفون كل مبادرة أحادية الجانب تهدف إلى تغيير وضع القدس. . ولكن سرعان ما رأينا أن الرئيس الفرنسي ميتران في أول زيارة رسمية له إلى إسرائيل «لم يكن حازماً فيما يخص القضية الفلسطينية، ولم يدن إسرائيل لضمها الجولان، بل إنه اعترف ضمناً بضم القدس. . حينما قبل زيارتها. » وبعد سنة واحدة من هذه الزيارة طلب زعيم الصهاينة الفرنسيين «آلن دي روتشيلد» عام ١٩٨١ إلى رئيس وزراء فرنسا «بيير موروا» أن يفي بالوعود التي قطعها ميتران، والقاضية بإلغاء إجراءات مقاطعة إسرائيل. .

. . . بعد ذلك مباشرة، وبعد أن تأكدت إسرائيل من كسرها طوق العزلة، «كانت على ثقة من أنها تستطيع أن تجتاح لبنان دون أي عقاب، وذلك بفضل الدعم غير المشروط من قبل الولايات المتحدة وشركائها الطيعين في أوروبا.»

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

. حينذاك كان الاستنكار العالمي شاملاً، حتى انه دفع مجلس الأمن إلى اتخاذ قرار يطالب فيه بيغن بسحب قواته من لبنان «وكان القرار اجماعياً ماعدا صوتاً واحداً. إنه صوت الفيتو الأمريكي! أي إشارة الضوء الأخضر لممارسة المذبحة.»

* * *

المعمرون

عبد القادر فياض حرفوش

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مأساة العمر المديد:

إن مآسي الحياة وهمومها كثيرة اجتماعية كانت، سياسية قومية أم وطنية، وكل الهموم يسهل احتمالها مع الشباب وفتونه ونضارته، فالشباب ربيع دائم به تتمتع الأجيال.

عبد القادر فياض حرفوش: باحث من سورية، يهتم بالدراسات التراثية. من أعماله: «قبائل العرب»، «فصيحات العرب».

ولكن الهموم مع العجز والعمر المديد مأساة، خاصة أن الإنسان يفقد كثيراً من حواسه التي يرى فيها جمال الحياة مثل السمع والبصر، وتوازن العقل.

إن أعباء الحياة ومتاعبها تترك بصماتها على وجه الإنسان في خطوط متجعدة، أو على ظهره المنحني أو كفقده الرؤية في عينيه بعد أن كان يرى ما في الدينا من جمال وقبح، ربما نَسمع ونَحس، ولكن حاسة البصر تفوق كل الحواس لذة ومتعة.

إن العمر المديد وَجد منذ أن وَجد الإنسان على الأرض، فبعض الأمم كفلت نهاية الانسان بأن رعت عجزه أو شيخوخته، فحفظت بذلك كرامة الانسان الذي أعطى وقدم لوطنه دون تقصير.

وهناك من لا يرعى هذا الجانب الإنساني الهام، وربما عومل الإنسان العاجز بقرف وازدراء، فهذا ظلم اجتماعي لمثل هؤلاء الناس، وكلنا غير بعيد عن هذه النهاية التي لا مفر منها.

إن في مجتمعنا ترابطاً أُسرياً متين الجذور وهو يعتبر من المبادىء الأخلاقية التي تحث وتنص عليها العقيدة الإسلامية، ومع هذا نسمع الكثير من الروايات عن تخلي الأبناء عن الآباء أو الأجداد في مرحلة عجزهم لظروفهم العائلية، وإن هذا التفكك ظاهرة غير صحية في المجتمع العربي.

إن مساعدة الإنسان العاجز فضيلة، وتركه إساءة ورذيلة، وقالوا: كما تُعامل والدك يُعاملك ولدك. وفي مثل هذه الأمور سجل لنا أجدادنا العرب في تاريخهم وأدبياتهم أمثلة كثيرة على ذلك حيث تناقلوا أخبار المعمرين ودونوها فأصبحت من ذكريات الماضي وعبره، ومن المدهش أن نرى الإنسان في عصر ما كان يُعمر بين قرن وخمسة قرون، وربما أناف على ذلك، فإن العمر الذي يعد بمئات السنين يدخل في حدود الخرافة؟

ومن الناحية اللغوية «عُمْرُ: العَمْرُ والعُمُرُ والعُمْرُ: الحياة. يقال: قد طال عَمْرُهُ وعُمُرُهُ، لغتان فصيحتان، فإذا أقسموا فقالوا: لَعَمْرُكَ، والجمع أعمار. وسُمِّيَ الرجل عَمْراً تفاؤلاً أن يبقى»(١). واعتبر العرب كل من تجاوز عشرين ومائة سنة فهو معمر، ولكن زهير بن أبي سلمى سئم الحياة قبل أن يدخل في سن المعمرين، فقال:

سَئِمت تكاليفَ الحياة، ومن يعش ثمانين حَولاً، لا أبالكَ، يسأم(٢)

وهذا رُبيع بن ضُبيع بن وهب بن بغيض بن مالك بن سعد بن عدي بن فزارة. عاش أضعاف الثمانين التي ذكرها زهير. وقال لما بلغ من العمر عتياً شعراً يذكر شبابه ويتحسر عليه، فهو الآن لا يستطيع أن يُسيطر على بَعيرقوي، ولا يمكنه حمل السلاح، ويخشى الذئب إذا مَرَّ به ويخاف الريح والمطر، فقال:

أصبح مني الشَّبابُ قد حَسَرَا إن يَنْأَ عني فقد ثَوى عُصُرَا
والذئبَ أخشاه إن مررتُ به وحدي وأخشى الرِّياح والمطرا
من بَعْدِ قُوَّةٍ أُسَرُّ بها أصبحت شيخاً أُعالج الكبرا

والشيخ نفسه يوصي أهله برعايته في الصيف والشتاء، كيف لا وهو الخبير بما يصح له أو لا يصح فيقول:

إذا جاءَ الشُّتاءُ فأدفئُوني فإنَّ الشَّيخ يَهْدِمُهُ الشِّتاءُ
فأما حين يذهبُ كُلُّ قُرٍّ فسِرْبالٌ خَفيفٌ أوْ رداءُ
إذا عاش الفتى مائتي عامٍ فقد أودى المسرَّةُ والفناءُ(٣)

لقد سئم زهير الحياة عن ثمانين حولاً، وجاء المستوغر بن ربيعة بن كعب يصرخ بأعلى صوته في صحراء خالية أو فوق جبل يطل على وادٍ

يسمع صدى صوته عبر العمر المديد الذي لم يحسن تقديره حتى وصل مرحلة العجز فسئم الحياة وقال:

ولقد سَئمتُ من الحياة وطولها ... وعَمِرتُ من عدد السنين مئينا
مائةٌ حَدتها بعدها مائتان لي ... وعمرت من عدد الشهور سنينا
هَلْ ما بقي إلا كما قد فاتنا ... يومٌ يَمُرُّ وليلة تحدونا

وَسُمي المستوغر(٤) لأنه قال في الشعر يصف فرساً:

ينشُ الماء في الربلات منها ... نَشيش الرضف في اللّبن الوغير(٥)

وهذا حكيم العرب المشهور أكثم بن صيفي التّميمي أدرك الإسلام، وأرسل ابنه إلى النبي محمد (ص) وعاد إلى أبيه ليخبره ما سمع وما رأى فقال أكثم لابنه ماذا رأيت؟

قال: رأيته يأمر بمكارم الأخلاق وينهى عن ملائمها، فجمع أكثم قومه ودعاهم إلى اتباعه، وقال لهم: إن سفيان بن مجاشع سمى ابنه محمداً حباً في هذا الرجل، وأن أسقف نجران كان يخبر بأمره وبعثه فكونوا في أمره أولاً ولا تكونوا آخراً، فقال لهم مالك بن نُويرة: إن شيخكم خرف.

فقال أكثم: ويلٌ للشجي من الخلي. والهفي على أمرٍ لم أشهده ولم يسعني(٦).

ويذكر أكثم عمره من خلال شعره أنه قارب قرنين من الزمن، وربما لم يحسن التقدير لأن حسابات الزمن لم تكن دقيقة خاصة في المجتمع القبلي. وقال أكثم:

وإنَّ امرأً قد عاش تسعين حجَّةً ... إلى مائة لم يَسأم العَيشَ جاهلُ
أتتْ مائتان غير عَشر وفاتها ... وذلك من مَرّ الليالي قلائلُ(٧)

أقول: لقد بالغ المؤرخون عندما ذكروا عُمر المُعمر دويد[٨] بن نهد بقرون عدة، وقُبيل وفاته قال:

أَلْقَى عَلَيَّ الدَّهْرُ رِجْــلاً وَيَدا والدهر ما أصلحَ يوماً أفسدا

وإن شخصية هذا الرجل تتسم بالعنف ويظهر ذلك جلياً من خلال وصيته لأبنائه، أخذ الناس بالشر والفظاظة، فهو لا يقبل عذراً ولا يقبل عثرة، ولا يشيم أحداً، فإن أخلاقه تدل على أنه من اللصوص الذين لا يعرفون إلا طعم الموت للآخرين. وجمع الرجل بنيه عند الموت فقال:

أوصيكم بالناس شراً طعناً وضرباً، قصروا الأعنة، وأشرعوا الأسنة، وارعوا الكلأ وإن كان على الصفا وما احتجتم إليه فصونوه، وما استغنيتم عنه فسدوه على من سواكم. فإن غش الناس يدعو إلى سوء الظن وسوء الظن يدعو إلى الاحتراس.

ولابد هنا من أن أذكر، فمن شابه أباه فما ظلمه، فهذا أبو دويد وهو نهد بن زيد، الأب كالابن وجهان لعملة واحدة وكلاهما. في الشر واحد. فأوصى نهد بن زيد بنيه فقال:

يا بني أوصيكم بالناس شراً، كلموهم نزراً، واطعنوهم شزراً، ولا تقبلوا لهم عذراً، ولا تقيلوهم عثرة، وقصروا الأعنة، واشحذوا الأسنة، تأكلوا بذلك القريب، ويرهبكم البعيد، وإياكم والوهن فيطمع فيكم الناس[٩].

إنه أرذل العمر الذي يشكو منه من طال عمره، وهذا ابن حممة الدوسي واسمه كعب أو عمرو، عُمِّرَ حتى ملَّه العُمر وها هو، يصور لنا في شعره طول عمره الذي عاش وما أصابه من الكبر فقال يذكر ذلك:

كَبرْتُ وطالَ العُمْرُ حتَّى كأنَّني سليمُ أفاعٍ لَيْلُهُ غَيْرُ مُودَعِ
فما الموتُ أفناني ولكن تتابعتْ عليَّ سِنُونَ، من مَصيفٍ ومَرْبَعِ

ثلاثُ مِئين قد مَرَرْنَ كَوامِلاً وها أنا ذا أرتجي مَرَّ أرْبَعِ
وأصبحتُ مثل النَّسر طارتْ فِراخُهُ إذا رام تَطْياراً يَقُلْنَ لَهُ قَعِ
أُخبِّرُ أخبارَ القُرونِ التي مَضَتْ ولابُدَّ يوماً أن يُطار بِمَصْرَعي(١٠)

إن الرقابة أو تقييد الحرية على الصغار أو الكبار هي مصدر قلق لهم وهي تفقدهم الثقة بأنفسهم وبالآخرين، وتعلمهم طرق المراوغة والاحتيال للتخلص من العيون الحادة أو الفضول في المتابعة التي تكاد تكون كما الظل، فالصغير يريد أن يجرب الاعتماد على النفس ويتجاوز بعيداً عن عيون أمه ولو أخطأ وعوقب.

كما الشيخ يريد أن يثبت لمن حوله بأنه مازال قادراً ويستطيع تحقيق ما كان يفعله، وتؤذيه النظرات التي تنبعث من باب الحرص على حصول السلامة. وهذا مصاد بن جناب بن مرارة من بني عمرو بن يربوع بن حنظلة ابن زيد مناة عاش أربعين ومائة سنة وقال: يشكو للناس أمره فيقول:

مارَغْبتي في آخر العيش بَعْدَما أكُونُ رقيبَ البيت لا أتَغَيَّبُ
إذا ما أردتُ أن أقوم لحاجة يقولُ رقيبٌ حافظٌ أين تَذهبُ
فَيرجِعُهُ الْمُرمى به عن سَبيلِهِ كما رَدَّ فَرخَ الطَّائرِ المُترَتِّبُ

وقال: أيضاً:

إنَّ مَصادَ بنَ جنَابٍ قد ذَهَبْ أدْرَكَ مِنْ طُول الحياة ما طَلَبْ
والموتُ قد يُدرك يوماً مَنْ هرب(١١)

ولا هروب من الموت ولن يتسنى لأحد أن يهرب منه؟

ومن المعدودين في المعمرين من قضاعة زهير بن جناب، عاش كما قال المؤرخون قروناً عدة وأوقع مائتي وقعة وكان سيداً مطاعاً شريفاً في

قومه، ويقال كانت فيه عشر خصال لم يجتمعن في غيره من أهل زمانه، كان سيد قومه، وخطيبهم، وشاعرهم، ووافدهم إلى الملوك وطبيبهم والطب في ذلك الزمان شرف وحاذى قومه والحزاة الكهان . وكان فارس قومه، وله البيت فيهم والعدد منهم (١٢) .

عاش حتى هرم وغرض من الحياة وذهب عقله فلم يكن يخرج إلا ومعه بعض ولده أو ولد ولده وأنه خرج ذات عشية إلى مال له ينظر إليه فاتبعه بعض ولده فقال له ارجع إلى البيت قبل الليل فإني أخاف أن يأكلك الذئب؟

فقال: قد كنت وما أخشى بالذئب فذهبت مثلاً .

فهذا الرجل الماجد في عزة وكبرياء، عندما حل به الكبر والعجز قال:

فـــالموتُ خَيـــــــرٌ للفـــتـــى فليـــهـلكن وبه بَقـــيّـــــه

وقال زهير بن جناب حين مضت له مائتا سنة من عمره:

لقـد عُـمِّـرتُ حـتى مـا أبالي أحتـفي في صَبـاحي أو مَسـائي
وحُقَّ لمن أتت مـائتـان عـامـاً عليـــه أن يَمَلَّ منَ الثَّـــواء
ونَادمتُ الملوكَ من آل عــمــرو وبعـدهُم بَني مـاءِ السَّمـاء (١٣)

إن دوام الحال من المحال في الجاه أو في السلطان أو في صحة أو شباب أو مال، كله سيؤول إلى زوال ولكن المحزن أن يصبح الإنسان بعد أن يبلغ من العمر عتياً مثار سخرية الأطفال، لأنه لم يعد يملك السيطرة على نفسه، حيث لا نطق سليم، ولا سمع مرهف، ولا محاكمة عقلية، ولا ذاكرة جيدة، كل ذلك طاله عبث الزمن، ولا تعجب إذا قيل لك أن هبل بن عبد الله بن كنانة الكلبي، وهو جد زهير بن جناب، قد عاش ما لا يكن حصره من القرون حتى خرف ،غرض منه أهله فقالوا إن بني بنيه وبني بناته وبني أخيه كانوا يضحكون منه ومن اختلاط كلامه.

http://Archivebeta.Sakhrit.com

وقال حاطب بن مالك الجلس النهشلي يذكر طول عمر هبل :

تيم الله بن ثعلبة وامرأته:

كـأنَّكَ تَرجُو أن تعيش ابن مَالك — كعيْشِ هبْلٍ لقد سفِهتَ على عَمْد
ومـاذا تُرَجِّي من حـيـاة ذَليلةٍ — تُعَمِّرُها بين الغَطارفـة المُرْدَ
وأنت لَفيَّ في البيت كالرآل مُدْنِفٌ — وقد كنت سبّاقاً إلى غاية المجد
ولَلْمَوْتُ خيرٌ لا مرىء من حياتهٌ — يَدِبُّ دَبِيباً في المَحلة كـالقـرد(١٤)

إن ما حدث لامرأة تيم الله بن ثعلبة في ذاك العصر ، ربما تتكرر في عصور عديدة بعده حتى عصرنا الحاضر .

خرج أبناء تيم الله ذات ليلة يبحثون عن الإبل فتغيرت الأنواء وخاف تيم الله على أولاده من ريح ومطر شديد، وليل كالح .

فقال لامرأته : هل خشتي؟ قالت : لا . قال : فإن عاد أبنائي فهم يشبهونني وإن لم يعودوا فلا ... وأنت مصيرك الموت . وعاشت المرأة بقلق ترتعد مفاصلها من الخوف، إن عاد أولادها سلمت، وإن لم يعودوا مصيرها الموت وهي خائفة إنها معادلة صعبة .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وبدأ الأولاد يعودون الواحد تلو الآخر ، فسرت الأم لأنها تبرأت من تهمة الخيانة .

إن ثقة تيم الله بنفسه جعلته يتصرف هكذا وباعتقاده أن أولاده يجب أن يكونوا مثله عندهم القدرة على التخلص من المأزق الصعبة . وفي ذلك وقع حكمه الظالم على زوجته، وليس بالضرورة أن يشبه الأولاد الأب «تكاد المرأة أن تلد أباها أو أخاها»(١٥) وربما أبعد من ذلك . وهذه ترجمة تيم الله :

هو : تيم الله بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل ...

تجاوز المؤرخون حدود المعقول في ذكر عمره وقالوا: أخلق أربعة لجم حديد وكان من دهاة العرب في زمانه.

فبلغنا أنه بعث بنيه ذات يوم في طلب إبل له ضلت فهبت ريح بعدما خرجوا من عنده شديدة وذلك في الشتاء فقال لامرأته أم بنيه: انظري من أين هبت الريح؟ فنظرت ثم قالت: من مكان كذا وكذا.

فقال لها: أختنني في بني أم لا؟

فقالت: لا والله ما خنتك فيهم.

فقال: ويحك والله إني لا علم أنها ريح تدهدي البعر وتعفو الأثر فلا يعرفون منطلقاً وانها لتسوق مطراً فلا يعرفون أثراً فإن رجعوا فهم بني وإياي أشبهوا. وإن مضوا فلن تريهم أبداً وقد خنتني فيهم ووالله لاقتلنك إذاً قبل أن يرجعوا، ثم لم يزل ليله أجمع ما ينام وما تنام امرأته حتى إذا كان عند طلوع الفجر رجع أحدهم فقال له أبوه تيم الله ما ردك قال: هبت ريح تدهدى البعر وتعفو الأثر وتسوق المطر فلم أر منطلقاً فتتابعوا على مقالته كلهم ورجعوا إلى أبيهم فسر بذلك وقال: أنتم بني حقاً وإياي أشبهتم فلما حضره الموت أمر بنيه أن يحفروا قبره بمكان يقال له حفن وقال في ذلك:

وكان الذي ولي كبرته من بنيه هلال وبنو هلال بن تيم الله أقل بني تيم الله عدداً وأخملهم ذكراً فقال في ذلك الأخنس بن عباس بن خنساء بن العزى بن هلال بن تيم بن ثعلبة:

هاذاكَ تَيمُ اللهِ يُبْنَى بَيْـتُـه   بحَـفَنٍ حيَـاتُه ومَـوتُه

مأساة أوس بن حارثة:

ذكر ابن الكلبي عن أبيه أن أوس بن حارثة بن لأم... بن جندب بن فطرة بن طيء... عاش مائتي سنة وعشرين سنة حتى هرم وذهب سمعه وعقله وكان سيد قومه وفي بيتهم.

حَـمَلْنَا الشَّـيخَ تَيْمَ اللهِ عَـوْداً وكــانَ ولَيَّ كَـبْـرتِه أبُونا
ولم يَكُ طِبُّ أعمـامي عُـقُـوقـاً ولكنَّا كــفَـيْنا مـا وَلِينَا
جَـزَيْناهُ بنعْـمَـتـه علينا وأطرفْناهُ حـتَّى مـات فـينا(١٦)

فبلغنا أن بنيه ارتحلوا وتركوه في عرصتهم حتى هلك فيها ضيعة وهم يُسَبُّون بذلك اليوم ... وفي ذلك يقول الأسهم بن الحارث أحد بني طريف بن مالك ... من جديلة طيء :

أن يموت الإنسان ويدفن هذا هو منطق الحياة، أما أن يُترك حياً يلقى حتفه بين فكي ذئب جائع يمزق جسده وهو يئن ويصرخ، أو من الطيور الجارحة تنقر بمناقيرها الفولاذية رأسه وتسمل عينيه، إنها مأساة وسابقة خطيرة في عصرها، تنم عن أخلاق وشراسة في التعامل، وعدم اعتبار للإنسان الذي قدم ما استطاع لقومه، بئس الأبناء والأحفاد الذين هم على هذا النمط الحقير من بني البشر.

http://Archivebeta.Sakhrit.com

أتـاني بـالمَحـلَّة أنَّ أوسـاً على شطنَانَ مـاتَ من الهُزَالِ(١٧)
تَحـمَّلَ أهلُهُ واسْـتَـوْدَعُـوهُ خَسِيّاً من نَسيج الصوفِ بالِ(١٨)
تَظَلُّ الطَّيـرُ تَعـفُـوهُ وقُـوعـاً ألا يَا بُؤسَ للشَّـيـخ المُذالِ(١٩)

معاوية وعبيد بن شرية الجرهمي:

قالوا: وعاش عبيد بن شرية الجرهمي ثلاثمائة سنة وقال بعضهم: مائتين وعشرين سنة.

إلا أنا نظن أنه عاشها في الجاهلية وأدرك الإسلام فأسلم وقدم على معاوية بن أبي سفيان.

قال له معاوية: أخبرني كم أتى عليك؟

قال: مائتان وعشرون سنة.

قال: ومن أين علمت؟

قال: قال من كتاب الله.

قال: ومن أي كتاب الله؟

قال: من قول الله تبارك وتعالى «وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم»(٢٠).

فقال له معاوية: وما أدركت؟

فقال: أدركت يوماً في أثر يوم وليلة في أثر ليلة متشابهاً كتشابه الحذف يحدوان بقوم في دبار قوم يكذبون ما يبيد عنهم ولا يعتبرون بما مضى منهم، حيهم يتلف ومولودهم يخلف في دهر قد تصرف أيامه، تقلب بأهلها كتقلبها دهرها، بينا أخوه في الرخاء إذ صار في البلاء، وبينا هو في الزيادة إذ أدركه النقصان، وبينا هو حرّ إذ أصبح قناً لا يدوم على حال ولا تدوم له حال بين مسرور بمولود ومحزون بمفقود فلولا أن الحي يتلف لم يسعهم بلد ولو لا أن المولود يخلف لم يبق أحد.

http://Archivebeta.Sakhrit.com

قال معاوية: يا عبيد أخبرني عن المال أيه أحسن في عينيك؟

قال: أحسن المال في عيني وأنفعه غناء وأقله عناء وأبعده من الآفة وأجداه على العامة عليك خرارة في أرض خوارة إذا استودعت أدت وان استحلبتها درت فأفعمت تعول ولا تعال.

قال معاوية: ثم ماذا؟

قال: فرس في بطنها فرس تتبعها فرس قد ارتبطت منها فرساً.

قال معاوية: فأي النعم أحب إليك؟

قال: النعم لغيرك يا أمير المؤمنين. قال لمن فلاها بيده وباشرها بنفسه.

قال معاوية: حدثني عن الذهب والفضة؟

قال: حجران إن أخرجتهما نفدا وإن خزنتهما لم يزدا.

قال معاوية: فأخبرني عن قيامك وقعودك وأكلك وشربك ونومك وشهوتك للباءة؟

قال: أما قيامي فإن قُمت فالسماء تَبعد وإن قَعدت فالأرض تَقرب، وأما أكلي وشربي فإني إن جعت كَلبت وان شَبعت بهرت، وأما نومي فإن حضرت مجلساً حالفني، وان خلوت أطلبه فارقني وأما الباءة فإن بُذلت لي عَجزت وان مُنعت غَضبت.

قال معاوية: فأخبرني عن أعجب شيء رأيته؟

قال: أعجب شيء رأيته إني نزلت بحيٍ من قضاعة فخرجوا بجنازة رجل من عذرة يقال له حريث بن جبلة فخرجت معهم حتى إذا واروه انتبذت جانباً عن القوم وعيناي تذرفان ثم تمثلت شعراً كنت رويته قبل ذلك:

معاوية وثوب بن تلدة الأسدي:

قال ابن الكلبي: سمعت أبي يقول: أدرك ثوب بن تلدة معاوية فدخل عليه فقال: ما أدركت وكم عمرك؟

وبينما المرءُ في الأحياء مُغْتَبطاً ... إذ صار في الرَّمْسِ تَعْفُوهُ الأعاصيرُ
تبغي أموراً فما تدري أعاجلُها ... خيرٌ لنفسك أم ما فيه تأخيرُ
يبكي الغريبُ عليه ليس يعرفه ... وذو قرابته في الحيِّ مَسْرُورُ(٢١)

قال: لا أدري إلاّ أني أدركت بني والبة ثلاث مرات يريد أفنيت ثلاثة قرون.

قال: فكيف بصرك اليوم؟

قال: أحد ما كان قط كنت أرى الشخص واحداً فأنا أراه اليوم شخصين.

قال: فكيف مشيك؟

قال: أمشي ما كنت قط أمشي تيدا فأنا اليوم أهرول هرولة.

فقال: أأدركت أمية بن عبد شمس؟

قال: نعم وهو أعمى يقوده عبد يقال له ذكوان.

فقال له معاوية: كف فقد جاء غير ما رأيت يا ثوب ثم قال معاوية: ليس في البيت إلا أموي فانظر أي هؤلاء أشبه بأمية فنظر ثم قال هذا لعمرو ابن سعيد بن العاص وهو عمرو الأشدق. وقيل له الأشدق لأنه كان خطيباً مفلقاً.

وقيل عاش ثوب بن تلدة الأسدي عشرين ومائتي سنة. وقال شعراً يذكر ذلك:

وإنَّ امْرأً قد عاشَ عشرين حِجَّةً ... إلى مائتين كُلُّها هو دائبُ
لَرَهنٌ لأحداثِ المنايا وإنَّما ... يُلَهِّيه في الدُّنيا مُناه الكواذبُ[٢٢]

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

معاوية وفضالة بن زيد العدواني:

لم يمل معاوية من مقابلة المعمرين، يسألهم عن ماضيهم وحاضرهم، ويغوص معهم بأسئلة تمس حياتهم الشخصية دون حرج ويأتيه الجواب وهو يسمع، وربما اعترض إذا لم يعجبه الجواب. ولكل منهم عقليته في التفكير.

قدم فضالة بن زين العدواني على معاوية فقال له معاوية كيف أنت والنساء يا فضالة؟

قال يا أمير المؤمنين:

فقال له معاوية: كم أتت لك من سنة يا فضالة؟

قال: عشرون ومائة سنة.

قال: فأي الأشياء بك منذ كنت بها أسر، وأي شيء بوقوعه كنت أشد اكتئابا؟

لا بَاءَ لي إلا المُنى وأخُـــو المُنى جَدير بأن يُلْحَى ابن حرب ويشتما[٢٣]
وفيم تَصابى الشيخ والدّهرُ دائبٌ بمبــراته يَلْحـو عُـروقـاً وأعظُمـا
كـذلك ريبُ الدّهرِ يتـركُ سَهْمُـهُ أخـا العـزِّ والأذلَّ الذليلَ المُذَمَّـما[٢٤]

قال: يا أمير المؤمنين لم يقطع الظهر قطع الولد شيء ولا دفع البلايا والمصائب مثل إفادة المال، والله يا أمير المؤمنين إن المال ليقع من القلب موقعاً ما يقعه شيء وإن الولد الصالح يمثل منزلة المال ولكن للمال فضيلة عليه وإن كان طلب المال إنما يجمعه لولده فإنه آثر عنده منه لأنه قد يمنعه المال إذا طلبه منه وان كان يثمره له فهو أحلى متاع الدنيا عند أهل الدنيا.

قال معاوية: ليس كل أحد على رأيك للمال حال والولد حبة القلب وولد النفس وقطبة العيش لا خير في المال لمن لا ولد له إلا أن يكون مالاً ينفقه في سبيل الله. فقال فضالة: يا أمير المؤمنين:

فقال معاوية قاتل الله أخا بني أسيد حين يقول:

عامر بن الظرب العدواني أحد حكماء العرب:

عاش عامر بن الظرب العدواني مائتي سنة وكان حكماً للعرب وفيه يقول ذو الاصبع العدواني:

وما العَيْشُ إلاّ المالُ فاحفَظْ فُضولَه ولا تُهلِكَنْهُ في الضَّـــلالِ فـتندَمِ
فإني وجَدْتُ المالَ عـزّاً إذا التـقَتْ عليكَ ظِلالُ الحــربِ تُدْهِمُ بالدَّمِ
وفي الفـقْرِ ذُلٌّ للرِّقـابِ وقَلَّ مـا رأيت فـقـيراً غـيـر نَكْسٍ مُـذَمَّمِ
كــذلك هذا الدّهرُ يرفَعُ ذا الغنى بـلا كَـــرمٍ منهُ ولا بتَـــحلُّمِ

قال ابن عباس: قضى عامر بن الظرب العدواني من جديلة قيس على العرب بعد عمرو بن حممة الدوسي، والذي قضى على العرب ثلاثمائة سنة فألزموه السابع من ولده فكان معه الشيخ إذا غفل كانت بينه وبينه أن تُقرع العصا حتى يعاوده عقله فذلك قول المتلمس الشكري:

بَني أمِّ ذي المال الكثـــيرِ يَرونَهُ ... وإنْ كانَ عبداً سَيِّدَ الأمْرِ جَحْفَلا
وهـم لمـقـلِّ المـال أولادُ عـلَّـة ... وإن كان مَحْضاً في العُمومَةِ مُخْولا[٢٥]

ومِنّا حَكَمٌ يَقْـضـي ... فـلا يُنْقَضُ مـا يَقْـضـي

فلما كبر عامر بن الظرب وتخوف قومه أن يموت اجتمعوا إليه فقالوا: يا سيدنا وشريفنا أوصنا.

لذي الحِلْم قبل اليوم ما تُقْرَعُ العَصا ... وما عُلِّمَ الإنسانُ إلا لِيَعْلَما

فقال: يا معشر عدوان كلفتموني تعباً إن القلب لم يخلق. ومن لك بأخيك كله. إن كنتم شرفتموني فقد التمست ذلك منكم وإني قد أريتكم ذلك من نفسي وأني لكم مثلي افهموا عني ما أقول لكم: من جمع بين الحق والباطل لم يجتمعا له وكان الباطل أولى به وإن الحق لم يزل ينفر من الباطل ولم يزل الباطل ينفر من الحق. لا تفرحوا بالعلق ولا تشتموا بالزلة. وبكل عيش يعيش الفقير. ومن ير يوماً ير به. وأعدوا لكل أمر قدره. قبل الرماء تملأ الكنائن. ومع السفاهة الندامة. والعقوبة نكال وفيها ذمامة فلا تذموا العقوبة. واليد العليا معها عافية والقود راحة لا عليك ولا لك. وإذا شئت وجدت مثلك إن عليك كما إن لك. وللكثرة الرعب وللصبر الغلبة. من طلب شيئاً وجده وإن لا يجده يوشك أن يقع قريباً منه. فيا معشر عدوان إياكم والشر فإن له باقية. وادفعوا الشر بالخير يغلبه. إنه من دفع الشر بالشر

رجع الشر عليه وليس في الشر أسوة. ومن سبقكم إلى خير فاتبعوا أثره تجدوا فضلاً. إن خالق الخير والشر وسعهما ولكل يد منهما نصيب. يا معشر عدوان ان الأول كفى الآخر فمن رأيتموه أصابه شر فإنما أصابه فعله فاجتنبوا ذلك الذي فعله. يا معشر عدوان إن الشرّ ميتٌ وإنما يأتيه الحي فيصيبه ومن اجتنب الشر لم يثب عليه. يا معشر عدوان إن الخير عزوف ألوف ولم يفارق الخير صاحبه حتى يفارقه ولن يرجع إليه حتى يأتيه. يامعشر عدوان ربوا صغيركم واعتبروا بالناس ولا يعتبر الناس بكم. وخذوا على أيدي سفهائكم تقلل جرائركم. وإياكم والحسد فإنه شؤمٌ ونكد. وإن كل ذي فضل واجد أفضل منه. ومن بلغ منكم خطة خير فأعينوه واطلبوا مثلها ورغبوه في نيته وتنافسوا في طريقته ومن قصر فلا يلومن إلا نفسه. وإني وجدت صدق الحديث طرفاً من الغيب فاصدقوا تصدقوا- يقول من لزم الصدق وعوده لسانه وفق فلا يكاد يتكلم بشيء بظنه إلا جاء على ظنه.

وإني رأيت للخير طرقاً فسلكتها ورأيت للشر طرقاً فاجتنبتها وإني والله ما كنت حكيماً حتى تتبعت الحكماء وما كنت سيدكم حتى تعبدت لكم. إن الموعظة لا تنفع إلا عاقلاً. وإن لكل شيء داعياً فأجيبوا إلى الحق وادعوا إليه وأذعنوا له- يريد ذلوا للحق[٢٦].

إن لعامر حكماً وأحاديث كثيرة واقتصرت على ما أوردت كما رأيت فيه من الفائدة للقارىء ليطلع على أفكار من سبقونا في معالجتهم لأمور الحياة كافة وسلوكهم الاجتماعي وعلاقتهم فيما بينهم.

ولكل معمر قصة عبر حياته الطويلة وربما رواية وقصص منها المؤلم والمحزن وقليل منها ما يسر، ولكن ما تركوه لنا من أشعار وحكم فاضت عقولهم بها من خلال تجاربهم التي مروا بها لهو من تراثنا الأدبي بمكان، وإن ما أذكره إنما هو غيض من فيض واستوقفتني رواية أن بعضهم كان يحجب المعمر عن الناس لأنه كان يخلط بكلامه منهم حارثة بن عبيد الكلبي.

وعاش حارثة بن عبيد الكلبي سنين كثيرة في الجاهلية، وأدرك الإسلام وقد حجب دهراً طويلاً، وكذا كانت العرب تفعل بالكبير منهم تحجبه: وقال:

ألا يا لَيْتَني أنضَيتُ عُمْري ... وهل يُجدي عليَّ اليومَ لَيْتي
حَنَتْني حانياتُ الدَّهرِ حتى ... بَقيتُ رَذِيَّةً في قَعْرِ بيتي
تأذّى بي الأقاربُ إذ رأوني ... بقيت وأينَ مني اليوم موتي (٢٧)

كل واحد من المعمرين عندما يمل حياته ويمله أهله يذكر ذلك وفي قلبه جرح من مآسي الزمن وعواقبه، فهذا أوس بن ربيعة بن كعب بن أمية الأسلمي عاش مائتي سنة وأربع عشرة سنة وقال في ذلك:

لقد عُمِّرتُ حتّى ملَّ أهلي ... ثَوائي عندهم وسَئِمتُ عُمْري
وحُقَّ منَ الثَّواءِ وصُبْحُ يومٍ ... يُغاديه وليلٌ بعدُ يَسْري (٢٨)

والمسجاح بن خالد بن الحارث ... الضبي. هرم وملَّ الحياة، يصور لنا حياته بأبيات شعرية قال فيها:

لقد طوَّفتُ في الآفاق حتى ... بَليتُ وقد أنى لي لو أَبيدُ
وأفناني وما يَفنى نهارٌ ... ولَيلٌ كلَّما يمضي يَعودُ
وشَهرٌ مُستهلٌ بعد شَهرٍ ... وحولٌ بعدَه حَولٌ جَديدُ
ومَفقودٌ عزيزُ الفَقدِ تأتي ... مَنيَّتُه ومأمولٌ وليدُ (٢٩)

هذه هي الحياة: يوم شبيه بيوم وليلة شبيهة بليلة، يموت ميت ويولد مولود فلولا من يموت لم تسعهم الأرض ولولا من يولد لم يبق أحد على وجه الأرض... إنها سنة الحياة.

لم أنظر إلى أعمارهم المديدة والتي ربما دخل بعضها في حدود الخيال وسوء التقدير إنما نظرت إلى ما أبدعه هذا المُعمر من شعر وأدب، ومثل وحكمة، وحكاية وقصة.

ARCHIVE http://archivebeta.sakhrit.com

هوامش البحث

١ - لسان العرب مادة (عمر).
٢ - ديوان زهير بن أبي سلمى ٢٥.
٣ - المعمرون ص٧.
٤ - المستوغر: اسمه عمر.
٥ - الربلات: واحدتها ربلة وهي باطن الفخذ. والرضن: الحجارة المحماة يوغر بها اللبن أي يغلي. والوغير: اللبن يسخن بالحجارة المحماة «المصدر السابق نفسه ص١٠».
٦ - انظر الأمثال للميداني ٢/٣٦٧.
٧ - المعمرون ص ١١.
٨ - وقيل دريد بن زيد بن نهد.
٩ - المصدر السابق نفسه ٢١.
١٠ - المصدر السابق نفسه ٢٢.
١١ - المصدر السابق نفسه ٢٣.
١٢ - عد تسعة خصال ولم يذكر العاشرة.
١٣ - المصدر السابق نفسه ٢٧.
١٤ - المصدر السابق نفسه ٢٩.
١٥ - حديث عن الرسول (ص) «خولوا أولادكم فإن المرأة تكاد أن تلد أباها أو أخاها».
١٦ - المصدر السابق نفسه ٣٢- أطرفناه- ابتدأناه بالنعم.
١٧ - شظنان: أرض ترك الشيخ بنوه بها.
١٨ - الحسي: الصوف الذي لم يجز إلا مرة واحدة.
١٩ - المصدر السابق نفسه ٣٦.
٢٠ - سورة الإسراء آية ١٢.
٢١ - المعمرون ٤٠، ٤١.
٢٢ - المصدر السابق نفسه ٥٩.
٢٣ - الرواية: ولا قمط لي- والقمط: الجماع ومن قال باه فقد أخطأ لأن الباءة ممدودة وهي تاء في الإدراج.
٢٤ - الأدّ: الأيد ذو القوة.
٢٥ - المصدر السابق نفسه ٧٧.
٢٦ - المصدر السابق نفسه ٤٧.
٢٧ - المصدر السابق نفسه ٦٧.
٢٨ - المصدر السابق نفسه ٦٦.
٢٩ - المصدر السابق نفسه ٦٨.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

آفــاق المعرفــة

نافذة على الوطن العربي

عبد الرحمن الحلبي*

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أفكار علمية

الوقاية من الاضطرابات الخطيرة

توجهت الأنظار، حديثاً إلى نتائج بعض البحوث المثيرة التي أجريت على مجموعة من المركبات تدعى «الإستروجينات المخاتلة Design-er Estrogens». وهي معروفة طبياً باسم الناظمات الانتقائية لمُستقبلة الاستروجين، المعروفة

(*) عبد الرحمن الحلبي: باحث من سورية، مدير ندوة كاتب وموقف.

علمياً بـ «SERMS» أي Selective estrogen receptor modulators. وهذه المركبات تسلك سلوك الاستروجين في بعض الأنسجة، في حين أنها تلجم عمل هذا الهرمون في أنسجة أخرى!

فقد أظهرت دراسة واسعة، صدرت ربيع العام 1998أن ثمة مركباً من هذه المركبات- يدعى التاموكسيفين Tamoxifen ويستخدم في معالجة السرطان- يمكنه أن يقي من سرطان الثدي في النساء اللواتي أعمارهن أقل من 35سنة، المعرضات بشدة لخطر هذا النوع من السرطان، ولم يكن يعرف في الماضي أي عقار يمكن بوساطته تفادي الإصابة بأمراض الثدي الأولية. وبعد هذه الدراسة مباشرة ذكر تقرير علمي تمهيدي أن عقاراً آخر على صلة بهذه المركبات، وهو «الرالوكسيفين raloxifin» . قد يمكنه أيضاً أن يقي النساء من سرطان الثدي. وقد اختير هذا العقار لمعالجة نساء تجاوزن سن «اليأس» أو الإياس menopaus، وكن- فيما عدا تقدم السن- لا يشكين من علامات محددة توحي بمخاطر عالية للإصابة بالسرطان(١).

http://Archivebeta.Sakhrit.com

بعدئذ بدأت مصادر مختلفة في الإشارة إلى أن «الرالوكسيفين»، الذي يوصف الآن للوقاية من نقص كثافة العظام عند النساء المتقدمات بالسن، وكذلك المركبات «SERMS» الأخرى قيد التطوير، يمكن أن تقي النساء من مجموعة من الاضطرابات الخطيرة التي تتفشى بين النساء بعد الاياس (سن اليأس)، ومنها سرطان الثدي وترقق العظام (ويقال أيضاً: تخلخل العظام، ومسامية العظام: وهو حدوث هشاشة في العظم تضعف مقاومته للكسور، ويصيب النساء بعد سن الإياس، ويعرف علمياً بـ osteoprosis)، ثم سرطان الرحم- الذي يصيب بطانة الرحم- ثم مرض الشرايين الإكليليّة، الذي يُعدّ السبب الرئيسي للوفيات بين النساء والرجال على حدّ سواء.

ويتوقع العلماء، إذا ما تحققت الآمال المعقودة على المركبات المذكورة، أن يحدث تحسن واضح على صحة النساء خلال القرن الحادي

والعشرين. فقد أمضى أحد العلماء أكثر من ثلاثة عقود في اختبار فعل هذه المركبات وتأثيراتها الجانبية، وإمداد الباحثين السريريين بالمعلومات اللازمة لتجريبها على البشر، وكيفية تطورها من أدوية تعالج السرطان، إلى أدوية تستطيع المحافظة على صحة وحيوية النساء اللائي تتقدم بهن السن.

يُعدّ الإستروجين جزيئاً متناقض الأداء، فهو ضروري للنساء وضار بهنّ في آن معاً، وفائدة الأستروجين الأكثر وضوحاً هي برمجة جسم الأنثى للتناسل (ولاسيما الثدي والرحم والدماغ)، وهو وظيفة أساسية للحفاظ على الجسم البشري.

وخلال العقدين الماضيين من القرن العشرين تبين أن هرمون الاستروجين يؤثر في أعضاء أخرى بطرق فعالة تسهم في المحافظة على صحة الجسم. فمثلاً يؤثر في مراكز الدماغ التي تحافظ على حرارة الجسم، كما أنه يحافظ على سماكة بطانة المهبل ويجعلها زلقة، وما هو أكثر أهمية من هذا - حسب بعض العلماء - دوره في حماية القلب، فهو يحدّ من تراكم «اللويحات التصلب العصيدي» atherosclertic plaque في شرايين القلب الإكليليّة (التاجية)، لأن الإستروجين يتدخل في تركيب الكوليسترول في الكبد؛ فيحدّ من انتاج الشحوم المسببة للتصلب العصيدي، أي الكولستيرول ذو البروتينات الدهنية الخفيضة الكثافة (LDL)؛ وبالمقابل يرفع نسبة الكولستيرول ذي البروتينات الدهنية العالية الكثافة (HDL) التي تحدّ من تكوين العصيدة الشريانية. كما أن الإستروجين يحمي العظام، فيساعد على المحافظة على التوازن بين بنائها وانحلالها. وهناك شواهد حديثة على أن الاستروجين يمكن أن يقوّي الذاكرة ويؤخر داء «الزهايمر» أو يخفف من حدّه.

وتشعر النساء، عادة، بأهمية الاستروجين وفضله عليهن عندما يعانين فقدانه عند الاياس وما بعدها. وهذه الفترة تبدأ عادة في سنّ

الخمسين، وعندها يتوقف مبيض المرأة عن اطلاق البويضات وإنتاج الاستروجين. وتبدأ المرأة تعاني الشعور بهبات حرارة في بدنها مع تعرّق ليلي. وهذه الأعراض المزعجة قد تستمر سنوات عديدة. وفي غضون ذلك يرتفع في الجسم إنتاج الكولستيرول (LDL)، وتحصل سائر التغيرات القلبية الوعائية فتزداد إمكانية حدوث أمراض الشرايين الإكليليّة والنوبات القلبية، كما أن ترقق العظام الذي يبدأ عادة في الثلاثين من العمر يتسارع بعد الإياس ويؤدي، غالباً، إلى هشاشة العظام وتشوهها في سن السبعين.

إلا أن المظهر الأكثر شراسة من مظاهر تدني نسبة الإستروجين في بدن المرأة هو القابلية لإثارة سرطاني الثدي وبطانة الرحم اللذين يكثر حدوثهما في السنوات التي تلي سن الإياس. ومن المحتمل أن الهورمون لايبدأ بإحداث التغيّرات الخلوية التي تؤدي إلى هذه السرطانات، ولكنه يحثّ على نموّ الخلايا التي تكون قد بدأت خطواتها الأولى نحو التكاثر السرطاني غير المنضبط.

http://Archivebeta.Sakhrit.com

ويلاحظ بعض العلماء، بعد توقف الإباضة في النساء، أنهن كثيراً مايلجأن لتعويض النقص الحاصل في الآثار المرغوبة للاستروجين، وذلك بتناول بعض البدائل الطبيعية أو المركبة. هذه المعالجة تخفف من هبات الحرارة، وإذا ما استمرت فترة طويلة فإنها تعمل على مقاومة ترقق العظام، وقد ذكرت دراسات عديدة أنها تقلل أيضاً من إمكانية حصول النوبات القلبية، وإن كانت المسألة بحاجة إلى المزيد من الدراسات المستقبلية. وبإضافة البروجستين للبرنامج العلاجي تقي من سرطان الرحم؛ لأن البروجستين يحرّض على تساقط بطانة الرحم شهرياً (بما قد تحمله من خلايا ورمية). ولكن المشكلة في هذه الحالة هي أن العديد من النساء اللواتي تقدمن بالسن لايرغبن في عودة العادة- الدورة- الشهرية مجدداً.

ومن الآمال العريضة المعقودة على استخدام المركبات SERMS أنها

ستضاعف من الفوائد الجليلة للإستروجين فيما يخص القلب والعظام، وبهذا تغلق الباب على الخطر الذي ينشأ عادة عن الاستروجين، وبما أن هذه المركبات يمكن أن تزيد من الانزعاج الناجم عن هبات الحرارة المصاحبة عادة لسن الإياس، فمن المرجح أن يقتصر استخدامها على النساء اللواتي خمدت عندهن تلك الأعراض ولم يعدن يعانينها.

ولابد من ملاحظة أن التمارين الرياضية والعناية الشديدة بالتغذية ومقدار الكالسيوم في الطعام يمكن أن يساعد على المحافظة على العظام والقلب، من دون الحاجة إلى تناول أية أدوية، ويؤكد بعض العلماء أن هذه الطريقة يمكن أن تقي من سرطاني الثدي والرحم، ولكن يجب أن يُختبر جيداً مدى تفضيل هذه الطريقة على العلاج الدوائي.

وعلى الرغم من أن الأضواء قد سُلّطت فجأة على قدرة المركبات SERMS على الوقاية من الأمراض، فإن هذه القدرة لم تؤخذ في الاعتبار مطلقاً عندما عرف العقار «تاموكسيفين» -وهو أشهر أفراد هذه المركبات- قبل نحو / 40/ عاماً، ولكن أحداً لم يتحقق بعد من أن هذا العقار، أو أي دواء كيميائي آخر، يمكن أن يسلك سلوك الاستروجين في بعض الأنسجة، في حين يعمل مضاداً للاستروجين في أنسجة أخرى. وفي السبعينات من القرن العشرين إقترحت الدراسات أن التاموكسيفين باعتباره مضاداً للاستروجين يمكن أن يوقف نمو أورام الثدي الغنية بالمستقبلات، بل يمكنه أن يقضي عليها من دون حاجة المصابات إلى الجراحة أو استئصال الأعضاء المنتجة للاستروجين.

لقد تبين للعلماء، بعد التجارب الطويلة، أن هذا العقار قلّص في الفئران أورام الثدي الغنية بمستقبلات الاستروجين، ومنَع المُسرْطِنات carci-nogens المعروفة من إحداث أورام جديدة. وقد توصل العلماء، بعد عقد

من الزمن، إلى أن الجسم البشري يُحوّل التاموكسيفين إلى عدد من المشتقات المختلفة- أي المستقبلات، وهم يختبرون الآن نسخاً معدّلة من بعض هذه المستقبلات metabolites، التي كان «الرالوكسيفين» واحداً منها.

وخلال ربيع العام 1998على سبيل المثال، تبين أن إعطاء الرالوكسيفين للنساء بعد سن الإياس يقلل من نسبة الكولستيرول LDL «السيء» دون أن يقلل من نسبة الكولستيرول HDL «الجيد»، ولذا فإنه ربما يقلل أيضاً من معدل النوبات القلبية. وهناك دلائل أخرى مهمة من دراسات ركزت على ترقق العظام وأفادت أن العقار ربما يستطيع أن يقي من سرطان الثدي في الفئة نفسها من النساء، خافضاً معدّل حدوثه بنحو 50%. كما بينت دراسات سريرية محدودة عدم حدوث نشاط شبه استروجيني مقلق في الرحم بعد تعاطي العقار، ولكن هذا التأثير لايزال يلزمه المزيد من التقييم.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ثورة حقيقية، إذاً، حدثت خلال العقدين الأخيرين من القرن العشرين في تحسّن المستوى الصحي للنساء. فقد حافظ التاموكسيفين، وهو أول ماعرف من المركبات SERMS، على ملايين الأرواح من خلال تأثيره المضاد للاستروجين في خلايا سرطان الثدي، وبعد أن كان يعامل على أنه مضاد الاستروجين فحسب، فإن تعرّف تأثيراته الاستروجينية الأخرى قد دفعت إلى دراسة بعض المركبات SERMS التي لها تأثيرات مضادة للاستروجين في بعض الأنسجة وتأثيرات استروجينية في بعضها الآخر.

وقد أدى تقييم هذه المركبات، ولاسيما الرالوكسيفين، إلى التنبؤ بامكانيّتها في أن تقي العديد من النساء من خطر الإصابة بترقق العظام وأمراض القلب وسرطان الثدي وسرطان بطانة الرحم. واليوم تبدو ثمة إشارات قوية إلى قرب تحقق هذه التنبؤات.

دراسة

التعالق النَّصّي

كثرت الاصطلاحات النقدية في قضايا «النص» حتى لقد كادت تفوق عدد المشتغلين بالنقد أنفسهم؛ فمن التناص، إلى النص الجامع، إلى النص الموازي، إلى النص الشارح، إلى التعالي النصي، إلى التحول النصي، إلى [النص النصي، إلى نواصي النص]* .. إلى ما لسنا ندري من هذه القائمة التي لها أول، وليس لها- فيما يبدو- آخر، إلى أن نصل إلى اصطلاح جديد جداً اسمه «التعالق النصي» الذي نسمع به للمرة الأولى عبر كتاب الشاعر والباحث العربي البحريني د. علوي الهاشمي، الموسوم بـ «ظاهرة التعالق النصي»(٢).

وقد بدأ الباحث مشكوراً بتوضيح ما عناه بمصطلح «التعالق النصي» وسبب اختياره له، وعلاقته بأهم الاصطلاحات الحديثة مثل: «التناص والنص الغائب وتداخل النصوص وتقاطعها.. الخ» ليخبرنا بأن ما عناه بهذا الاصطلاح هو وجود علاقة ما، تربط بين نص شعري وسواه من النصوص الشعرية، سواء كانت هذه العلاقة جزئية أم كلية، إيجابية أم سلبية. وهو المعنى نفسه الذي يسبغه د. محمد مفتاح على مصطلح «التناص» في معرض تحليله لما سماه «استراتيجية التناص» حين قال: «إن التناص هو تعالق نصوص- أي الدخول في علاقة- مع نص حدث بكيفيات

* هذان الاصطلاحان اللذان بين معقوفين [ ] هما لمحرر «نافذة على الوطن العربي» وليس لأي ناقد آخر، ومع ذلك فهو لايعرف ماذا يعنيان!.

مختلفة». والذي سبق أن قدمناه لقراء مجلة «المعرفة» في نافذة من النوافذ السابقة التي فتحناها في هذه المجلة على الوطن العربي.

إلا أن د. الهاشمي آثر - كما يخبرنا - استخدام اصطلاح «التعالق» على اصطلاح «التناص»، نظراً لما فيه، حسب قوله، من تعبير واضح عن دلالة ما يعبر عنه حول (الدخول في علاقة)، في حين قد يلتبس معنى مصطلح «التناص»، بسبب اشتقاقه الصرفي من كلمة «النص»، مع معاني عدد من المصطلحات المشتقة من المصدر نفسه مثل: التنصيص والنصانية والمناصّة والنصوصية والنصية والتناص. وإن كان الباحث يعترف أن مصطلح «التناص» أكثر وقعاً وتداولاً واقتصاداً من غيره من المصطلحات الرديفة له، بما في ذلك مصطلحه المبتكر «التعالق النصي».

لكن كل هذا لا يمنع، حسب وجهة نظر الباحث، من اقتراح مصطلح جديد أو تبني أحد المصطلحات دون سواها، حتى ولو كان غير رائج، والاشتغال عليه أكثر من غيره.

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

ويشير الباحث إلى أن الذي حببه بهذا الاصطلاح «هو كونه مصطلحاً مفتوحاً لجميع أنواع العلاقات ومستوياتها مما يمكن أن ينعقد بأصرته بين نص وآخر». دون الالتزام بمستوى محدد مثل (النص الغائب) كما اشتغل عليه الناقد المغربي محمد بنيس، أو العلاقة (عبر النوعية) كما يسميها الروائي والناقد المصري ادوار الخراط. أو غير ذلك من المصطلحات التي - كما يصفها الباحث - تنحو بالعلاقة التناصية نحواً معيناً. وضمن مستوى واحد من المستويات دون سواه.

«في حين ينفتح مصطلح (التعالق النصي) بدلالته الواسعة إلى مختلف أنواع العلاقة ومستوياتها، تاركة لبقية المصطلحات المذكورة وغير المذكورة، فرصة التعبير عن المنحنيات الجزئية الخاصة في ذلك الإطار العام من التعالق».

ويخبرنا الباحث أنه لم يجد في مصطلحه هذا، أي التعالق النصي، مايمنع من استخدامه كلافتة عريضة وإطار واسع، يندرج ضمنها سائر المصطلحات التراثية المرتبطة بهذا المدلول، مثل: «المعارضات والنقائض والإخوانيات وسواها».

ويرى أنه، بمثل هذه الحيوية والمرونة اللتين يختص بهما مصطلح «التعالق النصي»، يمكن ترشيحه لأن يكون جسراً يربط بين طرفي الظاهرة المتباعدين في أدبنا التراثي القديم والمعاصر، مما يساعد الدرس النقدي الحديث على النظر إلى القضية باعتبارها ظاهرة واحدة متكاملة، لها قوانينها الممتدة ومصطلحاتها الجزئية أو الداخلية الموزعة على طرفي الحداثة والتراث، ولها صورتها الكلية وتفاصيلها الخاصة التى يؤطرها مصطلح «التعالق النصي».

ثم ينطلق الباحث في دراسته النظرية للظاهرة النقدية «المشتبكة العناصر المتداخلة الأطراف والأواصر، منذ قديم الزمان عند أجدادنا النقاد العرب» ينطلق إلى نقطة إجرائية، مبدئية، مكونة من مستويين؛ الأول: إعادة النظر في جميع المصطلحات القديمة المتشظية في الثقافة النقدية الموروثة. والثاني: التركيز على البعد الفني بعد فرزه وتمييزه من البعد الأخلاقي المتصل بما كان يسميه الأقدمون «سرقات أدبية».

ويرى الباحث أن التشظي الاصطلاحي الذي انتهى إليه الدرس النقدي لهذه الظاهرة في الثقافة العربية القديمة يعكس مدى اضطراب الرؤية النقدية بسبب اتساعها وعدم تحددها الموازين، بطبيعة الحال، لاتّساع الظاهرة نفسها وعدم تحددها في تربة الواقع الشعري، «فقد استخدمت عشرات المصطلحات للدلالة على هذه الظاهرة المعقدة والمنظور لها من زوايا لاحصر لها في تقاطعها وتشابكها».

وكان سبب هذا التشظي والاضطرابات- من وجهة نظر الباحث- هو

التقاطع الحاصل بين الفني والأخلاقي، وعدم التمييز الحاسم بينهما في الثقافة العربية القديمة. وهذا ما جعل حكماً أخلاقياً مثل السرقة الأدبية يتخايل كالشبح المتحفز خلف ستار أي من تجليات هذه الظاهرة أو تشظياتها الاصطلاحية. وهذا ما جعل الباحث يشير إلى مقولة الدكتور ابراهيم عوضين من حيث أن «المعارضة لون من ألوان السرقة» ويقارنها بمقولة الدكتور عبد الرحمن اسماعيل الذي رأى أن «الشاعر المعارض لاينكر معارضة لقصيدة سابقة، بل يضمّن منها شيئاً في قصيدته أحياناً، بخلاف السارق الذي يحاول جاهداً إخفاء سرقته. ولو اعتبرنا المعارضة نوعاً من أنواع السرقة لاعتبرنا النقائض والتشطير والتضمين وما شاكلها كذلك. وهذا يدعونا إلى إلغاء بعض المصطلحات الأدبية أو تغيير مفهومها الذي تبلور في نقدنا العربي واستتبّ منذ القدم».

ويعلق الباحث على مقولة د. اسماعيل بقوله: «لئن كان هذا الحكم النقدي ينطبق على مسألة التمييز بين السرقة والمعارضات الشعرية بمبادئها الموروثة، فإنه لاينطبق على غير المعارضات من المظاهر الفنية المتعالقة التي غالباً ما تُخفى على النظر النقدي، ناهيك عن نظر المتلقي العادي، ولاينبغي النظر إليها باعتبارها (سرقات أدبية)».

ويذكر الباحث أن الإمام عبد القاهر الجرجاني كان قد اتخذ الخطوة الأولى في هذا المضمار، حين استطاع «ببصيرته النفاذة وحسّه النقدي السليم» في هذا المضمار، أن يقلّص من حدود السرقة وينصف الشعراء باستعماله مصطلح «الاحتذاء» بدل الأخذ والسرقة، وبذلك استطاع التفريق بين الفنان وغيره من حيث أن الفنان «ناقل جيد» بينما السارق «ناقل رديء». فالذي له «قدرة الخلق» في «الأخذ» خالياً من هذه القدرة الفنية أو الاضافة الإبداعية فهو «ابتذال» قبل أن يكون «سرقة»، وهو مسخ وتشويه قبل أن يكون «أخذاً».

ويؤكد الباحث أنه حين يتم الحديث عن توفر المقدرة الخلاقة، أو

القدرة الابداعية التي يضيفها «التعالق النصي»، فإن ذلك لايعني، بالضرورة، أن يتجاوز النص اللاحق النص السابق الذي تعالق معه في المستوى الإبداعي أو الفني، وإلا كان من المحتم أن يتفوق من عارضوا المتنبي وأبا فراس وامرأ القيس والبوصيري وسواهم «من عمالقة الشعر العربي» أن يتفوقوا عليهم ويبزّوهم في معارضاتهم لقصائدهم أو أبياتهم الفريدة.

ومن شأن ذلك أن يجعل المعارضة، مثلاً ميداناً للتنافس والمباراة في كل الأحوال، في حين أنها يمكن أن تكون في أكثر الأحوال تعبيراً عن عدد من الأسباب والعوامل، منها الاعجاب والاشباع النفسي والفني والتعاطف والتفاعل والمجاراة والمغايرة والمؤازرة والتواصل في التجربة. وهذا ما يجعل المقارنة، لاالمفاضلة، والتعالق النصي لاالتبارز الفني، هو المعيار النقدي الذي يمكن النظر من خلاله إلى علاقة النصوص المتعالقة.

بعد هذا العرض النظري للمصطلح الذي ارتآه الباحث وسماه «التعالق النصي» يصل إلى التطبيق فيخبرنا أن ملحق «ثقافة اليوم» الذي تنشره جريدة «الرياض» كل خميس نشر قصيدة بعنوان «صدى مرجان» للشاعر السعودي محمد زويد النفيعي، وكان واضحاً «من عنوان القصيدة» أن الشاعر ينطلق في كتابتها من عملية «محاكاة» تمثل فيها قصيدة الشاعر السعودي أيضاً سعد الحميدين المعروفة (مرجان) التي نشرها الحميدين في صدر مجموعته الشعرية الخامسة الموسومة (أيورق الندم) والصادرة عام ١٩٩٤. بينما «صدى مرجان» ظهرت بعد ثلاث سنوات من صدور قصيدة «مرجان». فيتساءل الباحث: «ماذا عسانا أن نسمي هذا الشكل من أشكال التقاطع بين القصيدتين؟ هل نسميه (معارضة) أم نسميه (تناصاً)؟

وفي معرض إجابته يرى أن ظاهرة التعالق النصي، سواء كان معارضة أو تناصاً أو تضميناً أو غير ذلك من التسميات الاصطلاحية، تمثل واحدة من أهم الظواهر الفنية في الشعر العربي السعودي الحديث. ويرى أن أبرز البؤر

التي تتعالق فيها قصيدتا (مرجان) و(صدى مرجان) تعالقاً نصياً خصباً قابلاً للتوالد والانذياح، بؤرة اسم الشخصية (مرجان) التي تدور على محورها المركزي بنية كل من القصيدتين المتعالقتين.

يمثل اسم (مرجان) في القصيدتين قضية مركزية لاتّصافها بصفة الإشكال على مستوى ثنائية الواقع والخيال. إذ يصعب في القصيدتين استخلاص أي من وجهي هذه الثنائية الإشكالية واعتباره صورة للواقع أو صورة للمخيلة.

وبعد أن يقدم الباحث مقاطع متشابهة، موضوعاً، من القصيدتين، يشير إلى أن (مرجان) كان حالة غنائية موقعة في شكل أهزوجة حلّت محل اسمه الذي لم يكن يعنيه أو يعني الناس وجوده في شيء، لولا الرؤية الشعرية الواعية المتصلة بين القصيدتين «التي أطلقت عليه اسم (مرجان) أولاً ثم نشرت (صداه) في الزمان والمكان ثانياً».

وهذا يعني، وفقاً للباحث، أن السمات الإيقاعية التي شاعت في القصيدتين تعود أصلاً إلى (مرجان)، وذلك على مستويين: مستوى ماقبل التسمية، حيث الأهزوجة تنتقل بين القصيدتين مشيعة في بنيتها الايقاعية المستقرة والمؤطرة حالة من الحيوية والحركة خلال مظهر «التناص الايقاعي».. ومستوى ما بعد التسمية حيث تقوم خصائص الاسم (مرجان) الصوتية والبنائية بإشاعة نوع معين من الايقاع الداخلي المتصل بجرس الحروف والأصوات، وبخاصة صوت «النون والمقطع الممدود قبله»، لتطلق بذلك أبرز قافية بين القوافي المتنوعة في قصيدتي (مرجان) و(صدى مرجان) هي قافية النون بمختلف مستوياتها الصوتية المتناثرة في جسد القصيدتين على الجانبين الداخلي والخارجي.

وبعد أن يأتي على وقفاته في الزوايا المتعددة للقصيدتين، ينتهي إلى أن ذاكرة الشاعر المفتوحة لاتقتصر على بعدها الذاتي الخاص، بل تنفتح على

الأبعاد العامة للذاكرة الجماعية لكي تختزل تجربتها الإنسانية. وهذا ما جعل مرجان كشخصية يتحول إلى إنسانية تنتمي إلى سلسلة النماذج البدنية الشرقية PROTOTYPES التي تشد بسحرها الغامض وتكوينها الاشكالي الذاكرة الشعرية إلى التعالق النصي معها. وقد مهد كل ذلك مسرح النصين المتعالقين إلى حركة الشخصية على نحو واسع متعدد الجوانب، كان أبرزها الجانب الرمزي.

* * *

فنون

قاعدة حرجة للفن المستقبل

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

عز الدين نجيب واحد من الفنانين الذين أثروا الحياة التشكيلية العربية، والمصرية منها بخاصة، بجهد ودأب على الصعيدين الابداعي والنقدي، فهو أديب، وناقد تشكيلي، إضافة أنه رسام. وقد أفردت له مساحة حوارية[٣] بعد أن شهد جمهور القاهرة معرضه الذي بعنوان «سيوة: نداء الواحة»، ولم يشأ محاوره (أشرف إبراهيم) أن يطرح أسئلة، بل اكتفى باشارات الاستفهام وليس غير، وذلك لكي يدع الفنان عز الدين نجيب يبوح ويغوص في مكونات «ضميره الابداعي والفكري» بغية استخلاص شهادة حية من «فنان وناقد كبير مثله عن فنه وعن عصره ومعاصريه».

وعن إشارة الاستفهام الأولى يجيب الفنان:

أقيم أغلب معارضي في شهر نيسان / أبريل / ربما لأنه شهر ميلادي (ابريل ١٩٤٠) هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى فهذا هو المعرض الأخير لي

خلال القرن العشرين، وهو (شكل ما) رؤية أفقية ممتدة لتجارب عديدة سابقة لي، وكأنه «كشف حساب» لهذه التجارب، ولو كان من منظور له موضوع محدد وهو «واحة سيوة».

..؟

قصدت جمع هذه التجارب في معرض حتى يتبين لي وللمشاهدين إيقاع التواصل والتطور من خلال موضوع محدد، وإن اختلفت الأزمنة في تعاقبه ومراحله السنية المختلفة، داخل الفنان وداخل الوطن والمكان وهو البقعة النائية المعزولة عن أرض الوطن، لكنها موصولة به بآلاف الخيوط، ورغم ذلك فالمكان الجغرافي ليس هو القضية في حد ذاته، وإنما المكان لديّ أشمل من حدود الجغرافيا؛ إنه جغرافيا أخرى تمتد بمساحة الوطن وتحمل جيناته، وإن تباينت وتعددت المعالم، أضف إلى ذلك أن المكان في النهاية مسرح لإسقاط المشاعر والرؤى الذاتية للفنان، بما يسمح باطلاق خياله ومفردات رموزه لما يجاوز الحدود والأزمنة إلى اللامتناهي.

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

...؟

لا أحبذ أن أكون أنا صاحب الكلمة في تقييم عملي، إنها للناقد والمتابع، حتى يتبيّن مدى التطور والنمو عبر مراحلي الفنية، لكن بشكل عام يمكن القول: إن أعمال الثمانينات - وهي بداية تعرفي على المكان - تتسم بالقرب الشديد من عناصر الطبيعة، مع تحليلها وإعادة صياغتها بحسٍّ ذاتي لتحمل صفات جديدة، فكان معرضي عام ١٩٨٧ الذي شهد مزيداً من التحليلية والتركيبية لعناصر المكان، خاصة الأطلال التي حملت سمات إنسانية وميتافيزيقية في الوقت ذاته. لكن ما كان يميّز لوحات هذا المعرض هو حالة المسرحة، حيث تتبدّى المشاهد وكأننا أمام مسرح من نوع سوريالي، تقف فوقه شخوص أسطورية متشكّلة عضوياً من أبنية منهارة، تقوم بأدوار درامية في مسرحية تنتمي إلى اللامعقول، وتواجه المشاهد بنوع من المحاكمة لما آل إليه أمر هذا الزمان.

؟.

ربما أكد هذا المعنى: أن المعرض حمل عنوان «حوار الأطلال».
ومابين معرض ١٩٨٧ والمعرض الحالي كانت هناك تنويعات متباينة على هذا اللحن الأساسي؛ أما في معرضي الأخير فربما كان التعبير الفني والدرامي فيه أقرب إلى المونولوج منه إلى الديالوج أو الحوارية، بمعنى أنه تعبير أكثر جوانية مما شهدته المرحلة السابقة. وهذا قد يبدو واضحاً من التركيز على أجزاء محددة من المرئيات: الطبيعة والأطلال، بعيداً عن الزوايا البانورامية، وكلما زاد الاقتراب من تفصيلة من التفاصيل اشتدت درجة عضويتها، حتى تبدو وكأنها تنبض بأحاسيس انسانية مثل عضلات الجسم أو نبضات القلب.
وربما يؤكد ذلك المعنى أيضاً قوة الألوان وخشونة الملامس، حيث تصل في بعض الأحيان إلى حدّ الصرخات التعبيرية، وفي بعض اللوحات إلى درجة الحلم أو الفلسفة.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

؟.

كلما ازداد الفنان اقترابا من أعماق ذاته أصبح أكثر استقلالاً عن الطبيعة، وبالتالي أكثر جرأة على تحويرها وتحريكها بما يخدم الحس التعبيري داخل نفسه، وتطبيقاً على ما سبق أن قلته، فإن هذه اللوحات كانت شديدة الالتصاق بالمنطقة الذاتية في هذه التجربة، وهذا ما أتاح لي الفرصة للتجرؤ على هدم وإعادة بناء الطبيعة، بالحس الداخلي أكثر منه الحس البصري، فإذا أوحى ذلك بايماءات تكعيبية كما ذكرت، وقد تكون في بعضها الآخر سوريالية أو تجريدية، فإن ذلك لايعني لي أمراً مهماً، لأنني لاأتبع نظرية أو مدرسة بعينها، خاصة تصنيفات المدارس الأوربية، سواء الحداثية منها أو مابعد الحداثية، بل أتبع قبل كل شيء دافع الصدق والانتماء إلى روابط حميمة بالمكان والزمان، وأملك المقدرة على تجاوزها معاً في الوقت ذاته، لأحقق مكاني وزماني في هذا العالم، وقد كتبت في مقدمة المعرض هذه

الجملة: «.. لم أكن أطلّ على أطلال سيوة، بقدر ما أطل على الإنسان في نهاية الألفية الثانية بعد الميلاد، بل على أطلال نفسي، علني أستنهض بعض ما اجتاحته الرياح والرعود، في داخلي أو في العالم، أو أستعيد القدرة على الفرح من وسط الأطلال، أهي شهادة استشهاد إذن، أم شهادة ميلاد أخرى؟».

...؟

العمارة الفطرية تمثل بالنسبة لي مقابلاً رمزياً للإنسان، فهي وإن كانت جدراناً طينية، إلا أنها تشكلات عضوية تحمل بصمات الإنسان وأنفاسه، بل وفي بعض الأحيان هيئته الجسمانية، من خلال استداراتها وانكساراتها وحركاتها في الفضاء، وأشعر بألفة شديدة مع مثل هذه الأبنية التي تمثل لي درجة من الصمود والتماسك والاستمرارية أكثر ربما مما يمثله أصحابها الراحلون، فهؤلاء فنوا واندثر ذكرهم، لكن تلك الشواهد تملك الحضور القوي على فعل الإنسان في الزمان والمكان، ربما كانت مدينة (شالي) القديمة بشكل خاص تمتلك الخصائص اللافتة لكل هذه المعاني، بل تملك أيضاً الشواهد على حماقة الإنسان في بعض تاريخه إزاء الواحة، إذ دفعته نوازعه الأنية الضيقة إلى الصراع الذي وصل حدّ الحرب الأهلية في وقت من الأوقات، وأدى في النهاية إلى هجرانه لهذه البيوت، وهو ما قلته في مقدمة المعرض: «مؤكداً نبل الإنسان وخيانته في الوقت ذاته، نبله في مواجهة الطبيعة وفي ترويضها والتكيف معها، وفي الانتصار على الغزاة والطغاة بإبداع معماري لاتقهره السنوات، وخيانته لنفسه، بهدم ما بناه بيده أو تركه نهباً للضياع والاندثار.. ولاأعني إنسان الواحة بالذات، بقدر ما أعني الإنسان عموماً في عصرنا التعيس».

...؟

عنوان هذا المعرض أخذته من عنوان رواية كتبت مسودتها عن تجربة

لمجموعة من الفنانين في (سيوة)، وقد أعددتها في معالجة سينمائية، وتعاقدت مع إحدى الشركات على تقديمها للسينما، إلا أن المشروع لم يتم، وسوف أستكملها كرواية أدبية قبل خروجها في عمل درامي سينمائي.

الوشائج كثيرة بين تعبيري التشكيلي والأدبي في مجموعاتي القصصية السابقة، حيث يمكن أن يجد المتلقي، في أسلوبي القصصي، رسماً بالكلمات، واحتفاءً بالمكان وجمالياته، وغوصاً وراء المعاني المبهمة التي تلامس حدود الميتافيزيقا، وهي سمات مشتركة مع عالمي التصويري.

...؟

ليس خافياً على أحد أن الفن في العالم يمرّ بأزمة خانقة وهو في ذلك البرزخ قبيل الدخول للقرن الحادي والعشرين. لقد مرّ القرن الماضي بأكمله تقريباً في تجارب معملية على كافة الأصعدة الجمالية والتقنية بمختلف المراحل والمدارس والاتجاهات، بحثاً عن صياغة ما هدمته اتجاهات الحداثة من مدارس الفن في القرن التاسع عشر، لكنها لم تستطع، جميعاً، أن تصمد كما صمدت مدرسة واحدة من ذلك القرن، فجميعها مثل النباتات الصحراوية الجافة، قصيرة العمر والفروع، محدودة الأثر والجمهور، وذلك أدى في النهاية إلى عزلة الفن عامة عن الجمهور، مع انكماش وظيفته الاجتماعية قياساً على ما كان عليه في القرون السابقة من ارتباط بالمجتمع في كل تفاصيل حياته حتى اليومية منها. وقد كان حرياً ببلد مثل مصر، يحمل وراء ظهره تاريخاً عبقرياً من الفنون ما زالت عظمته تحيّر العالم وتدهشه، أن يكون بحثه الفني نابعاً من هذه الخصوصية، منطلقاً إلى الحاضر والعالم خارج حدوده، ومن ثم كان يمكن أن يكون لفنانيه إضافتهم الحضارية ومخرجهم من أزمة الفن العالمي، لكن ما حدث هو العكس تماماً، لقد كان مسار الفن المصري الحديث، في مجمله، انسياقاً خلف تيارات الفن الغربي المأزوم، ولانستطيع رغم ذلك أن ننكر أن في الفن الغربي الحديث إبداعات

رائعة، بعيداً عن منظومة التصنّع والافتعال وإثارة الدهشة للدهشة إلى ملامسته المناطق الذاتية العميقة للإنسان وإعادة صياغة ذوقه بشكل بنّاء، مثل بعض فناني التعبيرية والسوريالية وربما التجريدية كذلك؛ . لكن فنانينا لم يركزوا على التأثر بهؤلاء الفنانين قدر تأثرهم بالاتجاهات العبثية الطائشة، لمجرد إثبات مدى حداثتهم ومعاصرتهم، والنتيجة يمكننا أن نلمسها بوضوح في انعزال حركة الفن المصري عن الشعب بما فيهم المثقفون، على عكس ماكان عليه الحال في فترة جيل الرواد في الثلث الأول من القرن العشرين، وهو ما تعرضت له بكتابي «فجر التصوير المصري الحديث» عام ١٩٨٥، من ارتباطهم بمشروع قومي للنهضة، وبجذورهم الحضارية والبيئية، مما قد يقربهم من نبض الشعب، كما تعرضت لهذه القضية في كتابي الأخير «التوجه الاجتماعي للفنان المصري المعاصر» ١٩٩٧ . وأعتقد أن كثيراً من خطوطه العريضة صالحة للتطبيق على أغلب حركات الفن في البلاد العربية، من حيث تبعيتها للاتجاهات الغربية وانعزالها عن خصائصها الاقليمية وجذورها الحضارية، حتى لو تكلفت استخدام حروف الكتابة أو الزخارف العربية، إذ إنها في النهاية محكومة بإطار عام يتبع الأساليب الغربية، ثم تبددت ذروة هذا الانفصال عن التراث والواقع في محاكاتهم لاتجاهات ما بعد الحداثة، خاصة في استخدام المخلفات التافهة في أعمال فراغية لاتخضع لمسمى بعينه، وإن كان اصطلح على تسميتها مجازاً بـ «الأعمال المركبة» وبلغت ذروتها في بيناليهات القاهرة والاسكندرية والشارقة وغيرها، إلا أن مكمن الخطورة بالنسبة للمستقبل هو أن الأجيال الجديدة من الفنانين الشبان تقتفي أثر هذه الاتجاهات، ليس عن قناعة بها بقدر ما هو محاولة لاكتساب رضاء المسؤولين عن المؤسسات الفنية المانحة للجوائز الكبرى، خاصة صالون الشباب بالقاهرة، مما أسّس قاعدة حرجة لفن المستقبل المحكوم عليه بمزيد من العزلة عن مجتمعه.

* * *

إصدارات جديدة

حَنين الروح

أصدرت الشاعرة العربية التونسية صفية بن سليمان حملاوي مجموعتها الشعرية الأولى[٤] ضمن كتاب متوسط الحجم، بطبعة أنيقة، ضم بين دفتيه ستة وعشرين نصاً، بعنوان عام هو «حنين الروح»؛ وضم إليه مع النصوص الاهداء وكلمة الشاعرة، إضافة إلى تصدير وضعه الأستاذ الجامعي (المنجي الشملي) وقراءة مدخلية لنصوص المجموعة كتبها الأستاذ (محمد جبلون) بعنوان: «حنيناً إلى الروح قبل القراءة».

ومن قراءة العنوان، كما استنتج بلقاسم برهومي[٥] يتبين أن الشاعرة صفية وفقت في اختيار هذا العنوان «حنين الروح» لمجموعتها هذه، لأنه يوحي بحس وجداني تصطبغ به مناخات نصوص الشاعرة أو عالمها الشعري. فهي تنسج، بصدق، خيوط رؤيتها الشعرية، التي تنبثق من عمق الروح وإليها تعود. ولذلك يكاد كل مقطع في نصوصها - حسب البرهومي- يهمس أو يبوح بما تختزنه مشاعرها الذاتية لتقترب الشاعرة في تناولها من البعد الرومانسي: (استحضار صور الماضي.. الحنين للطفولة الهاربة.. التحسّر على زمن لايقيم للعواطف ونبل المشاعر وزناً..):

غداً يا زهرة الكميليا تكبرين

فلا تلعبين..

والطفولة يا موكب النور ياصغيرتي

في أعذب العهود . . وزاد العمر المفرد

من . . من يدري يا عقدي الفريد

ما يخفيه لنا الغد البعيد . . ؟؟/ ص24

وهي فيما تكتب تتسربل رؤيتها، وبالتالي نصوصها، بصدق انفعالات الوجدان:

وأنا . . وأنا كطير منتوف الجناح

أحلق في هيكل الأدب

وأشعاري فلذات كبدي

ترف على خدود الورق

وأنت . . أنت يا شعري قدري

ولو كانت الأقدار طوع يدي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لصرّفتهما كما أشتهي . . . / ص17

وقد لمح برهومي في عطاء هذه الشاعرة ما يتفق مع مقولة الشاعر الراحل عبد الوهاب البياتي، الذي قال: «هكذا هي نفس الشاعر تتجمّع فيها الغيوم والأحزان والدخان والكلمات والذكريات والعطور والألوان والموسيقا وتتحد في بوتقة واحدة وتتحوّل إلى قصائد». بل لقد وجد برهومي أثر قول البياتي في نصوص صفية بن سليمان، التي تقول:

أنت يا شعر صدى أيامي وآلامي

وأنغام بأنغامي

أنت لي نعمة ورحمة من خالقي

وعزائي في شدتي وتراتيل أناملي

وأنت صلاة.. وتسابيح.. بخافقي

فالانعكاسات الذاتية لاحساسها العميق بالأشياء وما يتجمّع من معايشة التجارب الحياتية يمنح قصيدتها نسقها الخاص، حسب تعبير الناقد برهومي، ونسيجها الفني مع تكثيف على صعيد الرؤية:

كم بضدها تتكامل الأشياء

وكم تشاء أقدارنا ولانشاء

وكم نشاء.. ونشاء من أشياءْ

وما نشاء إلا أن يشاءْ

مقدّر الأقدار والأشياءْ.. / ص36

كأنما تتفاعل مشكلات هذه الحياة في أعماق الشاعرة، تحيا آلامها وأحزانها، حسب الناقد، ثم تترجم ما تلقى فيها من الألم:

http://Archivebeta.Sakhrit.com

المرأة نبع الحياة

والنصف الثاني يتكوّن

في أحشائها.. / وينمو في أحضانها

أما إذا/ استغنى / وطغى.. / وتجبّر

فأولّ من يغدر بها / ص44

وإذا كانت العاطفة من أهم الخصائص التي تتميّز بها المرأة، حسب الناقد، فإن انعكاس العاطفة في نصوص مجموعة «حنين الروح» لايخفي أثره. يقول الأستاذ محمد جبلون في معرض تعليقه على هذه المجموعة: «ما يميّز هذه القصائد ليس المواضيع أو الأغراض التي تندرج ضمنها، فصفية بن سليمان حملاوي تطرّقت إلى موضوعات عديدة وإن كان (الحب)

محورها، بل همها الأكبر، حب الوطن وحب الآباء، والأبناء، وحب الآخر، المذكر، الحاضر أو الغائب، الثابت أو المتحول الدائم أو المتلاشي.. / ص 10

ولذلك ما نفتأ نستشف، كما يقول الناقد، أثر معاناة التجارب الذاتية الخالصة يتردد في نبضاتها الوجدانية، ويكاد يطغى على باقي عناصر الرؤية مما قد يضيف طاقات تساهم في النضج والارتقاء الإبداعي:

تحنّ النفس إلى لقياك
يا بدر العمر وشمسه
كما يحنّ الربيعُ إلى زهرهْ
ويحنّ الفؤادُ إليك
حنين الورد إلى عطرِه
يسألُ النبضُ عنك
سؤال الرضيع عن أمّه
ويبحث المقل عنك
بحث النبع عن مائه. / ص18

وإذ تنفتح الشاعرة على صور أخرى غير ما تمليه العاطفة القلبية، حسب تعبيرات الناقد الذي يراها تقول في أحدث تقنيات هذا العصر:

بمجرد/ لمسات
على أزرار/ شبكة الشبكات
تجد العالم بسحره/ بين يديك
وكأن خاتم سليمان/ لديك

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يقول لك لبيك/ في طرفة عين

روائع الكون/ تتسابق إليك

«الانترنات»

من تحف الزمان

وأروع الاختراعات . . / ص56

حيث حركة تشكيل الصورة الشعرية في نصوصها تنتمي إلى عالمها الداخلي انتماء تاماً، حسبما يراه الناقد، على الرغم من أنها مستمدة في بعض الأحيان وفي العديد من المقاطع من العالم الخارجي.

والتجربة التي أرادت الشاعرة توصيلها لقارئها- من خلال تفكيك رؤيتها- وإعادة صياغتها، واضحة الملامح لدى الناقد، إن في أعماق صفية نفسها أو في انتقاء الألفاظ الموحية والمعبّرة عنها هي التجربة التي تنسجم وتتناغم مع أصداء الروح وما يعتمل فيها:

كأنما روحي

ألِفَتْ روحك

قبل المولدْ

وقبل الموعد

من الأزل/ إلى الأبد

وأنت سكني وعنواني

هويتي وأغلى أوطاني

ولو لم توجد

لاخترعتك في قصائدي. / ص29

وفي قصيدة وردت في المجموعة بعنوان «لو تدري كم يتلفني» تقول الشاعرة:

هواك عطر نادر / يخترق كل الأزمان

يسافرُ في دمي..

ويزلزل كل كياني

هواك أرجوحة تقذفني

ما بين الجنة والنار

هواك نور..

يشعّ بين أجفاني

مهما حاولت

الإصرار على الكتمان../ ص52

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

ومن قصيدة بعنوان «الوفاء بالوعد» حيث تبدو الشاعرة أنها تحترق بنار المعاناة، كما رآها الناقد، كأنما تعيش القصيدة بالكامل. تقول الشاعرة:

بكيتُ حتّى جفّت أدمعي..

ولم يبقَ لي سوى..

سواد العين،

أبكي به../ ص42

ويستخلص الناقد، في ختام هذه المقاربة، أن البعد الرومانسي على صعيد الرؤية والتناول يوجد بكثافة في تضاريس شعر صفية بن سليمان حملاوي؛ فكأنما الروحانيات تشكل، وحدها، مساحة هامة في مخزونها ونصوصها.

والرومانسية الماثلة تتسم بالفردية، مما يدفع للقول:

إن إغراق الشاعرة في البوح بمشاعرها الذاتية، قد يحدّ- في تجربتها الإبداعية عامة- من الانغماس المنشود في تفاعلات الأشياء القريبة البعيدة. . وهي تفاعلات الحياة أساساً من حولنا في شتى المواقف، وليست في صور أو ما قد تومىء به «عاطفة قلبية» قد يتحدد دورها في التجربة التي تخبو نارها بمجرد نهاية معايشتها، ذلك أن علاقة التجربة الشعرية متينة وعميقة بنظام الحياة المتكامل.

* * *

إحالات

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

١- مجلة العلوم. المجلد 15 العددان 1999/7/6 الكويت

٢- كتاب الرياض، العددان 52 -53 مؤسسة اليمامة، العربية السعودية/ 1998.

٣- مجلة أدب ونقد ع 171 ت٢/ نوفمبر/ *1999*/ القاهرة.

٤- الشركة التونسية للنشر وتنمية فنون الرسم/ ط١/ أيار- مايو 1999/ تونس.

٥- الملحق الثقافي لجريدة الحرية التونسية/ العدد 544/ الخميس 28 ت١/ أكتوبر 1999/ تونس.

آفـــاق المعرفـــة

كتـــاب الشـــهر

نهاية الحرب الباردة

محمد سليمان حسن

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

صدر حديثاً، عن وزارة الثقافة السورية، كتاب «نهاية الحرب الباردة». لمؤلفه الكاتب الأمريكي «مايكل هوغان». قام بترجمته إلى اللغة العربية الاستاذ «محمد أسامة القوتلي»، عن

(*) محمد سليمان حسن: باحث من سورية، يهتم بالدراسات الفلسفية والاجتماعية. آخر أعماله: «تيارات الفلسفة الشرقية».

نص باللغـة الانكليـزية تحت عنوان «The End of The Cold-war» . يقع الكتاب في/ ٤٧٨/ صفحة من القطع الكبير . وهو من إصدارات عام/ ١٩٩٩/ . نحاول في هذا العرض، تقديم لمحة عن مضمون الكتاب، بما يتسق والمعطيات المعرفية للكاتب.

تقدم هذه المقالات إحدى أولى المحاولات الجادة، لدراسة نهاية الحرب الباردة . إذ يعرض الكتاب أفكار المؤرخين، والمختصين في العلوم السياسية، ومحللي السياسات البارزين . وآراء معلقين، من الولايات المتحدة، وبريطانيا، وألمانيا، وفرنسا والنرويج والاتحاد السوفيتي . يبحثون في قضايا مثل: أصول الحرب ومصادرها العقائدية والجغرسياسية، وكلفة ذلك الصراع المتمادي، وتأثيره في الحياة الأمريكية ومؤسساتها، والرابحون فيها والخاسرون.

تحت عنوان إنها نهاية (ولكن) لأية حرب باردة؟ يقدم ولتر لافيبر لهذا السؤال بقوله: قبل أن نقرر بأن الحرب الباردة وضعت أوزارها، يجدر بنا أن نقرر أية حرب باردة هي تحت النظر.

ويرى المؤلف، أنه يمكن تحديد أربعة حروب باردة . ولجميعها جذور تاريخية عميقة . إستمرت ناشطة، ودللت على كونها قوة فعالة في صوغ المجتمع الأمريكي والقضايا الدولية في المستقبل

تشتمل الحرب الباردة الأولى على الصراع المتواصل، والذي يعود تاريخه على الأقل الى الحرب العالمية الأولى ومؤتمر السلام في باريس، بين الولايات المتحدة والبلدان الأوروبية، لتحديد نوعية أوروبة التي ينبغي أن تظهر للوجود، ولتقرير مدى الدور الكبير الذي سيكون للأميريكيين في ما سيتقرر.

وهذا يقود الى الجزء الثاني من الحرب الباردة التاريخية: إنه

الكفاح المتواصل بين المراكز التجارية العالمية والبلدان القصيّة التي توفر الأسواق والمواد الخام.

أما الجزء الثالث المتمم للحرب الباردة بعد عام(١٩٤٥)، حرب معركتها داخل الولايات المتحدة. إنها لحقيقة بدهية الآن وهي التنبيه إلى أن المسؤولين الأميريكيين لم يكن باستطاعتهم المضي في سياساتهم العسكرية والاقتصادية الكونية بدون حل المشكلة المركزية، وهي: مشكلة تحويل مجتمع فرداني، ومنفتح وتجاري وذي توجه محلي، إلى قوة رضائية(cosensual) سرية، عسكرية، دولية.

وفضلاً عن ذلك، يرجع ذلك البُعد للحرب الباردة الى ما قبل العام(١٩٤٥). فمنذ مستهل القرن الحالي، كتب (وودرو ويلسون) عن الملك الجمهوري الجديد الذي كان (ويليام ماكينلي وثيودور روزفلت) مثالين عليه.

ينطلق جون غاديس في مقالته **الحرب الباردة، والسلام الطويل والمستقبل**، من المسلمة التالية: لأن باستطاعتنا الآن أن نرى بأن الحرب الباردة التي كانت المنافسة الأشد خطورة ومرارة وامتداداً في الزمن بين القوى الكبرى في التاريخ الحديث، أضحت لفترة، الأطول تمادياً زمنياً للتحرر من حرب القوى الكبرى في التاريخ الحديث. وسواء وافق المرء على الوسائل التي حدث بها هذا، أم لم يوافق، وسواء حتى، قَبِلَ المرء بالطرق التي حصل بها، أم لم يقبل، فالحقيقة البسيطة هي أن الحرب الباردة، تمخض عنها بالفعل سلام طويل الأمد.

فقد مثلت الحرب الباردة، تقسيماً للعالم إلى معسكرين متعادين: كانت استقطاباً لأوروبا. وصراعاً عقائدياً. البعض قال:

أنه بين الرأسمالية والشيوعية، والبعض الآخر بين الديمقراطية والسلطوية. كما كانت تنافساً على (كسب) ولاء ما يسمى بالعالم الثالث، ولممارسة النفوذ عليه.

كانت مباراة أدمغة. صراعاً بين مؤيدي المواجهة ومعارضيها. خلافاً أعطي شكلاً معيناً. وسباقاً للتسلح. تزاحماً تخطى حدود الأرض نحو الفضاء.

وقد يحمل العالم الجديد بعضاً من هذه الخصائص. حيث تهاوت أنماط الاستقرار. فقد تمخضت ظروف الحرب الباردة الخاصة عن السلام الطويل. ولكن لا تبدو المؤشرات الدولية الأولية مشجعة نحو رؤية المستقبل. بين أنصار التكاملية والتجزيئية. بين أنصار الخوف من المستقبل والخوف على المستقبل. إذ ماذا عن حرب دولية في الخليج العربي، وحرب أهلية في يوغسلافية، وانهيار للاتحاد السوفيتي. إنها تعكس طبيعة النظام المستقبلي نفسه. ولكن على المرء أن يبدأ من مكان ما.

يقول **جون مويلر** في مقالته **بعض الأفكار المستدركة حول الحرب العالمية الثالثة**. يبدو أننا مررنا خلال السنوات القليلةالماضية بتجربة شيء يشبه ما يساوي عملياً حرباً عالمية ثالثة. إذا استُبقت البهجة الطارفة مثل سابقتيها المقيتتين في العام(١٩١٤) والعام(١٩٣٩)، بعملية طويلة ناورت خلالها البلدان المتخاصمة للحصول على الموقع من خلال إعلانها عن تصورات تنافسية حول الطريقة التي ينبغي أن ينظِّم العالم بموجبها. وعن تسليح أنفسها حتى شحمات آذانها، ورفع عقيرتها بالتهديد، ومواجهة إحداها الأخرى من خلال أزمات تدعو للإزعاج الشديد.

ففي أعقاب الحرب العالمية الأولى والثانية، اقتضى الأمر بضع سنوات لاستقرار النظام السياسي، الذي استمر بعدئذٍ مستقراً بصورة فعلية. إلى أن أعادت الحرب التالية النظر فيه.

على أن مثل تلك الترجيات في أعقاب الحربين العالميتين الأولى والثانية لم تعمر طويلاً. وعلينا أن نبحث ما إذا كان التاريخ يعيد نفسه في هذا المجال.

وعلى الرغم من أنه قد توجد ميزة ما في اعتبار تجربة السنوات القليلة الماضية، بأنها كانت المعادل الفعال لحرب عالمية، فهناك على الأقل اعتباران على درجة كبيرة من الأهمية يقصر فيهما التقدير الشخصي تقصيراً مذرياً. أولهما، التغير المفاجئ الأخير الذي كان خلافاً للتغيرات التي سبقته، هادئاً إلى درجة مذهلة. ثانيهما، إنه على الرغم من أن الحرب العالمية الثالثة، قد تكون تسببت في تغييرات كبيرة في السياسة الدولية، فلم تُقدم إقداماً ملحوظاً على تغيير التوازن العسكري العالمي، وذلك خلافاً للحربين العالميتين الأولى والثانية، وبخاصة صناعة الأسلحة النووية.

وبرأيي إن هذه الملاحظة الأخيرة توحي إيحاءً قوياً بأن الحرب الباردة من حيث الأساس، كانت تتعلق بالعقائدية أكثر من علاقتها بالتسلح.

فعندما تشكل الاتحاد السوفيتي في العام (١٩١٧) كانت إحدى معتقداته الأساسية، فكرة أن الرأسمالية الدولية أو الامبريالية، هي نظام شرير في أعماقه ينبغي اجتثاثه من على وجه البسيطة، وبالعنف إذا اقتضى الأمر.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ومن الوجهة العسكرية لم يكن تهديد الولايات المتحدة للاتحاد السوفيتي دوماً بأقل من تهديد الاتحاد السوفيتي له، في أواخر الثمانينات. ومع ذلك، تغير كل شيء، لأن الاتحاد السوفيتي تخلى عن عقائديته التهديدية التوسعية.

فقد حدث أن خبت الحرب الباردة عندماتبدلت الأفكار. واسهمت العوامل المادية بالتأكيد في الاتيان بهذ التبدلات. ففي تلك الحالة تكون الحرب الباردة قد بطلت.

وحول مزيد من الإشارة الى اعتماد السلاح على السياسة(بدل العكس)، فإن نهاية الحرب الباردة طلعت بما يمكن تسميته سباقاً سلبياً للتسلح، وأعلن (هانس مورغيناو) مرة بأن «بني البشر لا يقتتلون لأن لديهم أسلحة».

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

حقاً إذا ما نحن خضنا غمار عقبول ما وصفته بالحرب الثالثة، فقد يكون من المفيد أن نتكهن حول التوقعات بأن بالإمكان احتواء العنف الواسع النطاق أو تحاشيه في الصيغة المعدلة للنظام العالمي الجديد.

التوقعات عن الحرب العالمية الرابعة قد لا يكون خارجاً تماماً عن الصدد الاشارة إلى أنه في الذاكرة البعيدة كان هناك زمان –منذ بضع سنوات– عندما كان العديد من الناس يستبد بهم القلق من احتمال نشوب حرب كبرى بين الأمم المتطورة.

زد على ذلك أن ساعة يوم القيامة، إذ هي تمضي في إيحائها، ظن الكثير أن النازلة وشيكة ومؤكدة أوشبه مؤكدة.

قد تكون هذه الهموم مبالغا فيها. إلا ان من الواضح بالتأكيد أن

توقعات(قيام) حرب كونية هي أدنى اليوم بكثير، كائنة ماكانت الاحتمالية فيما مضى.

يضاف الى ذلك تواتر الحرب المحلية. فما زالت الحروب المحلية محتملة كلياً. وفي أعقاب الحرب العالمية الثالثة، وجدت عوامل قد تفعل فعلها في خفض حدوث الحروب المحلية. العامل الأول، هو أنه مع ورود الشيوعية مورد الردى، وئد أيضاً الكثير من الأساطير الخيالية حول الثورة. والعامل الثاني، على الرغم من أنني لا أعقد رجاء كبيراً على هذا، فقد يكون هناك بعض الإنهاك من الحرب في معظم ما كان يعرف بالعالم الثالث(حيث جرت فعلياً سائر العمليات الحربية منذ العام١٩٤٥). أما العامل الثالث فيتمثل في الاصلاح الديموقراطي السلمي الذي يبدو بالمقارنة -الحرب- أمراً لا بأس به. إلا أن ما يعارض هذه العوامل الثلاثة، هي الاضطرابات في مناطق أخرى، وبخاصة من الاتحاد السوفيتي السابق ويوغسلافية السابقة، حيث الاهتياج ظاهر بوضوح.

أما اتساع الحروب المحلية، فإن بضع حروب منذ العام(١٩٤٥) أشعلها مشاركون فعليون كبار في الحرب الباردة، لكن عدداً ضئيلاً بالفعل من الحروب المحلية ألهب نارها غرماء الحرب الباردة المتدخلون. وينتظر مع أيلولة الحرب الباردة الى الزوال، بألا تحدث مثل تلك المفاقمات.

يأتي النظام العالمي الجديد كآلية لحفظ النظام في أعقاب الحرب العالمية الثالثة من خلال تصورين متناقضين، حول مستقبل تعاون القوتين العظميين. كان تحقيق التعاون بين الشرق والغرب أثناء الحرب الباردة عسير جداً. وفي الوقت نفسه، قادت حركية التنافس

في الحرب الباردة إلى اعتقاد الطرفين بأن مصالحهما متشابكة في كل مكان تقريباً. وإذ تبدد هذا العنصر من عناصر المنافسة، أصبحت معظم مناطق العالم أقل أهمية إلى حد كبير بالنسبة للطرفين. وسيكون تعاون القوتين العظميين بالتأكيد إنفراجاً يتخطى تنافس الحرب الباردة المحفوف بالمخاطر.

كما يقلق الكثير من الناس مما يبدو أنه يقظة قومية في أوروبة الشرقية والاتحاد السوفيتي السابق. إلا أنه ليس واضحاً أن نمو القومية قد حدث إلى درجة أقل في أوروبة الغربية في زمن السلم. طبعاً، إن (النزعة) القومية قد تقود إلى الحرب، ولكن كما توحي التجربة في أوروبا الغربية، ليس من الضروري اجتثاثها لكي يسود السلام.

كان هذا الاستعراض حول معظم قضايا الحرب والسلم في حقبة ما بعد الحرب العالمية الثالثة، استعراضاً يسوده التفاؤل. لكنه يبدو مأموناً الاستنتاج بأن النصاب الكارثيcatas trophe Quota سيبقى دوماً، بالنسبة للعديد من المراقبين كاملاً على نخومريخ. وما يظهر بأنه واقع، هو أن الشرور الكبرى عندما تتبدد ترتقي الشرور الأدنى مرتبة لتأخذ مكانها. حتى وإن تضاءلت فرص الكارثة النووية الحرارية(thermonuclear) بحيث لم يعد إلا عدد لافت للنظر بضآلته(من الناس) يحسب أي حساب لها، فقد لمح البعض من بعيد عدواً جديداً: إنه اليابان. ويبدو أنهم يحذروننا جادين، بأن «الاقتصاد هو استمرار للحرب بوسائل أخرى». قد تكون غلطة أساسية وضارة من الوجهة التحليلية، أن نخلط بين السلام والهدوء أو اليقين أو الاستنباء. وكذلك ينسجم السلام كلياً كما هو مبين، مع

الاقتصاد . إن الناس بحاجة الى التخلي عن مؤسسة الحرب ، كطريقة للتعامل مع بعضهم البعض .

«بعض العبر المستخلصة من الحرب الباردة» قدم «آرثر شليسنجر ، الابن» مقالته قائلاً : «علينا أن نتساءل ما الدروس التي قد نرجو أن نتعلمها من قضية امتدت طويلاً وكلفت كثيراً وأشاعت القتام والكآبة والخطر ؛ وما هي أوجه الوقاية التي يجب على الانسانية أن تتخذها للحيلولة دون (التعرض) لمشاهد مشابهة في المستقبل . وأقترح ست أفكار خاطئة قد يحسن بالعالم أن يمتنع عنها في السنوات القادمة .»

الفكرة الأولى يمكن أن يطلق عليها اسم الاعتقاد الخاطئ في المبالغة بتقويم العدو . ففي أيام علو شأن الحرب الباردة ، جعل كل طرف يعزو للطرف الآخر خطة معتمدة للسيطرة على العالم تلازمها قدرة شيطانية في تنفيذ الخطة .

والظاهرة المرافقة ، التي هي في البداية نتيجة ومن ثم سبب مدعم للتأويل المبالغ فيه ، كانت تضمين الحرب الباردة في المؤسسات الحكومية . وعلى هذا النحو فكرتنا الخاطئة الثانية : إنها فكرة المبالغة في التوكيد على المؤسساتية السياسية .

وفكرة خاطئة ثالثة يمكن أن تدعى خطل التنبؤ المتعالي . وإذ أنني من دعاة (المقاربة الحلقية-Cyclical) للتاريخ السياسي الأميركي ، لا أرغب في عدم الاقرار بأن التاريخ يظهر أنماطاً متشاكلة ومعاودات . إلا أن من الأمور الأساسية التمييز بين تلك الظاهرات التي يمكن التنبؤ بها ، وتلك التي هي خلاف ذلك . إن التعميمات التاريخية ذات المغزى ، هي عموماً روايات تدور حول تغيرات واسعة ، بعيدة الأثر ، طويلة المدى .

إن أداء دور الاله بالنسبة للتاريخ هو النتيجة الخطيرة لفكرتنا الخاطئة الرابعة - وهي فكرة الاستقامة الذاتية الوطنية.

كان الروس والأميريكيون على حد سواء، ينظرون الى الحرب الباردة نزالاً بين قوتين عظميين، وتلك وسيلة ثنائية سوفيتية - أميريكية. إلا أن اختزال الحرب الباردة إلى مباراة ثنائية يلعبها الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة، هو الخطأ الفكري الخامس. ولم تكن أمم أوروبة متفرجة على مباراة كائن من كان. كانوا هم لاعبين أيضاً.

الحرب الباردة لم تكن مباراة ثنائية، ولم تكن محصلتها الصفر. ولعدد من الأعوام، رسم لاهوت الحرب الباردة أن الربح لأحد الأطراف كان بموجب التعريف، خسارة للطرف الآخر. لم تؤد هذه الفكرة منطقياً إلى اهتمام بالتفاوض، بل إلى مطالبة بالتسليم. وفي استعادة تأملية للأحداث، فالحرب الباردة، التي كانت أكثر أجمات الانسانية الوثيقة الصلة بالانتحار الجماعي، بامكانها أن تعيد إلى أذهاننا فقط الاتكال المتبادل للأمم والشعوب بعضها على بعض.

لدى إعادة تقييم أصول الحرب الباردة يرى الباحث **صموئيل ويلز** في دراسة تحت عنوان **الأسلحة النووية والأمن الأوروبي**. تظهر مختلف الاستنتاجات الأساسية. كان المسؤولون الأميريكيون في بعض الأحيان يهولون من حجم التهديد السوفيتي. ولكن مع الاعتراف بهذه المبالغات، فمن الخطل التأكيد إنه لم يكن هناك تهديد سوفيتي جدي. وكان هناك تحد لعالم مستقر ولمصالح الولايات المتحدة. ويبين كتاب وشيك الصدور (لديفيد هولواي) حول سياسة ستالين النووية: عندما كان الاتحاد السوفيتي في حاجة الى ملاك علمي وتقني عالي المستوى. إضافة إلى مصادر رمادية لاعادة بناء البلاد، خصصت مصادر بشرية وطبيعية لإعداد برنامج لأسلحة

نووية . ومع أوائل العام(١٩٤٧) ، كان ضباط الجيش السوفيتييون قد وضعوا خطة للهجوم الاستراتيجي المضاد باستخدام أسلحة نووية ، وبحلول العام(١٩٥٠) كان ستالين يضغط على فريقه المختص بتصميم الطائرات لتطوير مقنبلة عابرة للقارات . وإن ميثاق وارسو ، وضع خططاً حربية لغزو أوربة الغربية . تدل على أن الهدف هو التوغل في جميع أرجاء أوروبة الغربية .

وعلى الرغم من أن الديمقراطية كانت دوماً جزءاً من تنافس القوى العظمى ، فإن الخصومة السوفيتية-الأميركية تمحورت جوهرياً حول سباق التسلح النووي . وفرت التقنية النووية لأميركا سيادة على الناتو ، بشكل كان مستحيلاً حدوثه في ظل نظام لانووي . كذلك ، فالأسلحة النووية كان لها تأثير هام في العلاقات بين الولايات المتحدة وحلفائها . وكذلك ، أثارت العلاقة الخاصة قضايا أمام الروابط البريطانية مع أوروبة .

http://Archivebeta.Sakhrit.com

وخارج نطاق علاقات التحالف ، كان للأسلحة النووية إبان الحرب الباردة عدد من التأثيرات الهامة . عندما تكون المصداقية السياسية المحلية عرضة للتحدي ، أوعندما يكون الخطر يتهدد الحلفاء ، ويكونون بحاجة لما يكفل الحماية المدعمة .

وسواء أسهمت الأسلحة النووية في إشاعة الاستقرار أثناء الحرب الباردة أم لا ، فطبيعة التنافس النووي بعد العام(١٩٦٥) تغيرت . وفي أوائل السبعينات ، توصلت القوتان العظميان الى شكل من المباشرة السياسية العامة في أوروبة من خلال اتفاقيات حول وضع برلين واتفاقيات هلسنكي . وما زالت القضايا النووية تحظى بأوروبا باهتمام كاف .

إن نهاية الحرب الباردة غيرت الكثير من المنظورات والاستراتيجيات الوطنية والمؤسساتية. وستتمتع قضايا الأمن العسكري بأهمية أقل، ستكون فيها الحرب العامة في أوروبة بعيدة جداً عن الاحتمال. وتضاءلت فرص حرب نووية كبرى تضاؤلاً كبيراً، وستكون أشد الموضوعات إثارة للاهتمام، هي حيازة الأسلحة النووية بشكل غير مشروع واستخدامها استخداماً لا مشروعاً، أو انتشارها بين الدول الصغرى كالعراق. وسوف يتزايد دور المنظمات الدولية. إن الحرب الباردة تترك من القضايا التي لم يُبت فيها أكثر مما خلفته من دروس واضحة.

تحت عنوان **من انتصر في حقبة ما بعد الحرب يقدم أليكساي فيليتوف** رؤيته: من الطبيعي أن نحلل الحرب بحسب مصطلحي النصر والهزيمة، وهكذا يكاد يكون حتمياً أن نهاية الحرب الباردة ستحلل في ضوء هذين المصطلحين.

ويبدو من غير المرجح أن أياً من القوتين العظميين ربح الحرب الباردة عندما يقارن المرء أوضاعهما ذات الصلة في العالم قبل الحرب الباردة، بأوضاعهما بعدها.

إن كون الحرب الباردة آلت إلى تردٍ نسبي للقوتين العظميين كلتيهما، هو أيضاً أمر يبدو واضحاً عندما يبحث المرء في أوضاعهما الاقتصادية. وإذا ما أدخلنا في الاعتبار تردي القوتين العظميين، فلعل الأكثر صحة اعتبار ألمانيا واليابان الرابحتين الحقيقيتين من الحرب الباردة.

واقترح العديد من الكتاب بأن طريقة أفضل لدراسة موضوع الرابحين والخاسرين في الحرب الباردة، هي تحويل القضية من قضية أية دولة ربحت إلى قضية أية عقيدة انتصرت.

إن بعض الباحثين الغربيين اكتفى برد الحرب الباردة الى المفاهيم الخاطئة. وهذه المقاربة رائجة تماماً بين الباحثين الروس أيضاً، إلا أنني لااعتقد بكونها ذات فائدة.

وإذ جنحت الحرب الباردة بالنسبة للطرفين إلى الانتقاص من أهمية الديمقراطية وكذلك الانتقاص من المنطق والعقلانية في السياسة عموماً. فما له صلة بالموضوع، التساؤل عن سبب ظهور العديد من المبتكرات المفيدة في العالم الغربي بأساليب لمقاربة التنظيم الاجتماعي الداخلي والخارجي. بحيث استطاع أنموذج «السوق والديمقراطية» الانتصار انتصاراً سريعاً في أعقاب الحرب الباردة. وفي حين كان الغرب قادراً على استغلال فترات الهدوء المؤقت هذه، كان الشرق، لسوء الحظ، عاجزاً عن إحراز أي تقدم.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

قد يحتني بعض زملائي في الوقت الحاضر على التروي، وقد يجادلون في أن فكرتي «فراغ القوة» أو «توازن القوة» مثلاً، هما مخلفات مهجورة، وينبغي إلقاؤهما في سلة مهملات التاريخ، فهم يشددون على أن «توازن القوة» مثلاً، هما مخلفات مهجورة، وينبغي إلقاؤهما في سلة مهملات التاريخ، فهم يشددون على أن «توازن المصالح» هو الأمر المعوّل عليه في العالم الحديث.

إنني لا اعتزم الانضمام إلى النقاش الجاري حول المزايا السياسية لخطط محددة أو مقترحات تتعلق بماهية الصيغة التي ينبغي أن يأخذها توازن القوى العالمي الجديد. وألخص دواعي قلقي بثلاثة تحذيرات تبدأ بحرف(لا) مع أنني بصدق، لا أدعي أية نية في الظهور بمظهر المعلم الخاص عن طريق تقديم هذه النصيحة: أولاً، لا تدعوا جانباً كل شيء، لمجرد كونه مرتبطاً بحقبة الحرب الباردة. ثانياً، لا

تكرروا أخطاء الحرب الباردة. ثالثاً، لاتتجاهلوا المشروعات التي تخلت الحرب الباردة عنها.

مات الغرب عاش الشرق هو عنوان دراسة الباحث **بروس كا مينغز** قائلاً: كانت الحرب الرئيسة «للسلام الطويل الأمد» جزءاً من مشروع الهيمنة الاميريكية، بغية دعم مواقع القوة الاقليمية. وفي كورية التقطت الولايات المتحدة قفاز الامبراطورية اليابانية، عاملة على ابقاء كورية الجنوبية وتايوان ضمن نطاق المنطقة الاقتصادية التابعة لليابان تاريخياً. وفي ڤييتنام تلقفتا القفاز الفرنسي. وكانت التدخلات الأقل، كتلك التي جرت في اليونان عام(١٩٤٧) وفي ايران العام(١٩٥٣). وفوق كل هذا بدأ هاجس الصين منذ العام(١٩٤٩) الذي جعل الجمهورية الشعبية، تبدو الأكثر أهمية. ومع أن الأشهر الأولى من العام(١٩٩٠) كانت مترعة بالتفاؤل حول (ربيحة) كبيرة «للسلام» أضحت في المتناول، كان غزو العراق للكويت الجني الشرير، كذلك كان الرد الامريكي على هذا الغزو يحمل مشابهة وثيقة في الرد مع كوريا العام(١٩٥٠) والأكثر أهمية هو أنه إذا كانت كورية بداية المجمع الصناعي العسكري، فإن العراق كان نهايته. ولكن ماذا عن العالم الثالث؟ إنه سيستمر على الأرجح في الحصول على ما كان يناله خلال فترة الحرب الباردة: التزام من الجانب الأمريكي لوحده، ومواجهةمع محدثي النعمة المحليين، إضافة الى سيطرة متصاعدة للعالم الثالث واستغلال له لمصلحة كل أحد (باستثناء مصلحة شعوب العالم الثالث نفسها).

انتهت الحرب الباردة في أواسط السبعينات في شرق آسية (باستثناء كورية) مع الانفتاح على الصين ونهاية حرب الفييتنام. إن

كورية والصين تنظران إلى اليابان كما ينظر البولنديون إلى ألمانيا. كليهما تعرض للاحتلال وأخضع بوحشية. فاليابان قوة ناهضة، وقد تصبح في يوم من الأيام القوة المهيمنة في منطقة المحيط الهادي، أو حتى في العالم.

كذلك نشاهد في مواضع أخرى من شرق آسية استمرارية عوضاً عن التغيير. إن اليابان وكورية الجنوبية والصين، لديهما جميعاً اقتصادات سريعة النمو. ويبدو أن اليابان تحتاط لاحتمال استبعادها من الجماعة الأوروبية بعد العام(١٩٩٢)، بترسيخ موقعها في شرق آسية وجنوب شرقها.

واستناداً إلى التقديرات الراهنة، فإن منطقة المحيط الهادي التي تضم شمال شرق آسية، ورابطة دول جنوب شرق آسية وأوسترالية، سيبلغ ناتجها القومي الاجمالي بحلول العام/ ٢٠٠٠/ مقدار/ ٢,٧/ تريليون دولار، وهذا سيكون أكبر من الناتج القومي الاجمالي للجماعة الأوروبية.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تحت عنوان **النهاية والبداية** يرى **رونالد ستيل** كيف كانت تعقد، خلال أحلك فترات الحرب الباردة، مقارنات مع صراع الحرب العالمية الأولى المسلح، التي قيل أنها تنفجر، كما انفجر الصراع في عام(١٩١٤)، نتيجة لسوء التقدير، والمواقف الكلامية وما كانت تمليه تقنية الأسلحة الجديدة. إن سقوط الدولة السوفيتية الذي مكن البولشفيك من الاستيلاء على السلطة، وإنسحاب روسية من الحرب بعد الاستسلام في بريست-ليتوفسك، جاء نتيجة لضروب صارمة في الحكم الاستبدادي، وأكلاف خوض غمار حرب لا نهاية لها، وفقد صفوة رجالات الأمة ثقتهم التامة في النظام

نفسه . مع ذلك ، فلم يكن ظاهراً بالطبع في ذلك الوقت ، لأن أحداً بالفعل ممن كانوا في موقع السلطة ، لم يكن يرغب في تصديق ذلك .

لم يكن مفترضاً أن تنتهي الحرب الباردة إلى ما آلت إليه ، من انهيار نجم الامبراطورية السوفيتية في أوربا ، وللتنكر للشيوعية ذاتها من قبل مريديها . علينا لأجل هذه الأسباب ، إجراء إعادة تقويم جذري ، حول الطريقة التي انتهت بها الحرب الباردة . لم تكن المشكلة مشكلة (عقيدة Dogma) عمياء ذاتي . كان هذا التصور ، فشل للعلوم الاجتماعية الاميريكية في إيمانها الأعمى (بالتكميم quantipication) ، ولا مبالاتها بالتاريخ والثقافة السياسية ، وتركيزها العرقي العدواني .

إن التعديلية في أشكالها المتقدمة والمتأخرة تحت التبرير الذاتي لتحليل كهذا . لا حاجة للمرء في أن يكون تعديلياً ليدرك أن استعدادات واشنطن الداخلية للمقارعة العسكرية والعقيدية الكونية من أجل السيطرة ، كانت أكثر تماسكاً مع طموحات أميركا وقدراتها لما بعد الحرب ، من أن تكون رداً على امكانية الاتحاد السوفييتي ، في السيطرة السياسية على مساحات هامة ، خارج أوربا الشرقية .

بتنا الآن أكثر معرفة بالاتحاد السوفيتي مما كنا نعرف في السابق . ولو ان الدبلوماسية الاميركية خلال الحرب الباردة ، قصرت هدفها المفترض ، على احتواء القوة العسكرية السوفيتية ، لكانت أكثر نجاحاً ، ولكانت وسائلها أقل كلفة سياسية . إن السبب في أن الحرب الباردة أدت الى عنف كبير ، واشتملت على كلفة هائلة ، وهددت من آن لآخر بالخروج من السيطرة ، لم يكن هو الاحتواء في أوروبا ، بل هو العلاقة بين الشيوعية وانتفاضات العالم الثالث .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

إن توسيع النزاع الأوروبي الى صعيد كوني، الذي سيمكن الولايات المتحدة من توسيع امتدادها العسكري والسياسي، راق لقادة أميركا إلى حد اهتبال فرصة الأمة الجديدة. ولولا العامل السوفيتي لما تمكنت هذه السياسة من الوجود اطلاقاً. إن طاقمي حبل احتواء السوفيتيين والتوسع الكوني، كانا مجدولين في مبدأ ترومان للعام(١٩٤٧).

والأمر الذي يقتضي على المرء استيضاحه حول الحرب الباردة، ليس سبب انتهائها السريع، بل الداعي لاستمرارها زمناً طال أمده، وتطورات الحرب الباردة الى نظام عملي على نحو فائق.

وما لايمكننا تجنبه، أن نهاية الحرب الباردة يعني قصوراً في قدرة الولايات المتحدة على توجيه الأحداث. كما يعني نهاية الاتحاد السوفيتي وتغيير مسار وجوده التاريخي.

http://Archivebeta.Sakhrit.com

ما السبب في نشوء الحرب الباردة وانتهائها؟ يقول ريموند غارتوف: يكمن سبب الحرب الباردة الأساسي في الاعتقاد الجازم لدى الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة كليهما، بأن المواجهة أمر لا سبيل الى تحاشيه، أمرٌ فرضه التاريخ. واعتقد الزعماء السوفيتيون بأن الشيوعية سيكتب لها النصر عالمياً في خاتمة المطاف، وأن الاتحاد السوفيتي كان دولة الاشتراكية/ الشيوعية الطليعية. ومن جانبهم كان الأميريكيون وزعماء غربيون آخرون، يسلمون بأن الاتحاد السوفيتي عاقد العزم على تعزيز قوته، واتخاذ سياسات توسيعية، بجميع الوسائل المناسبة، بغية الوصول الى عالم شيوعي، يقوده السوفيتيون.

وعمل الأميريكيون والسوفيتيون ضمن إطار الصراع العقيدي،

على إدارة الحرب الباردة، على اعتبارها، صراعاً جغراسياسياً، على نحو أكثر، بالنسبة لسياسات توازن القوى التقليدية، من كونها صراعاً طبقياً أو نظرية احتواء لردع كوني.

وكما يعتقد على نطاق واسع، فالغرب لم يربح الحرب الباردة من خلال احتواء جغر سياسي وردع عسكري. لا بل، عندما أدرك جيل جديد من القادة السوفيتيين، إلى أية درجة من السوء، أخفق نظامهم في الداخل، وفشلت سياساتهم في الخارج. إذ لا يمكن إلا لزعيم سوفيتي، أن يضع حداً للحرب الباردة، وتنطع غورباتشوف عامداً للقيام بذلك.

ومع أن العامل الحاسم في نهاية لحرب الباردة كان تبدلاً في هذه العقائد، فيحسن بنا، أن نعيد إلى الأذهان، أن السوفيتيين، ما كان بمقدورهم التخلي، عن عقيدة مبهرجة ومألوفة منذ زمن طويل، إلا نتيجة لتحول قوي، في الطريقة التي نظر بها غورباتشيف إلى الواقع، ونتيجة لاستعداده، لتكييف السياسات المحلية والخارجية، مع النظرة الجديدة.

ماذا حل بالعالم الثالث نتيجة الحرب الباردة وانتهائها. وكيف نظر العالم الثالث الى هذه الحرب. ذلك هو مضمون مقالة المفكر الأميريكي **نعوم تشومسكي** تحت عنوان **رؤية من الأدنى**. يقول (تشومسكي): حدثت خلال بضع السنوات المنصرمة، تغيرات هامة في النظام العالمي، وبخاصة، بين الشمال والجنوب. ويرجع استمرار الصراعات بين الشمال والجنوب، ذات الجذور الضاربة في العمق الى العهد الاستعماري، مع الظروف المتغيرة، التي تمثل نهاية الحرب الباردة، ومظهراً واحداً من مظاهرها.

كان السقوط السوفيتي، جانباً من كارثة الثمانينات الاقتصادية الأكثر عمومية، والتي كانت أشد حدة في مجالات العالم الثالث العائدة للغرب، مما كانت في الامبراطورية السوفيتية.

وكما يلاحظ عموماً، أضحى النظام الكوني ثلاثي الأقطاب اقتصادياً. وخلف في العالم الثالث، التردي الاقتصادي والعنف. إلا أن ردود الفعل في العالم الثالث كانت، ردود فعل مختلفة. فقد دعت اللجنة الجنوبية، وهي غير حكومية، في ختام تقريرها المسمى: تحد للجنوب، إلى نظام عالمي جديد»، يستجيب «لمطالبة الجنوب بالعدالة، والمساواة، والديمقراطية في المجتمع الكوني»، رغم أن تحليله، يقدم أساساً ضعيفاً للأمل.

أعطيت للجنوب في النظام العالمي القديم، وظيفة خدمات: على سبيل المثال، لتوفير المصادر الطبيعية، واليد العاملة الرخيصة، والأسواق، وفرص التثمير، ولتصدير التلوث.

فقد اتخذ صراع الشمال-الجنوب صيغاً جديدة مع الظروف المتغيرة إلا أن الموضوعات الأساسية تعاود الرجوع. ففي أعقاب الحرب العالمية الأولى، أدرك القيمون الاستعماريون بأن حكم الشرق الأوسط سيكون أكثر نجاعة من وراء «واجهة عربية»، مع «استيعاب» للمستعمرات «المقنعة بتوهمات دستورية» على كونها محمية، ومجالاً للنفوذ، ودولة عازلة

كانت هناك للحرب الباردة ذاتها أبعاد شمالية-جنوبية. إذ كانت الأراضي السوفيتية جزئياً أراضي تابعة، شبه مستعمرة للغرب والتي نجيت من العالم الثالث، وتبعت طريقاً مستقلة، ولم تعد متاحة «لتكمل اقتصادات الغرب الصناعية». وكما لاحظت لجنة الجنوب،

كانت هناك بعض الالماحات الى دواعي القلق في السبعينات لدى العالم الثالث، «حفزها ولاشك» القلق من «موقف الجنوب المتشدد، المؤسس حديثاً بعد ارتفاع أسعار النفط في العام«١٩٧٣» .

وكان الفصل الثاني من عدوان ما بعد الحرب الباردة، غزو العراق للكويت، بتحول صدام حسين بين عشية وضحاها من صديق إلى خارج عن الطاعة. وعانت الأمم المتحدة مزيداً من الضربات من خلال حق النقض «الفيتو» لابطال قراراتها. كذلك استمرت الأعمال العدائية ضد الديمقراطية الهادفة، دونما تغيير. كان التقرير الأول لاستراتيجية الأمن الوطني، لما بعد الحرب الباردة، المرسل إلى الكونغرس: أن القوة العسكرية، ينبغي أن تستهدف العالم الثالث، الشرق الأوسط بالمقام الأول. واستخدام القوة للسيطرة على العالم الثالث، هو الخيار الأخير. وستكون النتائج، تقليص دور حكومات العالم الثالث، الى وظيفة شرطية، تتولى مهمة التحكم بطبقاتها العاملة، وبسكانها الفائضين.

http://Archivebeta.Sakhrit.com

نهاية الحرب الباردة والشرق الأوسط: عنوان مقالة الباحثة **نيكي كيدي**. التي ترى إن لما يجادل فيه، أن الشرق الأوسط كان مسرح الحرب الباردة، الأمر الذي تبدى في عدد من التطورات الاقليمية، غير المتوقعة، خلال العقود الأربعة بعد العام(١٩٤٦)

إن تركيزاً كهذاً، على الشرق الأوسط، الذي كان جزئياً، يعود بالنسبة للاتحاد السوفيتي، إلى الجوار والحدود المشتركة، جاء نتيجة للاهتمامات الاميركية-السوفيتية حول نفط المنطقة وموقعها الاستراتيجي. وإذا ما أخذنا في الاعتبار أهمية الشرق الأوسط للحرب الباردة، فقد نفترض بأن نهاية الحرب الباردة، ستعني تدنياً

ملحوظاً لمثل تلك التدخلات، إضافة إلى انخفاض في التوترات بالمنطقة.

وتأثير نهاية الحرب الباردة في الشرق الأوسط، لا يمكن ان يكون بمعزل عن تأثير أزمة الشيوعية في العالم الثالث. هناك أولاً التأثير الاقتصادي لأزمة الشيوعية، وتأثير التحول الديمقراطي المحتمل، في أوروبة الشرقية، والتأثير في الحركات اليسارية، أو الشيوعية، وفي الحكومات، للتخلص السريع من الاقتصاد الشيوعي وفكره العقيدي. وهناك رابعاً، نهاية تزاحم القوتين العظميين في أغلب أرجاء العالم. ويأتي خامساً، توفر الرغبة لدى (امبراطورية الشر) السابقة، للسير في خطا السياسة الأميركية الخارجية، كما حدث في حرب الخليج.

وقد حمل انتهاء الحرب الباردة الى الشرق الأوسط، على وجه الاجمال، تغييراً أقل مما كان متوقعاً، والسبب يعود الى أن السياسات الأميركة في المنطقة، لم تتبدل تبدلاً فعلياً.

الولايات المتحدة وألمانيا والأمن الأوروبي في أعقاب الحرب الباردة هو عنوان مقالة الباحث **هيرمان** روبير: فقد كانت بداية الحرب الباردة، جزئياً على الأقل، نتيجة للنزاع، حول كيفية إدماج ألمانيا في نظام ما بعد الحرب.

إن مفهومين اثنين متواشجين، حدّد السياسة الخارجية الأميركية تجاه أوروبة وهما: احتواء الاتحاد السوفيتي والأمن لألمانيا ومنها. وإن سائر التطورات لفترة ما بعد الحرب، حددّهما هذان المفهومان الأساسيان.

فقد وضع التعاون مع الغرب، خلال فترة ما بعد الحرب، بصورة فعالة، حداً لأية مخاوف من أن ألمانيا، قد تعود إلى سياسة إثارة الشرق ضد الغرب. إضافة الى توفير الولايات المتحدة، مظلة عسكرية لأوربة الغربية ودعم انتعاشها الاقتصادي. هكذا نشأ نظام ما بعد الحرب في أوروبة. ومنذ البداية.

ورغم أن «احتواء» الاتحاد السوفيتي، و«الأمن لألمانية والحيطة منها»، ميزت الاطار السياسي للسياسة الأميركية، في أوروبة. ففي أوائل الخمسينات طرحت هذه الأفكار، للمحافظة على السلم في أوروبة.

وعلى مدار حقبة ما بعد الحرب، منذ قيام الجمهورية الاتحادية، كانت هناك درجة تشد الانتباه، من الاستمرارية في السياسة الخارجية الأميريكية، وفي عمليات صنع السلام مع ألمانية. وكذلك تعمل اتفاقية أربعة -زائد- اثنان على دعم الأمن الأوروبي، بادماج مراقبة التسلح ونزع الأسلحة واجراءات بناء الثقة معاً.

والنظام الجديد يفرض، بالنسبة لألمانية، متطلبات خاصة: أن تعيد تحديد دورها، وأن تكون نزاعة الى أداء دور أكبر. وعلى الولايات المتحدة والجماعة الأوروبية كليهما، القيام بدور يُوبه له، في إعادة بناء ألمانية الشرقية، وأوروبة الشرقية، والاتحاد السوفيتي السابق.

وأظهرت حقبة ما بعد الحرب، أن أوروبة يعمها أفضل رخاء، إذ ما وفر نظام مظلة سياسية واقتصادية وأمنية، إطاراً أساسياً لتنمية المنطقة تنمية عامة.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يقول غاير لونديستاد في مقالته نهاية الحرب الباردة، ودور أووربة الجديد، وتردي الولايات المتحدة: أولاً: إذا ما عُرِّفت الحرب الباردة، بأنها علاقة تنازعية جداً، بين كتلتين، غير قابلة للتصالح، فهي، قد انتهت بالتأكيد. ثانياً: مع ضعف الثقة الآن، بالحزب الشيوعي والتخطيط الاقتصادي، ومع التقدم السريع للديموقراطية، والسوق في الاتحاد السوفيتي السابق، ضاقت كذلك، شقة الخلاف العقيدي، إلى حد بعيد. ثالثاً: تغير نظام الكتل تغيراً كبيراً. وبصورة أكثر تحديداً بين الولايات المتحدة وأوروبة الغربية واليابان.

ومن الطبيعي، أن نهاية الحرب الباردة، كان لها تأثير، عاد بالنفع على المناخ الدولي بأكمله، وعلى المناخ، بين الشرق والغرب بخاصة. ويمكن رؤية ثلاثة تطورات مختلفة. التطور الأول: أن بعض النزاعات الاقليمية حلت كما يبدو، جزئياً على الأقل، بسبب المناخ الجديد. التطور الثاني: أن نهاية الحرب الباردة عملت بالتأكيد، على الحد من الصراعات، في افغانستان والشرق الأوسط. التطور الثالث: أن بعض النزاعات، يحتمل أن تتفاقم جراء المناخ الجديد.

لا شك أن نهاية السلام السوفيتي خلَق نظاماً أكثر عدالة، لكنه على الأرجح، نظام أقل استقراراً، مؤقتاً على الأقل. وختاماً، كان هناك على الدوام تنافس للقوى العظمى، وسيستمر في أغلب الاحتمالات، على الرغم من تراوح شدة الصراعات تراوحاً واسعاً.

يقول كارل أليبروفيتز وكادي بيرد في مقالهما الحرب الباردة وقضايا القرن العشرين. في هذه الآونة، بات من الأمور الاعتيادية، أن «الحرب الباردة» انتهت، أو آلت، على الأقل، إلى تغيير جذري.

ومع ذلك، فهي على قدر كبير من الأهمية، ضمن ثلاثة معاني محددة:

المعنى الأول: أن سقوط التباعد العسكري السوفيتي-الأميركي، يمثل بوضوح التوصل إلى توطيد هام للذات، وإن كان ما يزال محدوداً، على سبيل القبول، بالتهديد النووي الحراري.

المعنى الثاني: ان انتهاء الحرب الباردة قد يخفض، إن لم يكن، يبطل جذرياً، النوعية الواسعة، من حروب التدخل المحدود، التي خاضتها الولايات المتحدة، في كوريا وفيتنام.

المعنى الثالث: ولعله المعنى الأكثر أهمية في النهاية -آن التحول في التهديد النووي، وتضاؤل احتمال الحروب المحددة الواسعة، قد يعني، أن الحرب الباردة، لم تعد تهيمن، على الخطاب السياسي المحلي، في الولايات المتحدة، فإن كان الأمر كذلك -وإذا لم تعد الحرب الباردة، مسلطة على الاقتصاد الأميركي، وعلى السياسات الأميركية- فإن القضايا الأساسية، التي همشت لأكثر من أربعة عقود، يحتمل أن تعود الى الظهور.

وختاماً، فإن الحرب الباردة التي ذوت، قد تصبح المسرح الأول، في عملية النزاع الشرعية، في الداخل والخارج، وبالتالي نتساءل عن المتطلبات المنهجية، لنظام محلي دولي في القرن الجديد القادم.

ختاماً نقول في تقديمنا لهذا الكتاب: حاولنا قدر الامكان، الوقوف على أهم الدراسات التي عالجت اشكالات سياسية وتابعية (اقتصادية-عسكرية) تهم دول العالم كافة الغني منه والفقير، الحاكم

والمحكوم، المتطور والمتخلف. وحاولنا أيضاً تبيان أهم القضايا مع نهاية الألفية الثانية: انتهاء الحرب العالمية الأولى والثانية والباردة ومخلفاتها، نهوض العالم الأوروبي واليابان، التكتلات الاقتصادية في جنوب شرق آسيا والقارة الأميريكية، اضمحلال دور الولايات المتحدة الأميريكية، انهيار الاتحاد السوفيتي والكتلة الشيوعية، وأخيراً مصير دول العالم الثالث ومنها دول أفريقيا والوطن العربي. آملين أننا بتقديمنا هذا قدمنا ما يفيد، والكتاب رغم رائحته الايديولوجية الغربية النفاذة، يستحق القراءة والاهتمام.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

* * *